

٦٥٩

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بوبكر بلقايد * تلمسان*

كلية الآداب واللغات

مكتبة المدرسة والأدب العربي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وأدابها

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والأدب العربي

تخصص: التواصل اللغوي

الخطاب الإقناعي في ضوء التواصُل اللُّغوي

- الحجاج بن يوسف الثقفي "نَمُوذْجًا"-

الشرف الرئيس:

إعداد الطالبة:

كما الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرطاض

كما عمارة حاكم

الشرف المساعد:

كما الدكتور رمضان كريبي

أعضاء لجنة المناقشة:

جامعة تلمسان

أستاذ التعليم العالي رئيساً

أ.د. محمد عباس

جامعة تلمسان

أستاذ التعليم العالي مشرفاً ومقرراً

أ.د. عبد الجليل مرطاض

جامعة تلمسان

أستاذ محاضر مشرفاً مساعداً

د. رمضان كريبي

جامعة تلمسان

أستاذ محاضر عضواً مناقشاً

د. الهادي بوروبة

جامعة تلمسان

أستاذ محاضر عضواً مناقشاً

د. محمد بلقاسم

السنة الجامعية: 1427-1428 هـ/ 2006-2007 م

مقدمة

أما البلاغيون فمنهم من تباه للخصوصيات، واعتبرها عند تأليفه، مثل قدامه وابن رشيق وإسحاق بن وهب، ومنهم من لم يهتم بالتمييز إلا بشكل ثانوي خارج عن بناء مفاهيمه البلاغية مثل ابن سنان الخفاجي وأكثر المشتغلين بالإعجاز، ولقد كان لذلك انعكاسات سلبية وإيجابية، ثم إن دراسة الخطاب الإقناعي قد صارت من الأولويات في العصر الحديث، لذلك استعانت بالبحوث الاجتماعية والنفسية.

ولقد أثار حيرتي انتقطاع دارسينا عن دراسة التراث واهتمامهم بالشعر، وتراثنا الشري - كما هو معروف - يضاهي التراث الشعري، والحال أننا نجد فنونا أدبية تستقل بمناهجها الخاصة بها؛ مثل الرواية والمسرح، وتبذل فيها جهود تبرز خصوصيتها وفعالية مناهجها.

ومن هنا فإن دراسة الخطاب الإقناعي دراسة شعرية لا تعدم الشرعية بصفة مطلقة، ولذلك وقفت عند كل عناصر الشعرية التي رأيت أنّ لها ضلعاً في التأثير والإقناع، ولهذا تناولت بالتحليل ثلاث بني؛ بنية التكرير، بنية الازدواج، بينة التوازن.

ولأن موضوع - الخطاب الإقناعي - حسب اطلاعي على الموضع الأكاديمي المقدمة بجامعتنا - لم يتطرق إليه أي باحث نذرت نفسي لتحمل عباء الزيادة وسد الفراغ حسب استطاعتي - دون تهميش للبلاغة العربية أو بعد عن النص الخطابي العربي.

فكان أن اخترت بعض النماذج من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لا تنظر إليه الكتب - غالباً - إلا كرجل سيف وحرب...

ومن هنا كانت النماذج المتنبحة في هذه الدراسة أرضية أسقط عليها كل ما هو نظري، وذلك أن النظرية وسيلة طموحة لوصول الخاص بالعام، وإعطاء ما يبلو منعزلاً وظيفته ضمن نسق شامل، من هنا تتجلّى الفصول عن النظريات الحديثة من سيمولوجية وتداوile ومعرفية وأسلوبية وبلاغية، وذلك لما يتميز به المتن الخطابي العربي من نفعية وتأثيرية وتأويلية وشاعرية.

ولأجل ذلك رأيت أن مصطلح الخطاب يمكن أن يختزل الموضوع والمنهج في آن واحد، خاصة أنني نظرت إليه بكل المفاهيم التي أحققت به منذ دروس سير، حيث كان معادلاً للكلام (parole) باعتباره حوادث لفظية، إلى بعد الذي يتتجاوز فيه الجملة، والذي منحه إياها نحو النص وما أسبغته نظريات الحديث والتداولية عليه باعتباره حدثاً تلفظياً له سلطته الفعلية على الآخر؛ لأنه نظام من الضوابط التي تنظم وتحكم إنتاج مجموع غير محدد من الملفوظات، انطلاقاً من موقع اجتماعي أو إيديولوجي معين، لذلك فضليه على مصطلح النص بعده المحايث الذي يتتجاوزه الخطاب في تحسينه دورة التواصل بكل عناصرها من مرسل ومتلق ورسالة وشفرة خاصة وسياق، غير أن ذلك لم يمنع من استعمال مصطلح النص وأنا أعاين المظاهر النصية من خلال الخطاب الذي يحملها، وبعد الخطابي للتواصل الذي يلخص جوهر إشكالية البحث، وجسدتها في الحركية التواصلية التي تعرف بالوضع الاتصالي والتغيير الذي طرأ عليه، والنتائج التي برزت من خلال تحليل الخطاب لذلك كان العنوان: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي -الحجاج بن يوسف "نموذجًا".

مقدمة

ولذلك تعرضت لفك التعاضل الاصطلاحي حتى تتوضّح المفاهيم وتحدد المعارف، فكان المفهوم المفتاح هو التواصّل في سياق أعم من ذلك الذي يختزل فيه إلى مجرد إيصال معرفة على محور "أنا" و"أنت"، وذلك بالنظر إليه باعتباره تنظيماً داخلياً خاصاً للخطاب، على اعتبار أن الإقناع بعد جوهري في كل خطاب، ولهذا عمدت إلى الاهتمام أكثر بشروط تأدية الخطاب، آخذة بعين الاعتبار أن النشاط الإبداعي يتمركز عند محوري الإنتاج والتآثير في الآخرين وهذا تماشياً مع أغلب النظريات الحديثة التي أصبحت توالي اهتماماً كبيراً لتحليل الخطاب الإقناعي.

ولقد تولّد لدى هم أولى هو اكتشاف كيف يستغل المعنى في الخطاب الإقناعي، وكيف تعالج مظاهره التواصلية الإقناعية، فتناولت أهم مظاهر الخطاب وكذا مظاهر الحاجاج والمكونات النصية في علاقتها بما هو تواصلي؛ مثلما تعرضت إليه نظرية التلقّي، سواء من حيث الكفاءة التلفظية من جانب المرسل، أو الكفاءة التأويلية من جانب المتلقّي، أو في إطار المكوّن الشعراوي أو التداولي أو التناصي، وبين الكشف عن طبيعة التواصلي وتحليل المكونات الخطابية الإقناعية.

ثم تساءلت عن الكيفية التي يمكن لتحليل الخطاب أن يضيء بها الجانب الإقناعي وأي المكونات المذكورة أكثر قدرة على التأثير والإقناع. الأمر الذي منح لي مبرر الاعتماد على آليات مختلفة من المناهج الحديثة التي فرضتها الإشكالية والمنتخبات المعتمدة، فتبين لي أنها تستند إلى مبادئ مشتركة منحتها إليها اللسانيات كمفهوم البنية والنظام والنّسق، وما أسفرت عنه مورفولوجية (prop) من تطور والذي يسمى بالسيميائية وإسهاماتها في الكشف عن مبادئ

مقدمة

تنظيم الخطابات، وما أفرزته البنوية التي تتجاوز البنية إلى بني آخر، وكذلك الأسلوبية والتداوile و المعرفية وأنهراً ما تمنحه نظرية التواصل التي تعتبر الخطاب رسالة بين مرسل ومتلقي وتنجز بوسائل داخل سياق محدد في المكان والزمان قصد التبادل والتبيغ والتأثير والإقناع.

ومن هنا فرضت علي هذه التوليفة المنهجية للاختيارات الرئيسة للآليات الأساسية في النقد المعاصر، ولم يكن التنسيق بين هذه الخيارات كالتداوile والسيمية والبنيوية والأسلوبية والمعرفية والتأويلية ونظرية التلقى سهلاً، ولكن بعد معاينة الإشكالية المنهجية، وغياب منهج مكتمل للتعامل مع مختلف الخطابات، أدركت أنه الخيار الوحيد نظراً لطبيعة الخطاب الإقناعي والإشكالية معاً، وخاصة بعد التردد بين المنهج الوصفي والمنهج التاريخي، وهو المنهجان المسيطران في تحليل الخطاب عندنا اليوم.

فالمنهج الأول يندفع بموضوع إجراءات البنوية وخاصة السيمية السردية، يقوم بوصف النصوص وأجزاء الكلام، الأمر الذي يسقط في نوع من الآلية والتقنية التي تتساوي بين النصوص المختلفة.

والثاني الذي يشق طريقه من المنهج التقليدية ليطل قليلاً على ما يتناسب مع الآليات الحديثة كالشعرية والتأويل، ولكن دفعاً للتعارض المفتعل بين القديم والجديد، اقتربت من الخطاب الإقناعي، وفي نيتها تجاوز المنهج الوحيد والمهيمن والمتطور الأحادي الإيديولوجي الذي ينظر إلى الإقناع على أنه بُعد ملازم لكل خطاب.

مقدمة

وبعد التطور الهائل في المناهج أو قفي إشكال مهم بين الحجاج والإقناع، وذلك أن الحجاج يعد من المفاهيم المثيرة للالتباس بالنسبة لأي باحث خاصة عند ضبطه وتدقيقه، وهذا تعرّض لمفهوم الإقناع من خلال النظريات الحديثة لازيل إشكال الالتباس، لأنّرج بعد ذلك إلى الحجاج لغة وأصطلاحاً، ثم إلى مظاهره المتعددة، ومن ثم إلى مجال استعمالاته، من خطابة إلى خطاب، ومن فقهه إلى قضاء، ومن منطق إلى فلسفة.

ولعلّي أسهبت كثيراً في تناول الحجاج، وذلك لأنّ حاولت أن ألم بشتات كل النظريات التي تقترب من الحجاج فكان أن تعرّضت للحجاج في التداولية واللسانيات، ثم الحجاج والبلاغة، وبعد ذلك الفقه والحجاج، ثم الحجاج والقضاء، مروراً إلى الحجاج والفلسفة، لأصل بعد ذلك إلى ميزات الحجاج الفلسفية وارتباطاته بالبرهان وبالجدل وبالمحوار، وبالبلاغة لأنّتهي إلى تحليل علاقة الاستدلال بالحجاج.

ولإسهابي في التعرض إلى الحجاج، ميررُه الذي يتمثل في كون الحجاج بعدها ملزماً لكل خطاب على وجه الإطلاق، وذلك أن كل خطاب حال في اللغة التي تمنحه العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج أي عناصر الاستدلال والدليل، كما أن الحجاج يغطي كل مجالات الخطاب التي تهدف إلى الإفهام والإقناع، مهما كان المتلقى ومهما كانت الطريقة المتبعة على أحد تعبير منظر البلاغة الجديدة "شارل بيريلمان".

وأمام الكم الهائل من الآليات المختلفة وجدت نفسي مضطورة لذلك الاختيار الذي سمح لي بالاعتماد على الطريقة النسقية التي تنظر إلى خطاب

مقدمة

الأدي على أنه نسق من الاتصال السيميولوجي والخطاب الإقناعي، ولا أدعى هنا الحيادية في التحليل الذي ييدو أنه شرط يصعب احترامه بالنسبة للباحث الذي ما هو إلا قارئ يمارس قراءة مفتوحة على خطاب مفتوح قابل لأن تكون قراءاته لا نهاية.

ودراستي هذه - بكل تواضع - تتجاوز في أهم جوانبها مجرد الرصف للبنية المحايثة للدلالة، ووصف العلاقات بين مكونات مع أخطرى خارجة كالتلقي الفعلى للنصوص.

ولقد كان الفصل الأول الذي عنونته "البلاغة والتحليل التداوily للخطاب" مساحة عرضت فيها كل ماله علاقة بالبلاغة القديمة من زمان أرسطر إلى البلاغة الجديدة - زمان شارل بيريلمان - فكانت أن عرفت البلاغة متعرضة لمعظم مجالاتها، فرصدت كل آلياتها التي تساهمن بشكل كبير في إحداث التأثير والإقناع، ثم مرت إلى التحليل التداوily للخطاب وذلك أن التداوily هي المعرفة العميقية بالنفس البشرية، والمعرفة العميقية بدلالة الكلمات والمفاهيم ومعرفة عميقية بالماضي والحاضر، ومعرفة عميقية بالعلاقات القائمة بين الأشياء والظواهر والأفكار والأحداث والواقع، ومعرفة بالقضايا علمية كانت، أو سياسية، أو اجتماعية، ...، ومعرفة عميقية بمعرفة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالعالم. فالتمادوily لا تعطي التواصل اللساني أو غير اللساني الإطار النظري لمعالجة قضايا مثل أفعال الكلام أو الحاجج أو قواعد الحوار، ولكنها تقدم صيغة مقاربة جريئة للمشاكل التي كانت تعتبر تقليديا في صلب الدلالة مثل المرجع والسياق.

مقدمة

والاقتضاءات، وهي لذلك تدخل في اهتمامها القدرة الإنجازية والقدرة التأويلية وقدرة الفهم، كما تدرس كيف يصل التلقي إلى المعنى المراد. ومن منطلق الخطاب الإقناعي ذاته، الذي هو جوهر نظرية التلقي، تعرضت في الفصل الثاني إلى "الخطاب الإقناعي -وسائله و مجالاته" - فتناولت مفهوم الإقناع مشيرة إلى بعض النظريات التي قامت بدراسة التأثير والإقناع، خاصة في الميدان الاجتماعي، ومن بعد ذلك كنت ملزمة بأن أتعرض إلى أدواته، فكان الحاجج أول وأهم وسيلة من الوسائل المنطقية التي يتخذها الإقناع دعامة لتبير الأقوال والأفعال.

وكما سبق الذكر، فقد أسلبت في تحليل الحاجج حتى أرفع تلك الملابسات التي قد يتعرض لها الباحث، ومن ثم بحثت في الاستدلال والبرهان وفي علاقة كل عنصر بالتأثير والإقناع فقمت بتحليل بنية التكرير بنوعيهما، بنية الشكل وبنية المضمون، ثم انتقلت إلى بنية الأزدواج ومنها إلى بنية التواري حيث قمت بشرح وتوضيح وظيفة كل بنية ليتجلى دورها في الإقناع.

واحتكمت في الفصل الأخير إلى المستوى التطبيقي الذي عنونته بـ"الخطاب الإقناعي -في منتخبات من خطب الحاجج" - فكان هذا الفصل أرضية لتطبيق كل ما جاء في الفصلين (الأول والثاني) فاختارت بعض النماذج من خطب الحاجج؛ لأنني رأيت أنها تشتمل على وسائل الإقناع المدرستة ولكنني ركزت على خطبة الولاية، وذلك لقيمتها العلمية والسياسية خاصة، وأنها خطبته المشهورة.

مقدمة

ولأني راعيت التدرج في الإجابة عن الإشكالية المطروحة، كانت خطة البحث، خطة راعيت فيها التسلسل الزمني في عرض الظاهرة، وأردت أن تؤدي بعض الوظائف، كالوظيفة الكشفية؛ من الكشف عن كثير من القضايا الغيبة والغامضة وتحليلها، والوظيفة الإعلامية التي عرضت بفضلها فعالية المعطيات والأفكار التي تداولها خطباء السلف خاصة الحجاج الذي يعد ثنوذجاً لعصره، والوظيفة الإقناعية التي مكنتني من تأكيد بعض الفرضيات على منتخبات الحجاج.

وأنهيت البحث بخاتمة، حوت أهم النتائج العامة التي وصل إليها البحث، وفسحت فيها المجال لأعرض فيها بعض الاقتراحات التي أعتقد أنها بداية طيبة لموضوعات مهمة لمن يريد أن يبحث في الخطاب الإقناعي.

ولم تواجهني صعوبة الحصول على المراجع التي تتحدث عن الإقناع، وهي كثيرة ولها قيمتها، كما أنها تحوي إشكاليات لو استغلتها الباحثون لشكلت مشروعًا يعيد النظر في كل ما قيل عن الحجاج والإقناع.

وكان أملني في كل هذا، أن أسهم ولو بشكل بسيط في قراءة الخطابة العربية من أجل تشكيل معرفة ووعي جديد بتراثنا ومن ثم بذواتنا، وخاصة أمام ما كتب عن الخطاب الحجاجي العربي من دراسات تتکاثر دون أن تشير إلى نصوص الخطابة العربية عبر عصورها المعروفة الجاهلي، الصدر الأول الإسلامي، العصر الأموي، العصر العباسي.

مقدمة

وبعد، فإنني أعتبر هذا البحث -مع النقائص والهفوات التي يمكن أن تلاحظ فيه- مدخلاً للخطاب الإقناعي العربي -رسمت معالمه أفكار وملحوظات أستاذتي الكرام- خاصة أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عبد الجليل برتاض، والأستاذ المشرف المساعد الأستاذ الدكتور كريب رمضان اللذان أبديا اهتماماً كبيراً بالموضوع، وتشجعوا أكسيبي ثقة بالنفس، ولهما الفضل كذلك في توجيهي دائماً وتزويدني بأهم المراجع المعتمدة ، ولم ينحلا علي بعلاحظاهما واقتراحهما القيمة، فلهما ولكل أستاذ ساعدني جزيل الشكر وفائق الاحترام.

مـدـخـل

فك التعارض الاصطلاحي

1- المدلول اللغوي لكلمة خطاب

2- فما المدلول الاصطلاحي للخطاب

3- التواصل اللغوي

إن ما يجب النظر فيه منذ البداية في أي بحث علمي، هو تحديد مصطلحاته حتى تبيّن المفاهيم، وتميّز الحقائق، وتتجلى الحدود المعرفية المحصلة، ومن هنا اختارت البدء بتحديد مفاهيم المصطلحات الواردة في عنوان البحث.

-1 المدلول اللغوي لكلمة خطاب:

ووجد في المعاجم العربية أن مادة "خطب" ومشتقها تُحيل على عدّة معانٍ منها:

- 1- الشأن أو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة سواء صغر الأمر أو عظُم، فيقال: خطبٌ، وخطوبٌ، وقيل: هو سبب الأمر؟ يقال: ما خطبك؟ أي ما أمرك، ونقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير⁽¹⁾.
- 2- المواجهة بالكلام⁽²⁾، أو مراجعة الكلام⁽³⁾ وهو الخطاب والمخاطبة.
- 3- و"المخاطبة مفاعة من الخطاب والمشاورة"⁽⁴⁾ والخطب اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر.
- 4- ورجل خطيب، حسن الخطبة، وجمع الخطيب خطباء، وخطب بالضم، خطابة بالفتح صار خطبياً⁽⁵⁾.

1) ينظر: القاموس، والأساس واللسان، مادة (خطب).

2) أساس البلاغة، محمود الزمخشري، دار صادر، 1979، مادة (خطب).

3) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، مادة (خطب).

4) لسان العرب، أبو الفضل محمد بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر، مادة (خطب).

5) المرجع نفسه، ص: 361.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

وفي حديث الحجاج: أمن أهل المحاشد والمخاطب، أراد بالمخاطب الخطيب على غير قياس، كالمشبه، واللامح، وقيل هو جمع خطبة، والخطبة أو المخاطبة مفاجلة من الخطاب والمشاورة؛ أراد أنت من الذين يخطبون الناس ويختونهم على الخروج والاجتماع للفتن⁽¹⁾.

وفي كتاب التهذيب للأزهري (ج. 7)؛ قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾⁽²⁾؛ قال: هو أن يحكم بالبينة أو البين، وقيل: معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويكثّر بين الحكم وضدّه، وقيل: فصل الخطاب: "أَمَا بَعْدُ"، وقيل: فصل الخطاب: "الْفَقَهُ" في القضاء⁽³⁾.

ولقد حاول ابن وهب أن ييلور معنى القول أن الخطبة اسم الكلام، ورجل خطيب إذ ربط بينهما ربطا سبيلا في اتجاه الارتفاع بالمعنى إلى مستوى الإصطلاح، فقال: "إن الخطابة مأخوذة من خطبت، أخطب، خطابة... واشتق ذلك من الخطب وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تحل، والاسم منها خطاب مثل راحم، فإذا جعل وصف لازما قيل خطيب، والخطبة الواحدة من المصدر... والخطبة الكلام المخطوب به"⁽⁴⁾.

(1) - لسان العرب، ص: 361.

(2) - سورة ص، الآية: 20.

(3) - المرجع نفسه ص: 361.

(4) - البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، تحقيق: خفي محمد شرف، مطبعة الرسالة،

1969 ص: 151-153.

مدخل: فك التعامل لاصطلاحِي

ومن الخطب والمخاطبة اشتقت الخطاب والخطابة لأنهما مسموعان؛ لذا عرفت الخطابة بأنها مشاركة في فعل ذي شأن، إذ المفاعة تفيد الاشتراك. والخطب حسب قول صاحب الصناعتين: " تستعمل في إصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب، وحملة الدماء، والتّشيد للملك، والتّأكيد للعهد، وفي عقد الإملاك، وفي الدعاء إلى الله، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس "⁽¹⁾.

ويذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب هي: "الكلام المثبور المسموع"⁽²⁾، وفي كتاب التهذيب: "الخطبة مثل الرسالة لها أول وآخر"⁽³⁾؛ ويبدو جلياً أن هذا التعريف يشير إلى الأسلوب وتنظيم القول، وهمما عنصران بنايان في الخطابة عند أرسطو إلى جانب الاحتجاج والبراهين.

وفي تمييزه للخطب والرسائل عن الشعر يقول أبو هلال العسكري: "واعلم أن الرسائل والخطب متباكلتان في أنّهما لا يلحقهما وزن ولا تقافية"⁽⁴⁾، هذا عن المعنى اللغوي للخطاب والخطابة، حسب بعض المعاجم العربية.

1) - كتاب، الصناعتين، (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ترجمة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981، ص: 154.

2) - لسان العرب، ص: 361، مادة (خطب).

3) - المرجع نفسه، ص: 362.

4) - الصناعتين، ص: 154.

2- **فما المدلول الأصطلادي للخطاب؟**

لقد تحدّد هذا المدلول بتحدد التخصصات، وتميّزت الاتجاهات التي تهتم بالخطاب، خاصة الأدبي منه؛ لذا فإن جذور مصطلح الخطاب تعود إلى عنصري اللغة والكلام⁽¹⁾.

أ- فاللغة نظام من الرموز يستعملها كل فرد للتعبير عن أغراضه، حيث تكون هذه الرموز إما على شكل أصوات تنطق، أو حروف تكتب.

ب- أما الكلام فهو إنما لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يدعى المخاطب أو المرسل إليه.

ومن هنا تولّد مصطلح "خطاب" بعده رسالة لغوية يُسأها المتكلم إلى المتلقى، فيستقبلها هذا الأخير ويفك رموزها⁽²⁾.

وفي تحديد آخر لمفهوم كلمة "خطاب" يرى كمال عمران أن الخطاب يعتبر من أبرز الظواهر التي تحرر طرق الاتصال وتضبط بنية التغيير، وتحت الأهداف المنشودة⁽³⁾.

ويحظى الخطاب في اللغات الغربية بقدر كبير من العناية؛ لأنّه يخرج الدراسة من الانطباع إلى التفكير، ومن وصف أداة الاتصال إلى النبش عمما يحيط بها من مشكلات.

1) دروس في الألسنة العامة، فيريدينان دي سوسير، الدار العربية للكتاب ليبية، تونس، 1985، ص: 27.

2) النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لويس كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982، ص: 94.

3) في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران، المجلة العربية للثقافة مجلة نصف سنوية (مارس-سبتمبر)، العدد 28، 1995، ص: 62.

مدخل: فك التعاضل الاصطلاحي

وبناءً على هذه العناية " بالخطاب " توسيع مجالاته فعرف عند كل من:
- " مايك بال " (Mike Ball) و " أنجلية " (Angelet) والناقد المغربي السعيد علوش - عرف - توجيهين:

أ- التوجه الأول: وتطبق عليه السيميائيات السردية، ومن أهم ممثليه " فلاديمير بروب " و " كلو ديريمون " و " غريماس "، حيث يعتمد هذا التوجه على سردية القصة في أي عمل حكائي مهما كانت الأدلة التي يتوصل بها في عملية التواصل، لأن الأحداث التي يتم إخبارنا بها يمكن أن تترجم عبر وسائل مختلفة.
يقول ابن الهيثم: " إن الحق واحد، وإن الاختلاف هو من جهة السلوك إليه "⁽¹⁾، فالمجال تعدد لبلوغ هدف واحد، لذا يجب التركيز على المضامين السردية وكذا على الكلمات الدالة التي تتجاوز المجموعات اللسانية.

ب- التوجه الثاني: يركز دارسو هذا التوجه على دراسة الخطاب كصيغة لفظية لتشخيص القص أو الحكي (Le récit)، وإبراز العلاقات التي تنظم المستويات الثلاث: الخطاب - القص - السرد؛ بحيث يكون الخطاب مجالاً متميزاً يمارس فيه المتكلم عملية التلفظ (النطق) على أن يكون هذا التلفظ قابلاً للتحليل والتفسير.

وعلى الرغم من اتساع مجال السردية وتعقدها، وتطور مناهج دراستها، فإن هناك من يصرّ على التوفيق بين التوجيهين أمثال: " تشاتمان "

1)- نقل عن مقال: " عن الضوابط اللغوية لتجيئ الخطاب العلمي، أ.د. سيدى محمد غيتري، الملتقى الدولى الأول، جامعة البليدة، ماي 2000، ص 03.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

(Chatiman) و "جيرالد برينس" (Gerald Prince)، وذلك من أجل القضاء على كل الالتباسات التي لا تزال تكتنف هذا الميدان⁽¹⁾.

ومن أسمهم بشكل واضح في هذا التوجّه -الشكلانيون الروس- بزعامة "توماشفيكسي" الذي ميّز بين المتن الحكائي (Fable)، والبني الحكائي (Sujet)؛ إذ يمثل المتن مجموع الأهداف والحوافز، بينما يمثل البني البحث عن الأنماط والوظائف، أي الخطاب، خاصة عند "تودورو夫" (Todorov).

أما ضوابط القص وميكانيزماته فإنها تعدّ بمثابة السنن أو العلامات التي تتيح إمكانية فك رموز الخطاب، لذا فإنّ "إيجنباوم" يتحدث عن وظيفة الحكي التي عدّ أنها تشير إلى العلاقة التي تنشأ بين المرسل والمرسل إليه.

وبهذا، يكون الشكلانيون الروس قد ألوّن عنایة كبيرة للدراسة الخطاب خاصة "إيجنباوم" في دراسته الموسومة "معطف غوغول" -وكنتيجة لسميائيات السرد، تأتي دراسة -"بروب" لموروفولوجية الخرافية أو الحكاية ثمرة لتطور التحليل السردي للخطاب، واتساع مجاله ليشمل كل أنواع الحكى⁽²⁾.

ومعلوم أنّ وظيفة كل راوٍ أو متكلّم تختلف من حكاية أو قول إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، حيث يحدّدها في كل مرّة مدى تبلور العلاقة الجدلية بين وظيفة الإرسال والتلقي.

¹⁾- مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب، الطاهر روائية، مجلة التواصل، جامعة عتابة، العدد 04، جوان 1996، ص: 8

²⁾- مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب، ص: 10.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

ولهذا يصر "غريماس" على أهمية التواصل بتتبعه مسارات المرسل عبر السياق، مفرقاً بين المرسل، والمرسل إليه؛ مشبهاً عمل الذات المرسلة بتحريرات الشرطي وعمل العالم، وبحث المؤمن⁽¹⁾.

أما "بنفينيست" (Benveniste) فإنه يذهب في تعريفه للخطاب على أنه "كلّ منطق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما"⁽²⁾.

على أن نية التأثير هذه؛ هي القصدية التي تلمح دوماً إلى الإقناع، هذا الإقناع الذي لا يتم إلا إذا كانت حافظة المستمع مخزنة لما في حافظة المتكلم. هذا، دون أن ننسى أن كل خطاب يعتمد اللغة التي هي وسيلة للاتصال والتواصل؛ وأن كل لغة تمتلك عدداً من العناصر التي تهتم بإخبارنا عن موضوع الفعل الكلامي، وعناصره الأخرى التي تتسبب في تحويل اللغة إلى خطاب.

وإلى جانب هذا، فإن اللغة هي أيضاً مادة كلّ فنٍ وفقاً لمستوى المنطق، أو الفعل الكلامي الذي يظهر؛ لأن الخطاب يرتبط أساساً بقراءات لغوية معينة؛ وبهذا يأتي مفهوم الخطاب كأدلة تحليل بنوي وعلامي ودلالي للأثر الأدبي، باعتباره بناءاً مستقلاً من جهة، وفي علاقته بقائله وبالخطابات السابقة وكذلك السائدات من جهة أخرى⁽³⁾.

1) - مقال السيميائيات السردية للخطاب، "غريماس"، مجلة التواصل، ص: 18.

2) - اللغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص: 48.

3) - مقال السيميائية والنص الأدبي للأستاذ عد الحميد بوراوي، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وأدابها، جامعة عنابة 1995، ص: 82.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

ولذلك يسمح الخطاب بدراسة التراث، ويمكن تحليله من جهتين؛ أولًا من جهة العلاقة الجدلية التي ترتبط المبدع بالمتلقي، وثاني من جهة الارتباط هذا الخطاب بخطابات أخرى.

هذا عن السيميائيات السردية للخطاب، فماذا عن أصحاب المدرسة التوزيعية؟

يعرف "هاريس" (Harris) الخطاب على أنه ملفوظ طويل أو متالية من الجمل تكون بمجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض⁽¹⁾. ويبدو أن "هاريس" من خلال كلامه هذا، يود أن يطبق مفهومه وتصوره التوزيعي للخطاب، على أنه عبارة عن متاليات يلتقي بعضها ببعضها بطريقة منتظمة تكشف عن بنية النص، هذا الانتظام الذي يطلق عليه اسم "تعادل متكافئ التوزيع" (Equivalence) منطلقا في اعتقاده هذا من اعتبار الجملة أكبر وحدة دالة قابلة للوصف النحوي.

أما أصحاب معجم اللسانيات⁽²⁾ (1973) فقد أوردوا للخطاب ثلاثة تعاريف هي كالتالي:

1- الخطاب يعني اللغة في طول العمل أو اللسان الذي تتكلف بانجذاب ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام (Parole) بتحديد "دي سوسير" (De Saussure).

1)- L'information et la communication, Roget escaprit. Hachette. Sl. 3ed. 1991. P : 22.

2)- Dictionnaire de linguistique (discours Texte)- Jean Dubois et autres, La rousse, Paris, 1973, P:57.

مدخل: فك التمثيل الاصطلاحي

- الخطاب يعني وحدة توازي الجملة أو ما فوق الجملة، وتتكون من متالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ (*Enoncé*).
- استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدى الجملة منظوراً إليه من وجهاً قواعد تسلسل متاليات الجمل، أي الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة (*Enoncé*)، ويمكن تفصيل هذه التعريف كما يلي: (*Supérieure à la Phrase*)

1-2 الخطاب - الكلام:

يعرف دي سوسور الكلام بأنه ذو نزعة فردية، إرادية وذكي كذلك⁽¹⁾، والكلام حسب هذا التحديد مستقل عن مؤسسة الجماعة، وهو من ثم مفرغ كلياً من سلطتها، وقابل بخصوصية كبيرة للتحرر والانبعاث المتحجدد الذي يمكن تمثله في ولادة اللغة الجديدة كالإبداع مثلاً⁽²⁾.

وإلى جانب كون الكلام نشاطاً فردياً، فإنه "ينفتح على فاعلية الإلقاء المستمر التي يشكلها دافع الإرادة والذكاء"⁽³⁾. هذا الدافع الذي ينبع من عملية نقل الرسالة، وأين تتم عملية توجيه الكلام، التي تكتسب فيما بعد الصبغة التخاطرية حيث يوجه المخاطب رسالة إلى المخاطب (المرسل إليه).

1) دروس في الألسنية العامة، ص 42.

2) مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غزالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000، ص: 95.

3) في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباغ دار الآفاق للنشر، بيروت - ط 3-

1985 - ص: 31.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

وعلى هذا النحو تم تعریف الخطاب في الأغلب الأعم، ومن هنا يمكن "وضع الكلام على قدم المساواة مع الخطاب، فهو تكلم وتلقّ في آن واحد"⁽¹⁾. أما "فرانسوا راستيه" (François Rastier) صاحب كتاب "من أجل تحليل الخطاب" فقد دعا إلى أنه ينبغي في تحليل الخطاب أنه يحدّد موضوعه بسبب ارتباطه الوثيق باللسانيات التي حدّدت موضوعها ونجحت كعلم مؤسس.

وعلى ذلك الأساس اقترح فرانسوا ثلاثة استراتيجيات ممكنة من بينها، اعتبار الخطاب مرتبطة بالكلام.

واعتماداً على المفهوم السوسيري للخطاب كونه اللغة التي هي في طور العمل أو اللسان الذي تتتكلف بانجذاب ذات معينة ميّز "دوミニك مانجينوا" (Dominique Maigueneau) بين اللغة والكلام وتبين له إثر ذلك، أن الجملة لا تدخل في إطار اللسان ولكنها تنتهي إلى الكلام موئل الفعالية والذكاء⁽²⁾.

وإذا كان دي سوسيير يرى أن اللغة "كثر موضوع من خلال تطبيق الكلام"⁽³⁾ فإن سعيد يقطين يعتبر أن "اللسان ككل منه ثابت العناصر نسبياً"⁽⁴⁾ أي أنه يمثل كياناً منغلاقاً لا يسمح بالتفتح إلا لما تنتجه آليات الخطاب.

1)- القول الشعري، د. يعني العيد، دار توبيقال للنشر، المغرب، ط1، 1987، ص: 10-11.

2)- تحليل الخطاب الروائي، عيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص: 21.

3)- Théorie du langage, J P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977, P103.

4)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص22-23.

وبناء على هذه المفاهيم اللسانية فقد وقع خلط كبير في تحديد مفهوم الخطاب، مما أدى إلى نشوء علاقة جدلية بين النص والخطاب تبعاً للعلاقة نفسها بين اللغة والكلام.

2-2 الخطاب - التلفظ:

بعد "بنفينيست" أكبر مدرسة نظرت لمفهوم الخطاب، هذه المدرسة التي غيرت جميع آليات الدراسة اللسانية، وذلك بانطلاقها من إلغاء الجملة كأعلى مستوى للدراسة اللسانية، مما أحدث قطيعة مع أعمال "هاريس" و"بلومفيلد" الذين شكلوا مرحلة من مراحل اللسانية التقليدية.

ولقد حدد "بنفينيست" ماهية الخطاب على أنه "كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"⁽¹⁾. أما الجملة فهي عنده "ابداع ليس له تعريف، وتنوع بدون حدود، وهي الحياة نفسها للغة في أثناء الفعل"⁽²⁾ معارضًا بذلك أبي اللسانيات الأمريكية "بلومفيلد" الذي يحصر النحو عند حدود الجملة؛ كون الوحدة اللسانية الكبرى تتمثل في الجملة.

ويؤدي بنا تعريف "بنفينيست" إلى الافتراض أن "تلفظ الخطاب يستلهم مادته من الأداء الشفاهي للكلام بكل تنوعاته المختلفة، ابتداءً من المخاطبة

1)- Problèmes de linguistique générale, Emille Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966, P: 129-130.

2)- Initiation aux Méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique maingueneau, ed-Hachette niversité, 1967, P: 154.

اليومية إلى الخطبة الأكثر صنعة وزخرفة إلى الإنشاء الأكثر شعرية من حيث الأداء⁽¹⁾.

ولكن هذا الافتراض لا يعني أبداً إلغاء الخطابات الكتابية لأننا مدينوون للكتابة بقدر كبير، فلو لاحا ما أمكننا الإطلاع على ثقافات الغير سواء القديمة أو الحديثة.

وإذا كان بنفسيست قد حدد ماهية الخطاب، فإنه لم يضع له حدوده الخاصة، وإنما تحدث عنه بكونه ذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما، بواسطة متكلم معين في مقام معين، باعتبار أنَّ هذا الملفوظ يمثل آلية اشتغالية داخل التواصل.

ولعل نظرة بنفسيست هذه تقترب من نظرة المدرسة الفرنسية للخطاب، خصوصاً مع اللسانى "قيسبن" (L.Guespin) الذي فصل بين الملفوظ والخطاب. وفي فصله هذا، يرى "قيسبن" أنَّ "الملفوظ متالية من الجمل الموضوعة بين بياضين دلاليين، أمّا الخطاب فهو الملفوظ المعتبر من وجهة نظر حركية خطابية مشروط بها، وهكذا فنظرة تلقى على نصٍّ تُبْنِيْه لغويَا تجعل منه ملفوظاً، وأنَّ دراسة لسانية لشروط هذا النص يجعل منه خطاباً"⁽²⁾.

فإنتاج الخطاب إذاً، قائم أساساً على حركية خطابية متجلية في الملفوظ.

1)- مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص 97.

2)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص 22.

2-3 الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة:

لقد انتصر "رولاند بارث" (Roland Barthes) لهذا التحديد وهو التحديد الثالث حسب معجم اللسانيات، حيث اتخذه مرتكزاً لتحليله النبوي؛ فمن جهة نظر القواعد، يمثل الخطاب سلسلة من الجمل، ومن جهة نظر التحليل اللساني الخطاب مرادف للملفوظ، ومن أجل هذا تسعى اللسانيات لمعالجة الملفوظات المتجمعة، ودراسة مسارها عندما تحدّد قواعد الخطاب وقواعدها، وتصفه وصفاً معقولاً وقابلـاً للملاحظة والتأمل باعتباره سلسلة متتالية من الجمل. ومتصورات الخطاب حسب التحديدات الثلاثة تقترب من مفهوم النص، إن لم تكن مرادفة له، وفي الوقت ذاته متعارضة معه، فالنص في المعجم اللساني مدوّنة تتألّف من مجموعة من الملفوظات اللغوية الخاضعة للتّحليل سواء كانت شفهية أو خطية.

ومن هذا المنظور يصبح الخطاب ضمن الممارسات اللسانية أداة للمعرفة، وهذا المعنى يتحول إلى نص، حتى أن الكثير من اللغات لا يفرق بين النص والخطاب.

فالنص عند "هلمسليف" (Louis Hjelmslev) بالمفهوم الواسع يعني كل مادة لسانية مدرورة، وكل المفهومين (النص والخطاب) لدى "غريماس" "وكورييس" (Greimas et courtes) يشكلان فرضية خصبة، استعملت للدلالة على عمليات سميائية (procès sémiotiques) غير لسانية⁽¹⁾.

1)- مقال: بين النص والخطاب، الأستاذ أحمد يوسف، مجلة تحليلات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992، ص: 51.

وفي الممارسة الفكرية يشير الخطاب إلى الأطر المرجعية للسانيات "فو-لاكان" (Foucault Lacan) ثم إنه يتسبّس أحياناً بمفهوم الرسالة (Message) عند "جاكبسون" (Jakobson).

وإذا كانت التصورات السابقة للخطاب قد حصرته في زوايا ضيقية حينما ربطته بالجملة، فإن البلاغة القديمة سعت جاهدة إلى بناء أنظمتها وقواعدها، كما أنّ الأسلوبية التعبيرية وظفت معطيات السنية مثل الملفوظ والتلفظ كما هو الحال لـ"شارل بالي" (Charles Bally) تلميذ "دي سوسير".

وهكذا، فإن مفهوم النص في تصوّر "تودوروف" يكمن في فقرة أو وحدة من النمط الخطّي الذي تكونّه مجموعة من الجمل...⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، فالنص يكون جملة جملة، كما قد يكون كتاباً بكمله، إنه يتحدد باستقلاليته، وانغلاقه، إنه نظام ثانٍ إيجائي، وهو ثانوي بالنسبة لنظام آخر من الدلالة، وله مظاهر منها، المظهر الفعلي، والتركيبي الدلالي، والبلاغي والسردي والموضوعي،... كل ذلك يتقاطع مع النظرية التوزيعية ولسانيات "هاريس" وتلامذته فيما يخصّ تحليل الخطاب.

وإلى جانب هذا التحديد، يضيف "تودوروف" ثلاثة أنظمة تتخلّص في النظام المنطقى، والنظام الزمني، والنظام المكاني، وهكذا يتعدّد مفهوم النص عن مفهوم الخطاب ليكون أشد منه⁽²⁾.

1)- مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 52.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويصبّ في هذا الاتجاه كثير من الآراء؛ فالنص بنية من القيم عند "رينيه ويلك" (R.Wellek)، وعلامة عند أصحاب نظرية التلقى، ووحدة مستقلة قائمة بذاتها، بعيدة عن إدراك القارئ (شلو فيسكي والشكلانية الروسية)، وعرض دال عند أصحاب مدرسة النقد الجديد⁽¹⁾.

كل هذا، يفضي بنا إلى صعوبة تحديد ماهية النص والخطاب مما يفضي كذلك إلى صعوبة إيجاد حدود علمية موضوعية بين هذين المفهومين (النص/الخطاب).

ونلقي بين التصور اللساني للخطاب وبين تصور "رولاند بارث" مسافات بعيدة هي أقرب إلى التنظير الجمالي منها إلى التقعيد اللغوي، ولعلّ هذا ما جعله يتداخل مع استعمالات الخطاب في أدبيات "فووكولاكان" وغيره من الذين يستغلون في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإن كان "بارث" لا يرى في النص إلاّ فضاءً اجتماعياً له وشائج قوية مع الممارسات الفعلية للكتابة⁽²⁾.

وبعد هذا، يبدو من العبث البحث عن فوارق أو أوجه التقارب بين النص والخطاب؛ فمفهوم الخطاب احتضنته علوم لسانية وقعدت له، فصار حقلًا من حقوقها، ولما تلقّفه المعجم الناطق للعلوم الإنسانية انزاح عن خصوصياته للسانية، فعرف توسيعاً في الاستعمال وإن حرص بعض الدارسين في حقول

(1) - مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 52.

(2) - المرجع نفسه، ص: 55.

العلوم الإنسانية والاجتماعية على الاحتفاظ بجوهر مرجعيته اللسانية⁽¹⁾. لذا يجب التريّث في استعمال هذه المفاهيم، وتحديد موقعها في المعجم النصدي، لأنّه قد يصبح خلطاً لا جدوى منه.

ومن جهة سيكو - لسانية يعرّف "جان كارون" (J.Caron) الخطاب بأنّه متالية منسجمة من الملفوظات⁽²⁾.

ومعنى هذا أن الخطاب يفترض علاقات بين مجموعة من الملفوظات التي لا يجب أن تكون مبنية مسبقاً، وإنّما يجب الربط بينها.

وب مجال الحديث عن الخطاب واسع جداً، لذا لا يمكن حصر كل التعاريف التي وردت للاصطلاح على مفهومه. وبعد هذا، كان لا بدّ أن أتطرق إلى مفهوم الإقناع باعتباره المصطلح الثاني في عنوان البحث، ولكنني ارتأيت أن أوجّل الحديث عنه؛ لأنّي سأتعرض لدراسته بإسهاب في فصل "الخطاب الإقناعي - وسائله و مجالاته" - حتى أتفادى التكرار سأنتقل إلى مدلول التواصل لغة وأصطلاحاً.

3- التواصل اللغوي:

كثيراً ما نصادف في قراءتنا اللسانية المعاصرة، عدّة كلمات متباعدة في دوالها، في الوقت الذي لا يعني بها أصحابها إلاّ مفهوماً واحداً⁽³⁾، ومن بين هذه

1) مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 57.

2) مقال تحليل الخطاب الروائي، بشير براير، ص: 23.

3) اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسى الثقافي، مدونة المحاضرات الملقة عام 2000، ص: 51.

الكلمات ما يتعلّق بـمجال بحثنا، وهي كالتالي: الاتصال، التواصُل، التوصيل، التبليغ، الإبلاغ، التخاطب، المخاطبة.

3-1 التواصُل في بعض المعاجم العربية:

إنّ مادة "وصل" في لغتنا العربية ثرية بعفرادها وترادفاتها، غزيرة المباني، متعددة المعانٍ، إذ تخيّل في بعض معاجم اللغة العربية كمعجم الصحاح للجوهري: على معنى "اتصل"؛ إذا دعا بدعاوى الجahليّة كأن يقول: يا لفلان، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾، أي يتصلون⁽¹⁾.

والوصل ضدّ الهجران، ووصل الشوب والخفّ، وبينهما وصلة أي اتصال، وتواصل ضدّ التصادم، ومن هذا المعنى جاء الحديث: "لعن الله الواصلة والمستوصلة"⁽²⁾.

فالتواصل هنا ضدّ التقاطع، غير أنّ الاتصال أعمّ من التواصُل، لأنّ التواصل من التفاعل، والتفاعل في اللغة العربية لها ثلاثة معانٍ⁽³⁾:

- 1- أن تكون من اثنين تخاصماً: تقابلاً، تشاركاً...
- 2- أن تكون أحياناً من واحد: ترائي في ذلك، تعاطي منه أمر قبيح.

(1)- الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ج 5/1842.

(2)- المرجع نفسه، ص: 1842-1843.

(3)- الصاحي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د. الشومي، مؤسسة بدران للطباعة والتشر، بيروت، 1963، ص: 222-223.

3- أن تكون إظهاراً بغير ما تدلّ عليه حقيقة الشيء: تغافل؛ أي أظهر غفلةً وليس بغافل، أو كما يقول سيبويه: "ليريك أنه في حال ليس فيها"⁽¹⁾.

وجاء في المصباح المنير للفيومي: "تعهّدت الشيء، ترددت إليه وأصلحته، وحقيقة تجديد العهد به، وتعهّدته حفظته؛ قال: ابن فارس: ولا يقال تعاهدت؛ لأنّ التفاعل لا يكون إلاّ من اثنين. وقال الفارابي: تعهّدته أفعى من تعاهدت"⁽²⁾.

ويكون سيبويه واضحاً حينما قال: "وأمّا تفاعل فلا يكون إلاّ وأنّ تريده فعل اثنين فصاعداً، ولا يجوز أن يكون معملاً في مفعول، ولا يتعدّى الفعل إلى منصوب"⁽³⁾، مضيفاً إلى قوله هذا أنّ تفاعل يلفظ بالمعنى في فاعلته، ويقصد أنّ فاعل مثلها مثل تفاعل كلتاهم تدلّ على تشارك اثنين في أمر"⁽⁴⁾.
لذا يقول: "اعلم أنك إذا قلت: فاعلته فقد كان من غيرك إليه مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته؛ ومثل ذلك: ضاربته، وفارقته، وكارمته"⁽⁵⁾.

1) الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت، ج 4/68.

2) المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، ص: 435.

3) الكتاب، سيبويه، ص: 69.

4) اللغة العربية والاتصال، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، ص: 53.

5) الكتاب، ص: 68.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

وبعد هذه المقاربات اللغوية لمادة (وصل) وبعض مشتقاتها الدلالية نخلص إلى أنَّ الاتصال أكثر عموماً من التواصُل، والتواصُل حتى المواصلة⁽¹⁾ وأنَّ التواصُل لا يكون إلَّا من اثنين فصاعداً، لأنَّه يدل على التفاعل والمشاركة. هذا عن المدلول اللغوي لمادة (وصل) في بعض المعاجم العربية القدِيمَة، فماذا عن التواصُل في معجم المصطلحات اللغوية، وبعض المعاجم الغربيَّة الأخرى.

3-2 التواصُل في معجم المصطلحات اللغوية:

وُجِدَ في هذا المعجم لصاحبِه خليل أحمد خليل مaily⁽²⁾: تواصُل (Communication): معنى: إبلاغ، اتصال، تناطر، مخاطبة؛ توصيل، أساس التواصُل استعمال راموز (Code) لنقل رسالة:

-1 التواصُل اللغوي: يدل على تبادل في الإشارات بين فرد وآخر، بين فرد وجماعة وبالعكس، وبين جماعة وأخرى. فيما الحيوانات التي لا تملك لغة بالمعنى الحقيقي، تتوافق من خلال الإيماءات والصرافات التي توفر دلائل دقيقة.

-2 اللغة البشرية: هي حامل مميَّز للاتصال، حيث يرتبط التواصُل بالتعبير الذي يعني انتقال المضمون التعبيري من فاعل إلى قابل (هو فاعل آخر في قبوله المرسلة).

1) اللغة العربية والاتصال، ص 54.

2) معجم المصطلحات اللغوية، د. خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط 5، 1995، ص: 55.

- Expérience) في مستوى تجربة التخاطب بين الأنما والأخر (3
- : تقوم علاقة مقلوبة بين الطرفين (Intersubjective
- أ- كلما كان التعبير جديداً، كان التواصل عشوائياً.
 - ب- كلما كان التعبير عامياً، كان التواصل سهلاً.
- 4 يستلزم تحليل الاتصالات داخل الجماعة بحمل التخاطبات إلى وحدات اتصال مرسلة من فرد إلى آخر ومنه إلى الجماعة برمتها، وفي درس آثار التواصل، لا بدّ من التنبيه إلى مؤثرات الإعلان (Publicité) والدعاية (Propagande) والتحقق من فعالية منطقهما وحججهما.
- 5 يحرى التفريق بين تركيبيتين اتصاليتين متراكستين:
- أ- تركيبة متناسقة: يقوم كل فرد بإبلاغ معلوماته إلى الجميع، ويسعى كل واحد منهم إلى إيجاد الحل.
 - ب- تركيبة متمركزة: يرسل الأفراد معلوماتهم إلى أحدهم، فيمر كرزاً، يكتشف حلها، ويبلغه إلى سواه
- (تبلغ ↔ تبليغ)⁽¹⁾.

3- التواصل في معجم اللسانيات:

يواجه كل باحث صعوبة كبيرة في تحديد بعض المفاهيم اللغوية المرتبطة بأي مصطلح؛ لذا لا يمكن العثور على تعريف واحد للتواصل يضم كل

(1)- معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، ص: 55-56.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

رضاeات الباحثين؛ غير أننا نجد أن معجم اللسانيات الذي أشرف عليه "ج. ديبوا" (Jean Dubois) يعرف التواصل كالتالي⁽¹⁾:

1- التواصل (La communication): تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتاج ملفوظاً أو قوله موجّهاً نحو متكلّم آخر (Interlocuteur) يرغب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية (Explicite ou implicite) وذلك تبعاً لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم (Le sujet parlant).

2- التواصل: حدث نيا ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النها يكون بواسطة مرسلة استقبلت عدداً من الأشكال المفكوكة (Qui a été codé). ولكن بعض الدارسين يرى بأنَّ هذا التعريف يعمّم بين ما يتصل باللغة، وبين ما ليس له صلة بها من معلومات تستخدم في مجال اتصالات أخرى غير لغوية.

4-3 التواصل في معجم (A.Moles Démoël):

النها في هذا المعجم هو "عملية جعل فرد أو مجموعة متوضعة في عنصر من نقطة - س - يشارك في التجارب التي ينشطها محيط فرد آخر متوقع في عهد آخر وفي نقطة - ص - من مكان آخر، مستعملاً عناصر المعرفة المشتركة بينهما والتجربة الوكيلية"⁽²⁾.

1)- Les voies du langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982, P. 2-6.

2)- المرجع نفسه، ص: 02.

3-5 التواصل في معجم تعلم اللغات:

وُجِدَ في هذا المعجم أنّ "نظريَة المعلوماتيَّة" (La théorie de la communication) تحول الإعلام أو تنقله بين باث ومتلقٍ؛ وذلك بفضل مرسلة تمرّ عبر قناة، مثل الإعلام عن طريق التلفون؛ حيث الباث أو المتكلّم سيُرسل إلى مستقبلة أو مكالمة مرسلة بفعل ذبذبات كهربائية بواسطة قناة الخط الهاتفي⁽¹⁾.
 لكن "جيرو" (Guireau) يرى أنّ هذا التحليل لا يكون في أيّ لحظة معنى للمرسلة؛ لأنّ التواصل يقوم على نقل أو تحويل شكل مسجل في ماهية أو مادّة، مثل ذلك؟ الأشكال المرئية في رسالة مكتوبة، وأمّا الخط الهاتفي فهو ينقل الطاقة، والحرف الأشكال خطية، وعموماً فإنّ التواصل لا يتأسّس في المستوى الدلالي إلّا في الحالة التي يكون فيها الباث والمتلقي يملكان نفس القانون أو السنن لفك المراسلة⁽²⁾.

وفي جانب هذا يرى "أندري مارتيني" (André Martinit) ولسانيون آخرون أنّ التواصل هو إحدى وظائف اللغة، حيث أنّ اللغة هي الوسيلة التي تسمح لمستعملتها بالدخول في علاقات مع بعضهم بعضاً، وهي تضمن التفاهم المتبادل بينهم⁽³⁾.

ويبدو أنّ "مارتيني" في تصوره هذا لم يهمل الجانب الدلالي لـ "صطلح التواصل".

1)- Dictionnaire de didactique des langues: R. Galisson et D. Coste librairie Hachette-1976- P: 102-104.

2)- المرجع نفسه، ص: 103.

3)- المرجع نفسه، ص: 103.

3-6 التواصل عند السيميائيين العرب:

لقد اصطنع السيميائيون العرب مصطلح "التبليغ" و"الإبلاغ" مقابلاً للمصطلح الأوروبي (Communication) وهو في تمثيل الأستاذ عبد الملك مرتابش أدق وأدلى على هذا المعنى من مصطلح "التواصل" الذي قد يشيع في كتابات بعض النقاد العرب المعاصرین، ذلك أنّ المصطلح الأوروبي إنما ورد في أصوله على صيغة التعذية المعنوية، على حين أنّ معادله العربي "التواصل" لم يرد في العربية لهذا المعنى بل هو محايد لا يتعلّق إلى أي معنى في غيره، وإنما يقتصر على ما فيه من معنى في نفسه⁽¹⁾.

و"التبليغ" بمفهومه العام يشمل الإخبار، أو نقل أمر من أعلى إلى أدنى، أو من أعلى إلى مستوى مماثل له في الدرجة.

ولفظ "البلاغ" اسم قديم الاستعمال في اللغة العربية، وقد ذكر في القرآن الكريم وصفاً لوظيفة الأنبياء والرسل تجاه من أرسلاوا إليهم من الأمم ليبلغوهم رسالات الله.

وهذا ما يبيّنه الجدول الآتي:

اسم السورة	رقم الآية	الآية
الرعد	40	﴿وَإِنَّمَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي تَعِدُهُمْ أَوْ تَنَوَّفِيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْكَ الْحِسَابُ﴾.
النحل	82	﴿فَإِنْ تَوَلُّوْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، د. عبد الملك مرتابش، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، 1992، العدد الأول، ص: 13.

	(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَادِيْنَ).	106	الأنبياء
	(إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرَسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيهَا أَبَدًا).	23	الجنة

أما "غرياس" فإنه يرى أن "نظريّة التبليغ" إنما جاءت على غرار نظرية الإعلام وبتعالق معها،... ولما كانت نظرية التبليغ في أصلها نظرية لسانية، فإنها لم تكن تعني إلا بالشبكة المظهرية الرابطة بين المرسل والمرسل إليه، وما بينهما، وما يعتور علاقتهما من متعارفات الدلالة الوضعيّة كالسيّاق الدال، والشفرة المستخدمة بين الطرفين⁽¹⁾.

بينما يطلق عبد الله الغدامي اسم "نظريّة الاتصال" على تلك المسماة "نظريّة التبليغ"، أمّا "دي سوسيير" فإن نظريته تنبع من نزعة اجتماعية، ولذا فهو يرى أن "التبليغ" ضرب من الحدث الاجتماعي الملاحظ في فعل الكلام، وبالتالي فإن نظريته تقوم على وجود شخصين اثنين على الأقل (بات ومتلق) لسيران تيار الكلام⁽²⁾.

ومن منظور "علم النفس" يذهب النفسياني "بوهлер" (Boehler) إلى أن النشاط اللساني يتحدّد بثلاثة وظائف تمثل في⁽³⁾:

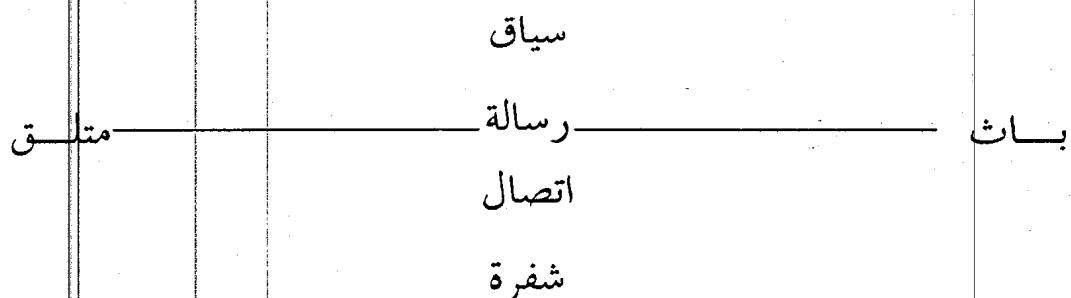
- التعبير من حيث هوباث.

1)- Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication, P :45.

2)- المرجع نفسه، ص 45.

3)- Sémiotique dictionnaire; P:45.

2- النداء من حيث هو مبثوث له أو متلقٌ.
 3- الاستحضار بما فيه من طبيعة الإحالـة على المرجع أو السياق.
 ثم جاء "حاكبسون" (R.Jakobson) فأضاف إلى هذه النظرية الثلاثية، وفصل من أمرها ما كان موجزاً فградت سدايسية العلاقة حسب الشكل التالي⁽¹⁾:

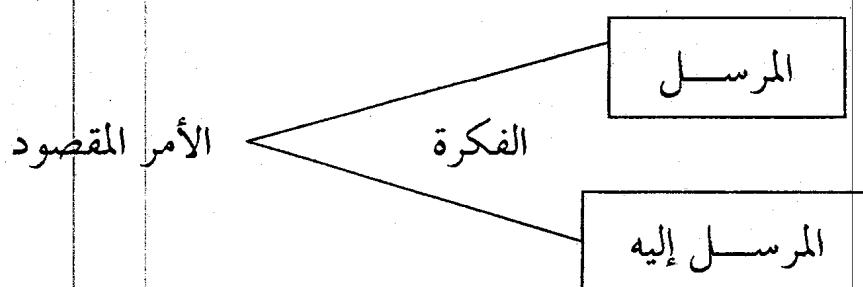


وتقوم رسمة "دي سوسير" على الصورة نفسها تقريباً، غير أنه يركز على جهازي النطق والسمع من جهة والإرسال والاستقبال من جهة أخرى، بينما يركز "حاكبسون" على السياق وضرورة الاتصال.

ويعدّ "دي سوسير" من الأوائل الذين تعرضوا إلى إشكالية التخاطب عند الإنسان، فقد بادر إلى تجاوز العملية التي تفترض مرسلًا ومرسلاً إليه وكلمات متبادلة بينهما⁽²⁾.

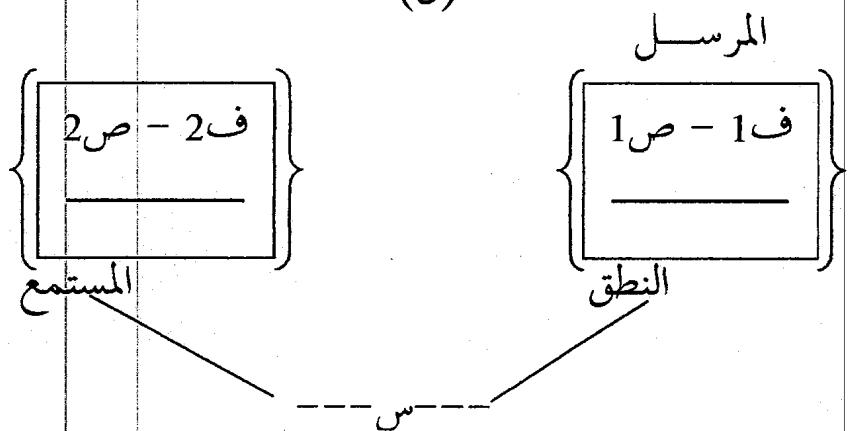
1)- الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص: 85.

2)- مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسمي، مطبعة جامعة دمشق، 1980، ص: 47.



ليحدد مخططاً عامّاً أكثر عمقاً لظاهرة التواصل اللغوي، يأخذ عدّة أبعاد ذهنية وتصورات فكرية، وقنوات فيزيائية وصوتية، ونفسية فيزيولوجية⁽¹⁾.

(ل)



حيث تمثل⁽²⁾:

- 1 (ف1) تصور فكري مرافق بصورة ذهنية (ص1) للفظة التي تعبر عن ذلك التصور في اللغة المشار إليها.
- 2 يلفظ المرسل الكلمة المرسلة بواسطة عملية النطق.

1) مدخل إلى اللسانيات، ص: 47-48.

2) اللغة وال التواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص: 10.

- 3- تتحرّك هذه الكلمة المنطوقة عبر المسافة (س) الفاصلة بين المرسل والمستمع (المرسل إليه).
- 4- يتلقاها المستمع (ع) أو المرسل إليه.
- 5- يقوم الجهاز اللغوي للمستمع بتأويل هذه اللفظة من حيث هي صورة صوتية (ص₂) ملزمة بالتواضع للتصرّف الذهني (ف₂) الذي تشير إليه.
- 6- تشير الدائرة (ل) إلى الجانب النفسي للكلمة وبالتالي؛ فإذا كان $F_1 = F_2$ صحّ التفاهم بين الباحث والمتلقي أي نجاح العملية التواصلية.

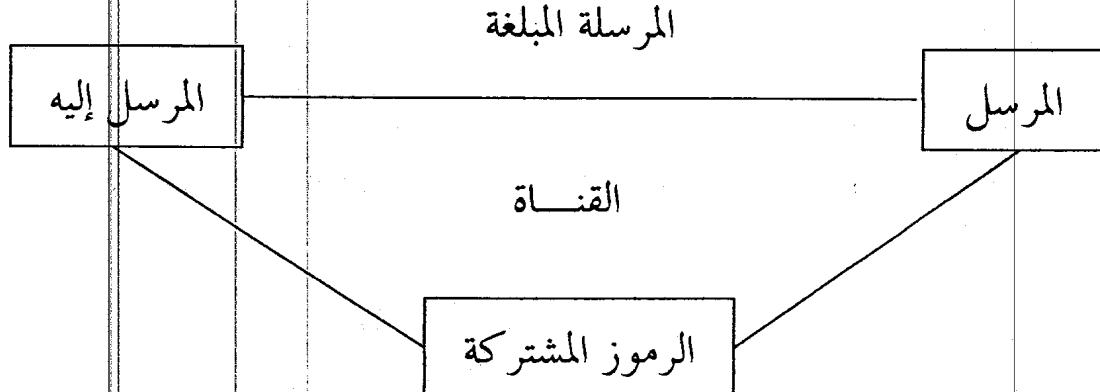
ولكن وعلى الرغم من أنّ مخاطط "دي سوسيير" قد حلّت وبعمق ظاهرة التواصل اللغوي، إلاّ أنّ اللسانين يطمئنون أكثر إلى مخاطط "رومانت جاكبسون"⁽¹⁾.

وذلك لأنّ مخاطط "دي سوسيير" لا ينهض بكل عملية من عمليات التخاطب، خاصةً كان مرتبًا بالقاعدة الفيزيائية التي تساعده على تبليغ الرسالة، ونقل إشارتها التي تعني القناة فضلاً عن سياق التخاطب الدال على المقام أو الظروف المحيطة بالإبلاغ واطراد القول من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل⁽²⁾.

1- اللغة والتواصل، ص: 11.

2- مدخل إلى اللسانيات، ص: 50.

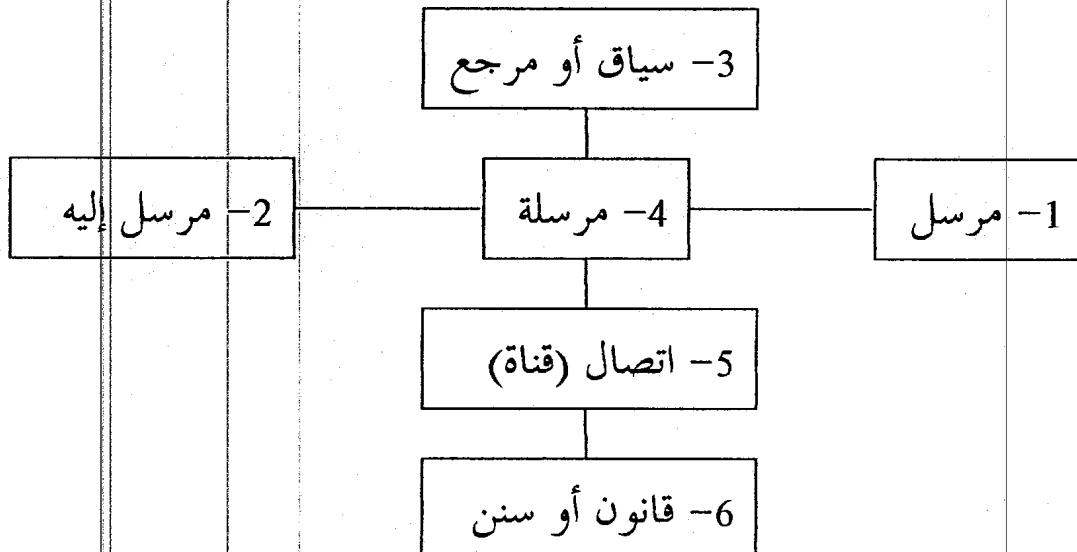
مدخل: فك التعامل الاصطلاحي



مخطط سياق التخاطب

وانطلاقاً من هذا المخطط الجاكوبسوني لعلمية التواصل اللغوي تم تحديد

الوظائف الستة للاتصال على الشكل التالي⁽¹⁾:



بحيث كل عنصر من هذه العناصر الستة يقابل وظيفة أساسية:

1)- Les voies du langage, P: 05.

مدخل: فك التعامل الاصطلاحي

1- **المُرْسَل** ← الوظيفة التعبيرية، وتعلق بالمتكلم ولذلك قد تسمى انتفاعية.

2- **المُرْسَل إِلَيْه** ← الوظيفة الندائية، وتعلق بما يتلقاه الشخص الذي يوجه إليه الخطاب قصداً أو عن غير قصد.

3- **السياق أو المرجع** ← الوظيفة المرجعية (الإخبارية).

4- **المُرْسَلَة** ← الوظيفة الشعرية أو الإنسانية.

5- **الاتصال أو القناة** ← وظيفة إقامة الاتصال.

6- **القانون أو السنن** ← وظيفة تعدى اللغة أو ما وراء اللغة.

3- نظرية التبليغ من "بلومفيلد" (Bloomfield):

سيناريو جاك وجيل: معروف في كتب اللسانيات الغربية أن نظرية "بلومفيلد" تمثلها هذه الرسمة⁽¹⁾:

حح — رع — رض — حض

حيث أن:

1- حح: تمثل "الحافز الحقيقي" (Le stimulus effectif) (شعور جيل بالجوع ومشاهدتها التفاحية).

2- رع: رد "الفعل العملي" (Réaction active) (محاورة جاك السياج، وتسلقه الشجرة).

1) مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، د. عبد الملك مرتاب، ص: 15.

- 3- رض: رد "الفعل الاستيعاضي" (Reaction substitutive) (جيـل تـنـتـج مـلـفـوظـا، المـوـجـاتـ الصـوـتـيـةـ تـنـفـرـزـ مـنـ حـنـجـرـهـاـ وـشـفـتـيـهـاـ).

- 4- حض: الحافـزـ الاستـيعـاضـيـ (Le stimulus substitif) (ملـفـوظـ جـيـل يـسـمـعـهـ جـاكـ).

ويمكن تمثيل هذه الوضعية باختصار على الشكل التالي⁽¹⁾:

- الوضع السابق لفعل الكلام.

- الكلام.

- الوضع اللاحق لفعل الكلام.

وبعد هذا نخلص إلى أنه إذا كان "بلومفيلد" يتفق مع "دي سوسير" في تأسيسهما النظرية التواصصية فإن بلومفيلد يجاوز دي سوسير في كونه ينحو بنظريته منحى نفسانيا بإشارته إلى ذلك التأثير الذي يحدثه فعل الكلام في النفس البشرية.

ومعلوم لدى الدارسين أن نظرية "بلومفيلد" قامت على الصمت، لأن لا "جيـلـ" ولا "جـاكـ" يـحـادـثـ أـحـدـهـماـ الآـخـرـ حـدـيثـ الـكـلامـ؛ـ وـبـالـتـالـيـ فـإـنـ نـظـرـيـةـ "بلـومـفـيلـدـ"ـ هـيـ نـظـرـيـةـ سـيـمـيـوـلـوـجـيـةـ خـالـصـةـ،ـ بـيـنـماـ تـكـتـسـيـ نـظـرـيـةـ "ديـ سـوـسـيرـ"ـ طـابـعـاـ لـسـانـيـاـ مـحـضـاـ،ـ لـأـنـاـ تـعـلـقـ بـالـكـلامـ لـاـ بـالـإـشـارـاتـ أـوـ الـهـمـهـمـاتـ أـوـ مـاـ شـابـهـ ذلكـ.

وغير بعيد عن النظرية التواصصية "لـدي سـوـسـيرـ" بـحـدـ أـنـ "ابـنـ خـلـدونـ" يـقـرـبـ مـنـ هـذـهـ مـسـأـلـةـ حـينـ يـتـحـدـثـ عـنـ نـظـرـيـةـ التـبـلـيـغـ الـلـسـانـيـةـ،ـ وـأـنـاـ تـقـوـمـ عـلـىـ

(1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 17.

"مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال"⁽¹⁾، وأن المتكلم (الباث أو المرسل) إذا جاء ذلك "بلغ (...)" حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع"⁽²⁾. فكأنّ هذه النظرية الخلدونية تبلوّاً أشمل من النظرية السوسيّة، لأنّها لا تلتّمس التبليغ في صورة ميكانيكية فجّة، ف تكون في كثير من الأحيان قاصرة عاجزة، وإنما تلتّمسه داخل شبكة توصيلية، وعبر قنوات أدواته العلم باللغة، والقدرة على التبليغ، واكتساب الملكة على هذا التبليغ⁽³⁾.

وإذا ما حاولنا تفسير كلام ابن خلدون عن النظرية التبليغية ومقارنته مع ما ورد عن دي سوسيّر وجاكبسون، فإننا سنجد حتماً ما يلي:

- 1- "المتكلّم" (لدي ابن خلدون) وهو الطرف المرموز له في نظرية دي سوسيّر بـ(أ) وهو إذن الطرف المرسل للرسالة.
- 2- "السامع" (لدي ابن خلدون) هو الطرف المرموز إليه في نظرية دي سوسيّر بـ(ب) وهو إذن الطرف المتلقّي للرسالة.
- 3- "الكلام" في نظرية (ابن خلدون) هو العنصر الذي يقابل أو يمثل الرسالة في نظرية (جاكسون) أي الغرض من وراء الكلام الملقي إلى السامع.
- 4- "مقتضى الحال" في نظرية الخلدونية هو العنصر الذي يعادل في نظرية (جاكسون) "السياق" وإن كان البلاغيون العرب ربطوا في كثير من أطوار تعاملهم مع اللغة والخطاب؛ الدلالة بالسياق⁽⁴⁾.

1) المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج 1/38.

2) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 1071.

3) مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 19.

4) مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 20.

- إنّ ما يسميه "جاكسون" "الاتصال" (Contact) ليس هو في الحقيقة إلّا ما ورد في تحديد العلاقة بين المتكلم والسامع في النظرية الخلدونية وذلك حين يتمثل هذه المسألة في بلوغ "المتكلم حينئذ الغاية من إفادته السامع"⁽¹⁾.

- "مقصوده" وهو العنصر الذي يعادل إلقاء الكلام أي إلقاء الرسالة. ومن غير الممكن حصر كل الآراء والنظريات التي تعرضت للخطاب والتواصل بالدراسة والتحليل، وتحمل القول أنّ الحياة البشرية برمّتها تقوم على التخاطب والاتصال أي على العلاقات الإنسانية مما في ذلك العلاقة الدينية والعاطفية والفكرية والسياسية والتجارية والعائلية والمهنية،... وتحدر الإشارة إلى أنّ ظاهرة الاتصال لم تظهر إلّا بعد ظهور العالم "شانون" (Shannon) سنة 1949 مساعدة العالم "ويفر" (Weever) على أنّ القسم الأكبر لهذه الدراسة الهامة الخاصة بهذا المجال، جاءت من خارج علم النفس؛ أي من جهود المهندسين والرياضيين، خاصة بعد نشر عمل "كلود شانون" الموسوم بعنوان: "النظرية الرياضية التبلغية" (La théorie mathématique de la communication⁽²⁾).

ولقد أحدثت هذه النظرية ثورة لفت انتباه جلّ المهتمين بحقول الإعلام، فتغلغل بعد ذلك الاتصال في علم النفس عن طريق علم النفس الاجتماعي، واللسانيات النفسية، وعن نظرية الشخصية.

1) المقدمة، ابن خلدون، ص: 1071.

2) مقال: نظرية التبلغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 21.

ونتيجة لكل ما سبق ذكره نخلص إلى أن الاتصال (Le contact) ظاهرة بشرية اجتماعية إذ لا حياة بدون اتصال؛ ذلك أن الاتصال واقعة حية في السلوك البشري، الهدف منه التمكن من تحقيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية مع طرف آخر أو مع جماعة من الناس.

وبحمل القول أن هدف كل خطاب إقناعي هو التواصل بين البشر سواء في التخاطبات اليومية التي تعتمد في تواصلها على الحوار والمحادثة أو التحاور، أو في الحالات العلمية الأخرى، هذا -طبعاً- دون إغفال اللغة بعدها خاصية بشرية هامة.

الفصل الأول

البلاغة والتحليل التداولي للخطاب

I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب

II- البلاغة الجديدة والخطاب

III- التحليل التداولي للخطاب

IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصي

I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب:

لم تكن دراسة التواصل كنظرية علمية سطع نجمها في العقود الأخيرة بعيدة عن الإشكالات التي ترتبط بتحليل الخطاب في مختلف العلوم النظرية والعملية (فلسفة، أدب، لسانيات، نقد،...) التي أصبحت تهتم بالخطاب في ذاته وفي علاقته بباقي الحقول المعرفية الأخرى، وتسعي إلى إبراز القيم الجمالية والمعرفية والفكرية التي ينشئها الخطاب كيما كان جنسه بحثاً عن إحداث تواصل دلالي؛ وتواصل تداولي أو تواصل قصدي،... حسب الاتجاهات والمذاهب.

ومن بين أهم الجوانب التي اهتم بها محللو الخطاب داخل نظريات التواصل؛ الجانب البلاغي والجانب الخطابي بصفة عامة، لما له من حضور فعال في كل نشاط إنساني سواء تعلق الأمر بإنتاج الفكر أو ممارسته ممارسة تتجه بالأساس إلى الآخر؛ لأن الإنسان لا يفكر أو يتفلسف أو يكتب أدباً أو غيره؛ معزلاً عن العالم.

إنّه يفعل ذلك ليتواصل مع محیطه الخارجي تواصلاً مستمراً وفعلاً مع كل ما يحتويه هذا المحیط من مؤثرات ومحفزات وإكراهات وإشكالات وافتراضات،... ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسة في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل ممیز ومثمر بين الناس.

والاليوم نعيش عودة قوية للبلاغة، إنّها تعرف حضوراً متميّزاً في مشهد علوم التواصل، لاعن طريق تعليمها في الثانويات والجامعات، لكن عن طريق الإشكالات التي تطرحها داخل الخطابات اليومية التي يتناولها الناس فيما بينهم،

داخل المؤسسات الاجتماعية، والسياسية، والبرلمانية، والحكومات، والشارع، والمقهى، والمترجل...⁽¹⁾.

ولقد أصبح العالم يستهلك البلاغة تحت ضغط الحاجة التي تقتضي تواصلاً يجلب المنفعة والتفاهم، وقضاء المأرب والمصالح والاتفاques، إنها الإشكالات التي تطرحها نظرية الحجاج باعتبارها في الحقيقة الخيط الرابط لكل النقاشات التي دارت حول الخطاب والتواصل منذ القديم إلى اليوم، من ديمقراطية "أثينا" إلى ديمقراطية الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي⁽²⁾.

١-١- البلاغة وجمالية اللغة:

تتميز الأمة العربية بخصوصيات عديدة من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه إليها، فالعربي شديد التأثر بالألفاظ وموسيقاها ومعانيها يشدّه حسن الكلام ورونقه شدّاً، حتى كانت فنون الشعر والخطابة من نشاطاته البارزة، وحتى أصبح التميز فيما يأتى صاحبها بحظ أوفر، وكثيراً ما حق له حظوة ومكانة في أكثر من مجال، كأن يأتيه بالجاه أو المال أو العطف أو الصفح، ف الخليفة المسلمين يمكن أن يعفو عنه عن إثم أو جريمة والآخر قد يهبه ما يريد، وذلك كله إنما يعود إلى سحر الكلمة وعذوبتها، فالكلمة تحمل معنى

1) - إشكالات التواصل والحجاج (مقاربة تداولية معرفية)، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 1999-2000، ص: 13.

2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الأول: البلاغة والتحليل التداولي للخطاب

صادقاً دقيقاً يتأكد بردود فعل صاحبها، حيث تقتربن بذاته اقتراناً يجعله شديد التأثير بالبيان الساحر⁽¹⁾.

والواقع أن العربي لا يزال يتفاعل مع مفردات لغته التي تمسّ مشاعره وأحاسيه وطاقاته وجذوره وامتداده ضمن واقعه القومي والاجتماعي، ولعل هذا الذي أدى بالدارسين إلى البحث في طبيعة اللغة ووظيفتها ودلالاتها، وخاصة ما تعلق بالبلاغة كون البلاغة نظام الخبرة باللغة وجمال الكلام.

ومهما يكن، فإن اللغة لا تستمد جماليتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتراكيب ومجازات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن من علاقتها بالجنس الأدبي الذي تذعن له في صوغ أبنيتها إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي حديث، حيث يعمد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها متفقاً مع ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت وعلى هذا النحو تتحدد جمالية اللغة وأسلوبيتها بوظائفها التصويرية في سياق جنس أدبي محدد وકأن طاقة اللغة في التأثير تكمن في الجنس الأدبي نفسه باعتباره أداة فنية متميزة ينطاط بها توصيل رسالة إنسانية⁽²⁾.

ولعل شيئاً شبهاً بهذا قد حصل للتفكير البلاغي العربي القديم الذي بدأ مرتبطاً بجماليات اللغة العربية كاشفاً عن خصائصها التعبيرية الفنية، فهذه اللغة

1) - مقال: التصور اللغوي في البلاغة القديمة، د. رمضان كريب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، د.ت، ص: 1.

2) - مقال: البلاغة ومقوله الجنس الأدبي، د. محمد مشبال، عالم الفكر، المجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو/سبتمبر 2001، ص: 51-52.

التي قال عنها ابن حني إنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽¹⁾، تتجاوز وظيفتها التواصلية النفعية إلى وظائف جمالية وقف التفكير البلاغي الموروث بتأملها بشغف كبير، لم يلبث أن تخوض عن "آبواب" ومباحث مهمة تمثل حصيلة استقصاء دقيق لجماليات هذه اللغة التي وصفت بالحكمة والإتقان⁽²⁾.

والحق، إن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالته المنشودة حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاهداً على أساليب العرب، فهو النموذج الأمثل الذي يستمد منه العالم الحجة لإثبات خصائص العربية في التعبير الجمالي، وهكذا تحولت بلاغة الشعر إلى سند يترافق إليه علماء اللغة والبلاغة للدفاع تارة عن حكمة العربية وتارة عن إعجاز القرآن⁽³⁾.

وبناء على هذا الاعتبار، عدّ الشعر كأهم عنصر في بنية ثقافة المجتمع العربي، وكنمط للتعبير الذي شغلهم عن التفكير في أنماط أخرى؛ لأن الشعر آنذاك كان "علم العرب الذي لم يكن لهم علم أصح منه"⁽⁴⁾.

I-2- الشعر معياراً للبلاغة:

يرى معظم الباحثين أنه من الشعر انطلقت معظم الأفكار البلاغية والنقدية في تراثنا العربي، ولن يعرض على هذا سوى القول إن طبيعة هذه

1) - الخصائص، ابن حني، تحقيق: محمد علي النحجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986، ج 1/34.

2) - البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 58.

3) - المرجع نفسه، ص: 58.

4) - طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحى، تحقيق وشرح: محمود شاكر، القاهرة، 1952، ص: 22.

الأفكار لم تكن تخلص للتعبير لشاعري كما تفهمه اليوم ودليلهم في ذلك ما شهدته الخطابة من انتعاش وازدهار في العصور الإسلامية الأولى مما كان له تأثير قوي في صياغة التفكير البلاغي الذي يعدّ المحافظ أحد ممثليه الأوائل⁽¹⁾. وربما يبيّن رأي هؤلاء النقاد على أنّ السمة الخطابية في الشعر العربي الذي لم يكن ممكناً فصله عن الوظيفة الإقناعية التي ارتبطت به بحكم المكانة السامية التي احتلها في سلم القيم الاجتماعية، وحتى عندما تدحّر مكانته في المجتمع العربي، ظل يمارس الإقناع ولكن هذه المرة بطريقة أخرى، لم ينفصل فيها الشعر العربي عن الحكمة والمثل السائِر مثلما لم ينفصل عن ممارسة التأثير في نفوس المدوحين واستجدائهم للعطاء⁽²⁾.

هكذا كان الشعر موضع نظر لتفكير البلاغي والتقدّي، ومنه ابتدأ معظم الأفكار والأصول الجمالية الموروثة، حتى إن الدارس لا يكاد يجد أي أثر للأجناس التترية في مسار هذا التفكير الذي ظلت مفهوماته ومصطلحاته تدور في فلك الشعر ولكن هذا لا يعني أننا لا نجد أدنى اهتمام بالشعر، فالواقع يثبت أن هناك نقاداً أولوا عناية واضحة بالشعر نذكر منهم ابن وهب وأبا الملال العسكري وابن عبد الغفور الكلاعي وابن الأثير⁽³⁾.

ومن منظور "ألفت كمال الروبي" فإن العناية بالنشر لم تتجاوز تصنيف أجناسه وتحديد خصائصه الأسلوبية الشكلية التي تميّز كل جنس ثري عن

1) - التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، حمودي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981، ص: 185.

2) - مقال البلاغة ومقوله الجنس الأدبي، ص: 62.

3) - المرجع نفسه، ص: 62.

الآخر، وتحيز النثر عن الشعر كما أن ذلك الاهتمام بالنشر لم يتجاوز حنسي الخطابة والترسل إلى الأجناس النثرية السردية⁽¹⁾.

ولعل الناقدة تكون قد انطلقت في نقدها هذا من قول ابن عبد الغفور الكلاعي وهو من نقاد القرن السادس "وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل، ومنها التوقع، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المربحنة والأمثال المرسلة، ومنها المروي والممعنى ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف، وتأملت أيضا... الأسجاع فوجدتها على ضروب وأنواع فمنها ما يجب أن يسمى المقاصد ومنها ما يجب أن يسمى المضارع ومنها ما يجب أن يسمى المشكّل"⁽²⁾.

ولقد أفرد الكلاعي لكل جنس ثري حديثاً خاصاً، أما فيما يخص النثر السردي فقد اكتفى بذكر بعض الأعمال المعينة بقوله: "ومن الحكايات المختلفة والأخبار المزوررة المنمقة، كتاب (كليلة ودمنة)، وكتاب (القائف) لأبي العلاء المعري، وقد تكلموا فيه على ألسنة الحيوان، وغير الحيوان"⁽³⁾.

ومن هذا الموقف أظهرت "ألفت كمال الروبي" أن نقادنا "لم يعرضوا لفهم واضح ومتكملاً للقص بوصفه جنساً أدبياً له وجوده المستقل بين الأجناس النثرية الأخرى فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاتهم لأشكال النثر

1) الموقف من القص في تراثنا النقدي، ألفت كمال الروبي، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1991، ص: 121.

2) أحكام صنعة الكلام، محمد عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1966، ص: 95-96.

3) المرجع نفسه، ص: 208.

المختلفة⁽¹⁾، ولعل السبب في ذلك يعود إلى افتقار القص للوظائف التفعية المباشرة التي كانت للخطابة والكتابة الديوانية، كما أنّ أصحابه لم يحظوا بالمرلة التي حظي بها الخطباء والكتاب، وما يؤلفونه موجه للعوام والجهال⁽²⁾.
ومهما يكن، فقد حذا كتاب النثر حذو الشعراء في أساليبهم وأغراضهم إلى درجة كادت تتوارى فيها الحدود بين لغة الشعر ولغة النثر، ولعل هذا الذي أدى بالكلاعي إلى القول: "وتأملت... النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم فأغفلت ذكرها في هذا الكتاب: لأنّ كثيراً من العلماء قد عنوا بهذا الباب"⁽³⁾، كما ذهب ابن أبي الإصبع المصري إلى أن أكثر أنواع البديع تعم الشعر والنشر معاً وقليل منها يختصّ الشعر⁽⁴⁾.

وبعد سياق المفاضلة الذي خضع له كل من جنسي النثر والشعر، نخلص إلى أن موقف النقاد اللغويين من الشعر كان واضحاً فهو عندهم (أي الشعر) مصدر اللغة الفصيحة ومعيار البلاغة والفن، ولا مكان عندهم للنشر ومن هؤلاء النقاد الأصمسي وابن السلام الجمحى.

أما موقف نقاد الشعر الأدباء فإنهم لا يرون بأساً في أن يعرضوا قضايا الشعر النقدية بحالات إلى المنثور من الرسائل والمقامات والمحوايات⁽⁵⁾، ولقد جاء

1) - الموقف من القص في تراثنا النقدي، ص: 121.

2) - المرجع نفسه، ص 148.

3) - أحکام صنعة الكلام، ص: 95.

4) - تحرير التجاير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفيظ محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1383، ص: 95.

5) - الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص: 80.

الفصل الأول: البلاغة والتحليل التداولي للخطاب

ابن طباطبا إلى الرسالة في حديثه عن بناء القصيدة⁽¹⁾، ونعت قدامة الثغر بالذهب⁽²⁾، والمقصود به طريقة التعبير التي يتميّز عنها الشعر إن التشر عندهم يشمل كل ما لم ينظم في أبيات ويقصد⁽³⁾، من خطب وأمثال ورسائل ومقامات وأجوة الفصحاء⁽⁴⁾.

وانطلاقاً من هذا فإن الاهتمام الندي بالزوج: "الشعر والنشر" يتدرج في إطار تحديد لغة الشعر وما يميزها عن لغة الكلام العادي أو اللغة العلمية (لغة البرهان) أو لغة الخطابة على اعتبار أنّ لغة الشعر هي النموذج الأعلى وهي التي تحسد المثال الرفيع للفن اللغوي الذي قامت عليه البلاغة والنقد.

وعلى هذا الأساس خضعت الكتابة لأساليب الشعر وأصبحت لغته النموذج الذي ينبغي احتذاؤه لبلوغ مرامي البلاغة وقد عبر أبو هلال العسكري عن أن حاجة كل متأدب إلى الشعر ماسة وفاقتـه إلى روايته شديدة فهو "ديوان العرب وخزانة حكمتهم ومستبط آدابهم ومستودع علومهم"⁽⁵⁾، ومنه تنزع

1) - عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مطبعة المدى، المؤسسة السعودية بمصر، توزيع مكتبة الحاجي بالقاهرة، 1985، ص: 7-9.

2) - نقد الشعر، قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الحاجي، القاهرة، ط3، 1978، ص: 58.

3) - نقد الشعر عند العرب، حتى أواخر القرن الخامس، أحمد الطراطيسى، ترجمة: إبريس بالمعنى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص: 119.

4) - مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 63.

5) - المرجع نفسه، ص: 66.

الشواهد وتوخذ ألفاظ اللغة الموسومة بالجزالة والفصاحة والفحولة وكذا الغرابة⁽¹⁾.

وعلى هذا الاعتبار، لم يكن للكاتب أو الخطيب بدّ من أن يتّكئ على الشعر إذا أراد التأثير في النفوس سواء فيما يلجان إليه من تضمن أو اقتباس من الأشعار، أو فيما يعتمدانه في صياغة أسلوبهما، وغير خاف ما يصطلط به الشاهد الشعري في جميع حقول الثقافة العربية الإسلامية القديمة وقد قال ابن باتة: "من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحوين واللغويين يقولون: "قال الشاعر" وهذا كثير في الشعر، فعلى هذا فالشاعر هو صاحب الحجّة، والشعر هو الحجّة"⁽²⁾. وبعد هل يكون إقرار بعض النقاد بأفضلية الشعر ليحجب المكانة الحقيقة التي حازها النثر؟

I-3- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر؟

هناك رأي سائد قديماً وحديثاً يعتبر البلاغة علمًا كلياً يشمل الشعر والنشر معاً، ومن ثم فإن المبادئ المستخلصة والأصول المقررة لا تقتصر على أحد هما دون الآخر ولكن تأكيد هذا الرأي يجعلنا نقرّ بإغفال البلاغيين للفروق بين الأجناس الخطابية إذ يعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأملى عليها مقولاته ومصطلحاته ورسم لها الطريق الذي نهجته فيما بعد، رغم

1) - نقد الشعر عند العرب، ص: 120.

2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ما كانت تموج به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس إبداعية أدبية أخرى، وهذا ينحدر من يرى في القرآن، النص الذي قام حوله التفكير البلاغي⁽¹⁾.

ولقد ظهرت دراسات بلاغية منذ القرن الثاني مع مفسرين لغويين: الفراء (207هـ) وأبو عبيدة (210هـ) والأخفش (215هـ) ولكنها لم تتبادر حتى القرنين الرابع والخامس مع ظهور الكتابات الخاصة بالإعجاز. ولكن ما يمكن إثباته هو أنّ البلاغة التي نشأت حول النص القرآني تدين في أصواتها لمعيار الأسلوب الشعري الذي ترسّخت بلاغته في الذهنية المتلقية، وبتجذر قيمه الذوقية⁽²⁾ مما جعل أبو عبيدة يتخذ حجة لإثبات أنّ القرآن نصّ عربي يجري على سنن كلام العرب وخصائصه⁽³⁾.

وانطلاقاً مما ذهب إليه أبو عبيدة وغيره من المفسرين يمكننا القول إنّ القراءة التي شاءت الدفع عن أسلوب القرآن قد وقعت في تمجيد أسلوب الشعر لما يحوزه من تأثير في نفوس المتلقين، وبذلك كانت إشباعاً للذوق المتلقى واستجابة لمعاييره الجمالية. وهي لذلك -أي القراءة البلاغية- لم تفلح في ضبط الخصوصية الأسلوبية للقرآن، وذلك أنها قيدت نفسها بالإجابة عن إشكال محدد يتمثل في أنّ أسلوب القرآن مماثل لأساليب العرب المتداولة في شعرها ولم يخرج عنها⁽⁴⁾.

1) البلاغة ومفهوم الجنس الأدبي: ص 66-67.

2) المرجع نفسه، ص: 67.

3) مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق: فؤاد سرکین، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1981، ج 1/18.

4) مقال البلاغة ومفهوم الجنس الأدبي، ص: 68.

ونظراً لاهتمام مناصري بلاغة النص القرآني، صدرت قراءات بلاغية إعجازية من مبدأ تفوق الأسلوب القرآني على بقية الأساليب البشرية. وهذا الذي يستشعره قارئ أهم مصنف بلاغي في هذا الباب، وهو كتاب "دلائل الإعجاز" وبغض النظر "عما يؤمن به عبد القاهر الجرجاني من تفوق بلاغة القرآن فإن القارئ لا يعثر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب هذا النص الجديد، وكأن عبد القاهر يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني"⁽¹⁾.

وعلى هذا النحو ظلت البلاغة هي الأخرى أسيرة جماليات الشعر، من حيث أرادت أن تثبت جمالية القرآن؛ وبالتالي لم يتم الإقناع بأفضلية التعبير القرآني دون الرجوع إلى ما يناظره في ذهنية المتلقى، وهكذا كان المنهج الإقناعي المتحكم في الدرس البلاغي الإعجازي طريقة لإثبات التشابه مرة أخرى وليس التمايز النوعي.

I-4- خواص البلاغة:

لم تكن البلاغة في العصر القدسي مرادفة لنظرية الأسلوب، ولقد أشار "بول ريكور" (Paul Ricœur) إلى تعدد الحالات التي كانت تشغله بلاغة أرسطو، وهي نظرية الحاجاج التي تمثل المحور الأساس ونظرية الأسلوب ونظرية تأليف الخطاب: "وما تقدمه لنا الكتابات المتأخرة في البلاغة لا يعدو أن يكون

(1)- المرجع نفسه، ص: 68.

مجرد بلاحة مقيدة،... فقد أصبحت تقتصر على نظرية الأسلوب ثم بشكل أضيق على نظرية المحاز"⁽¹⁾.

وهكذا تقلصت البلاغة إلى أحد أجزائها المتمثل في الأسلوب أو العبارة Elocution، وبذلك أصبحت مرادفة للأسلوبية، وبعد أن كان مفهوم البلاغة قائماً على الإقناع عند المفكرين الأوائل، أصبح فيما بعد يفيد "فن تحويل الكلام"⁽²⁾.

وببناء على المفهوم الجديد للبلاغة "فن تحويل الكلام" صارت البلاغة هي اختيار التعبير المزخرف الذي يمكنه خدمة الوظيفة الإقناعية. وهكذا أصبحت البلاغة التي تحظى بالتقدير هي تلك التي تتغيّر المحسنات أي بلاغة تحويل الكلام وخلق أنماط لغوية جميلة⁽³⁾ وبذلك لم تعد البلاغة فناً يسخر الوسائل اللغوية من أجل غاية خارجية.

ومهما تبانت الأساليب الداعية إلى أقول نجم البلاغة بمعناها القديم فلعل انتقال موضوعها من الخطابة إلى الشعر، أن يمثل عاملًا في تفسير تحولها من مذهب شامل إلى نظرية في الاستعارة والكتابية⁽⁴⁾.

وفي النهاية نخلص إلى أن لكل جنس أدبي جماليته الخاصة وبلامغته المميزة، كما نستنتج أن الشعر هو الجنس الأدبي الذي خضعت له التصورات

1)- La Métaphore vive, Paul Ricœur, Paris, 1975, le seuil, P: 13.

2)- مقال البلاغة ومقدمة الجنس الأدبي، ص: 70.

3)- Rhétorique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil, P: 13.

- نخلا عن البلاغة ومقدمة الجنس الأدبي، ص: 71.

4)- مقال البلاغة ومقدمة الجنس الأدبي، ص: 75

النقدية والبلاغية الموروثة، كما عُدّ الأسلوب الشعري معياراً جماليًا يوجه الأنظار وتحاكم إليه الأصول والمبادئ ومعيار كذلك في معظم الأنظار الأسلوبية والبلاغية المعاصرة.

I-5- معيار الوظيفة:

لما كانت وظائف اللغة متعددة، انعكس ذلك على بنيات الكلام، حيث ارتبط اختيار النمط التعبيري بنوع الوظيفة المقصود توصيلها في الرسالة اللغوية. وغير خافٍ "أنه لا تستقل الرسالة بوظيفة واحدة، فقد نجد في الرسالة الواحدة وظائف عدّة، وما يميز رسالة عن أخرى هو طبيعة النظام التراتي الذي تتّخذه هذه الوظائف اللغوية داخلها؛ حيث يهيمن بعضها على الآخر فيما يشبه تقدمها إلى الواجهة أو تراجعها إلى الخلف"⁽¹⁾.

واعتماداً على هذا الرأي، نجد في النص الشعري سيطرة الوظيفة الشعرية بينما تهيمن الوظيفة الإقناعية في النص الخطابي؛ "فالشاعر يلحّأ إلى تكثيف وسائل التعبير الجمالي بصورة غير مألوفة قصد وضعنا قسراً في موضع الانتباه، أما الخطيب الذي يتغيّر الإقناع فإنّ وسائله التعبيرية مختلفة عن تلك التي يستخدمها الشعر"⁽²⁾.

وهكذا، فإن إقرار الفلسفه المسلمين بوجود تشابه بين الشعر والخطابة في كثير من وجوه الاستخدام اللغوي المسمّة بالاتساع والتجوز، لما يحتاج إليه

(1) - مقال البلاغة ومقوله الجنس الأدبي، ص: 81.

(2) - المرجع نفسه، ص: 81.

الخطيب في العادة من وسائل "التخيل" الضرورية في تحقيق الإقناع، لا يلغى وجوده الافتراق بينهما، فهم يرون أن الخطيب ينبغي له الإكثار من استعمال التشبيهات والاستعارات وكل ما هو خاص بالشعر، كما ينبغي أن يكون اختياره لها على أساس قربها إلى الأفهام وشهرتها حتى لا يقع في كلامه عموم أو غرابة مما يعد من سمات الشعر⁽¹⁾.

وعلى هذا النحو تحدد وظيفة "التخيل" سمات الشعر المتمثلة في اللجوء إلى صور البديع بشكل لافت للنظر يشير التأمل الذهني والوجداني، كما تحدد وظيفة "الإقناع" سمات الخطابة التي تعمد إلى الاستعمال الحقيقى والمنطقى للغة، ولا تلتجأ إلى استخدام الأسلوب الشعري إلا بضرب من الاقتصاد حفاظاً على إيقاع التصديق⁽²⁾.

وعلى الجملة، فإن الشعر يتونّح إلى التخييل، التأثير في سلوك الجمهور المتلقى، ومن هنا حاجته إلى وسائل الإقناع، وكذلك الخطابة في حاجتها إلى وسائل التخييل لإحداث الالتزام المصاحب للإقناع، وبذلك يجوز لكل منها وظيفة الآخر ولكن في موقع ثانوي.

I-6- وظيفة البلاغة القديمة:

بعد الخوض في قراءة الموروث البلاغي والنقدى السابق وبعد تحديد جملة من التصورات والخصائص، يمكن القول إن اللغة تتبع التطور الاجتماعى

1)- مقال البلاغة ومقدمة الجنس الأدبي، ص: 81.

2)- المرجع نفسه، ص: 81.

الذي تنصيبه الأمة، ذلك التطور الذي يحدث لعوامل كثيرة؛ أهمها التغيير الاجتماعي وما يتبعه من تطور في القيم، ومنه يمكن الجزم بأن البلاغة جزء أساس من حياة المجتمع القديم والحديث، فهي أداة الترويج والأخذ والعطاء والسياسة وأمور الحكم⁽¹⁾.

وعلى سبيل المثال فإن الديمقراطية الحديثة لا تقل اعتماداً على استعمال البلاغة، فنظام المعارضة الخزبية لا يزال وثيق الصلة بها، ولعل التأمل لأدوات الديمقراطية يكتشف أن هناك سعيا دائماً لاكتساب عقول الأفراد والجماعات والتأثير عليها. الأمر الذي جعل ظروف الحياة السياسية تستحيل بين الحين والآخر إلى شرّ لابد منه. وما نموّ البلاغة وتطورها إلا لأنّ مطالب أجزاء من المجتمع لا تعدو أن تتمثل في امتلاك السامع، دون أن يسأل المتكلم نفسه أكان محقاً أم كان مبطلاً⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، فإن البواعث المهمة التي نشأت في كنفها البلاغة، هي ظروف مجتمع يتعرض للتغيير ويواجه التحدّي من الخارج، ويحار فيما يأخذ وفيما يترك، لذلك نلاحظ اختلافاً في مادة التفكير بين قديم وجديد وطارئ ووافد عليه⁽³⁾.

ومن دون شكّل أن البلاغة نشأت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة المقاصد، أي أنّ البلاغة مدارها تحقيق الأهداف والغايات كيّفما كانت هذه الغايات،

1) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 02.

2) - اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، النادي الأدبي بمجدة، السعودية، 1989، ص: 25.

3) - اللغة والبلاغة والمילاد الجديد، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بمجدة، السعودية، 1989، ص:

خطابية أو شعرية أو عملية أو ثقافية، أو دعاية⁽¹⁾. وبمعنى آخر، فإن البلاغة العربية منذ نشأتها تحاول أن تقف موقفاً خاصاً، يتضح هذا الموقف في اختيار الكلمات وترتيبها وفي سعيها إلى الاهتمام بالسامع اهتماماً يشبه العمد والاحتفاء⁽²⁾.

ومن ثم فإن مقصودنا يجب أن تفترض ويجب أن يقدر مدخلها في تلوين أفكارنا وموافقتنا من المخاطبين⁽³⁾، الواقع أنها نتكلم في العادة من أجل أن نبلغ هدفاً، هذا الهدف يؤثر لا محالة في القول الذي نقوله، ولذا كثيراً ما نجد الكتاب يلفتون إلى أهدافهم بالعبارات الاحتراسية والاعتراضات التي يبسوها من أجل مواجهتها، والحقيقة أن أهدافنا توجه خطّة عقولنا⁽⁴⁾.

وعلى هذا الاعتبار، يمكننا القول إن البلاغة القديمة وجّهت توجيهات نفعية بعيدة عن مراسيها العلمية الأصيلة التي كان عليها أن تخلص التوجّه نحوها. فقد أراد بها البعض خدمة غرضه (مقصده) لا غرضها، وهي لذلك تهدف بالدرجة الأولى إلى كسب تأييد المتلقى في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقى عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة/الخطاب.

1) اللغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 189.

2) اللغة والتفسير والتواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 193، رجب 1415هـ/يناير، كاتون ثان، 1995م، ص: 11.

3) المرجع نفسه، ص: 16.

4) المرجع نفسه، ص: 12 - 13.

وبهذا المعنى، يصح القول: إن البلاغة بخصائصها توجه للقلب والعقل معاً إذ يجمع القول فيها بين المضمون العقلي للحجّة (الشاهد) وصورها البينية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البدعية، لأن مدار ذلك هو الإغراء والاستغواط قصد الإمتاع والإقناع⁽¹⁾.

فطريق الإغراء هو أسلوب يتوجه نحو مخاطبة العاطفة (ترهيباً وترغيباً)، حيث يلعب على الجوانب النفسية والمشاعر الحساسة؛ إنه تغريب شبه كلي للعقلانية. أمّا طريق الحجاج فهو أسلوب يتوجه نحو مخاطبة العقل وآلياته العقلانية، إعمالاً للحواس والإدراك والحدس، وليس بحثاً عن الحقيقة المطلقة التي دافع عنها أفلاطون، أو الحقيقة العقلية التي تغنى بها ديكارت، بل سعيًا إلى الإقناع والتدليل على الممکن الذي أعلن أرسسطو ميلاده في القرن الخامس قبل الميلاد⁽²⁾.

وتجدر بالإشارة أنَّ هذا التمييز بين الإغراء والحجاج لا ينبغي اعتباره انفصالاً نهائياً بينهما، لأنَّ الأمر يتعلق بضرورة استيعاب هذه الثنائية القائمة على استعمال الإغراء كطريقة للإقناع واستعماله كطريقة منبثقة من طبيعة الحجاج الهدافة إلى الإقناع دون أن تكون بديلاً عنه⁽³⁾.

1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، عالم الفكر المجلد 30، العدد 01، مجلة دورية محكمة تصدر عن مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ليوctober/سبتمبر 2001، ص: 110.

2) - إشكالات التواصل والحجاج، ص: 15.

3) - المرجع نفسه، ص: 15.

1-8- موقع المستمع في دراسته البلاغية:

يعد "المستمع" مكونا أساسا في العمليات التخاطبية والتواصلية وموجها ضروريا لطبيعتها، ويعجب هذا اعنت البلاغة القديمة بحال المخاطب اعتناء بالغاً؛ حيث تحدث العلماء عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حدثا مفصلاً وقد أدّت هذه العناية الشديدة ببعض الباحثين إلى الافتراض أنّ البلاغة القديمة تفترض أنّ الإنسان لا يفكر لوجه التفكير، ولا يشعر لوجه الشعور، وإنما يشعر ويفكر من أجل التأثير في مخاطب أو التغلب عليه⁽¹⁾.

هذا المعنى الذي أوجزه مصطفى ناصف بقوله: "إن ثقافتنا التقليدية لم تكن تحسن التمييز بين الجميل من ناحية والصواب والخير من ناحية أخرى وهذا كانت اللّغة في أيدي البلاغة القديمة تخدم مقاصد معينة مختلفة"⁽²⁾.

ولكن هذا الرأي قد يوهم بأن البلاغة العربية الموروثة لا تكتم بروح الإنسان ومتاعته المتسامية على النجاح وجني النفع، بناء على أن الشعر لا يقصد به مخاطباً وإنما هو انباث نفسي في صورة لفظية لحالة شعورية تتجسد في هذا التعبير الفني معبراً عن صاحبه؛ ذلك أن الشعر في جوهره لا يتغيّر إفادته المخاطب بمحضون معين، وإنما هو تنفيس تلقائي لشاعر نفية حسية تجد انطلاقها في هذا العالم الشعري الغامض⁽³⁾.

1) مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 03.

2) اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 148.

3) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزى وشركاه، ط2، د.ت، ص: 67.

ومهما يكن فإن نظام البلاغة القديمة هو نظام إدراك المนาفع ودفع المضار، وتحقيق النجاح العملي، ولكن هذا لا يتأتى إلا بالصياغة اللغوية وقدرها على الإبهام والتخيل إلى درجة الإقناع.

وهكذا يتجلّى أن المعول عليه في البلاغة هو المهارة اللغوية التي تمتلك القلوب وتستأثر بها، وإن كنّا نجد أنّ هناك من نظر إلى هذه المهارة نظرة ريب⁽¹⁾. كالملاحظ الذي يذكر أنّ البلاغة هي تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق⁽²⁾.

ويبدو أن فكرة الملاحظ عن البلاغة مؤداها إيهام المتلقى والعمل على خداعه واستدراجه في غيبة من رويته إلى ما يخالف عقله وعلمه، والواقع أن سحر الألفاظ وجماليّها يخدم مبادئ متعارضة فهو يؤيد الدعاية والاستمالة البعيدة كما يعني إغراء الكلام والقدرة غير العادية التي تصرف المتلقى إليها دون أن يعرف لذلك سبباً واضحاً أو حجة مقنعة⁽³⁾.

وعلى هذا ينبغي التمييز بين نوعين من الاستعمال اللغوي؛ أحدهما استعمال حقيقي صادق، والثاني خلاب ومستحبّ، وربما يجتمع للباطل أوجه استحسان باهرة وحسن البيان يرى الظلماء كالنور⁽⁴⁾. أو كما قال الشاعر:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءٌ تَدْبِيرٌ

1) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 4.

2) - البيان والتبيّن، الملاحظ، ج 1/ 113.

3) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

4) - اللغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 61.

ويصبّ في هذا السياق أيضاً ما جاء على لسان الرسول الكريم ﷺ:

"إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسْحَراً"، فهذا القول جمع بين عدة اعتبارات: بين محنة القول، بالرغبة والاستماع إليه من ناحية، والتعمود من البيان الساحر إذا ملأ عقل الإنسان ونفسه، ووجه الشبه بين السحر والشعر أو البيان هو التأثير⁽¹⁾.

وإلى جانب هذا، هناك إشارة من القرآن الكريم تدل على تلك المفارقة بين القول الذي يغري بالاستماع إليه، والحق البريء من الزينة في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِّدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَذْلَّ الْخِصَام﴾⁽²⁾، وفي سياق آخر يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾⁽³⁾.

ومن هذين المقامين ندرك ما يسمى بـ"الاستمالة" وقد نظر إليها القرآن الكريم نظرة تحذير إذا لم تكن استمالة غير مشروعة⁽⁴⁾.

وغير خاف، أنَّ الإنسان كان يوماً يرى أنَّ كلمة تحرّك الريح، أو تغير طبائع الإنسان وتنقله من طور إلى آخر، وتتزل القمر من السماء، وكيفما كان الأمر يبقى القول؛ إنَّ الأفكار في المجال الإنساني يحكمها اعتبار انفعالي و موقف من الآخرين⁽⁵⁾.

1) - اللغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 67.

2) - سورة البقرة، الآية: 204.

3) - المنافقون، الآية: 13.

4) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

5) - اللغة والتفسير والتواصل، ص: 21.

والخلاصة إن بلاحة التأثير والإقناع والتخيل لم تكن العبارة فيها تستعمل من أجل البيان أو الإشارة المخايدة، وإنما من أجل الاستهواء والكسب والإقناع.

هكذا نظر البعض إلى غاذج المهارة اللغوية مشيراً إلى فتنة الزينة وجمال اللّفظ مع فساد المعنى، ولعلّ هذا ما جعل العقاد يحاول توثيق العلاقة بين مفهومي الجمال والحرية⁽¹⁾. غير أنه ينبغي أن نتذكر قول ابن المقفع: "إن رضا الناس غاية لا تدرك" فقد يكون هذا الكلام صالحاً لكل زمان، ولكنه في النطاق التاريخي يعبر عن اتساع نطاق الخصومة وكيفية معالجتها في العزبة والشعر والخطابة والسياسة⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس كان الغرض العاطفي محوراً في التراث البلاغي، حيث كان كل من الشاعر والخطيب يهدفان إلى إقناع الجمهور؛ وذلك بأن يكون هدف الإقناع خارج النص (فعل شيء ما) ثم هناك مقصودية التهبيج، التي تكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة من حقد، وألم وخوف وغيره، هذه الانفعالات التي تسسيطر على الجمهور وبالتالي تؤدي إلى تهبيج وقتى والفجر عاطفي⁽³⁾.

وفي هذا الإطار قال ابن خلدون: "لقد عبر العرب بالشعر عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم، فقد كانوا عن طريقه يؤثرون في غيرهم"

1) مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

2) اللغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 24.

3) اللغة والتفسير والتواصل، ص: 146.

ويحملونهم على الحماس، ويغرسون فيهم أخلاقهم، ويدلّونهم على حسن الشيء⁽¹⁾.

ويبدو واضحًا من خلال هذا القول؛ إنَّ تعلم المستمع في مجال الأخلاق كان من أغراض البلاغة القديمة، وطبيعي أن يتضمن ذلك عناصر تعليمية واحتجاجية، كما يتضمن دعوة إلى العقل وتسجيل عناصر النص والتحذير، ذلك أنَّ التأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع⁽²⁾، وهذا ما يُثبته قول الجاحظ: "إن مدار العلم على الشاهد والمثل"⁽³⁾. هكذا حضرت بعض التعاريف وظيفة البلاغة "في مؤدي الكلمة اللغوية في الإبانة والإفصاح والبيان، ويرتبط موضوعها بالحكمة طریقاً إلى زکاة النفس وتربيتها وتأدیبها؛ مما يبرز الطابع النفعي المنتظر من كل خطاب بلیغ، بعيداً عن كل تصوّر فني وتأثیر شعری"⁽⁴⁾.

وبالإجمال، فإنَّ التراث البلاغي لا يهتم بحقائق الأشياء ولكنه يهتم بالتأثير والإقناع وضم الجمهور إلى جانب دون الآخر، فبالبلاغة يمكن المعنى لديك، ويحييّب إليك وتحسّ بنبله، ويتوفر له أنسكه، وهذا دليل على أسرار التأثير التي تقع في النفس من جراء صور البيان، فهي تداعب وتناجي وتحاور مشاعر المستمع وأحاسيسه وأماله وطمومحاته⁽⁵⁾.

1) - المقدمة لابن خلدون - طبعة دار الكتاب اللبناني، ص: 1098.

2) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

3) - البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ص: 171.

4) - التفكير البلاغي عند العرب، ص: 115.

5) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

وحتى يسهل التأثير في نفس المستمع، فقد افترضت البلاغة القديمة أنَّ لدى القائل شيئاً محدوداً معروفاً يريد أن ينقله إلى السامع، وعليه أن يختار طريقة الأداء، وأن يزيل العقبات التي قد تعرّض سبيل عقد الصلة بينه وبين هذا السامع⁽¹⁾.

ولقد سبقت الإشارة إلى أنَّ البلاغة القديمة اتصفَت بوجوه من الخداع والرياء المقبول وغير المقبول، ولذلك قال الجاحظ: "اللهم إِنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا تُحسن، كما نعوذ بك من العجب بما تُحسن"⁽²⁾.

ومقصود من وراء هذا، هو الافتتان بالقول إلى الحد الذي يفقد الإنسان معه صوابه، فيعجز عن دَيْنَه عن التمييز بين خيره وشره، جيده وردئه، وإذا كان الناس يتقادون قسوة الحجاج بن يوسف الثقفي وعنفه وحرمه في معالجة الأمور⁽³⁾، فقد قال عنه مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجاج"⁽⁴⁾.

ومغزى هذا التأثير هو أنَّ المستمع يواجه نشاطاً لا يصمد صموداً تاماً أمام لغة منزهة بريئة. ومن هنا يتجلى أنَّ المقاصد ذات شأن كبير في البلاغة

1) - اللغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 190.

2) - البيان والتبين، ج 1/03.

3) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

4) - البيان والتبين، ج 1/103.

الموروثة وذلك لأنها تسود غيرها من الوظائف اللغوية أو تصرفها حيثما شاءت⁽¹⁾.

وهاهنا تظهر المهمة الأساسية التي تضطلع بها البلاغة والتي تمثل في وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب، بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض الذي يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في السامع، أو اقتناعه بما نقول، أو اشتراكه فيما نحسّ به، وغايتها مدّ المستعمل بما تعتبره أبشع طريقة في بلوغ المقاصد⁽²⁾.

وإذا كانت البلاغة تُتَّخذ اللغة سبيلاً لتحقيق مراميها، فلا غرو أن نشير إلى أنّ اللغة في بدايتها كانت تمثل وظيفة اجتماعية يمارسها الإنسان ليؤكّد بها ذاته، ولويستشعر عن طريقها وجوده متفاعلاً مع غيره. من يشاركونه هذه الوظيفة⁽³⁾.

وعلى العموم، إن لغة وظيفتين جوهريتين هما: التعبير والتوصيل، وبناء على فكرة المقاصد، فقد كانت اللغة تستعمل لغايات مثل التشريع، أو خدمة أغراض علم الكلام، أو إذكاء العصبية، أو التجمّل الواجب لكل من يتصدّى لمنصب من مناصب الحكم أو الرئاسة⁽⁴⁾.

وانطلاقاً من هذا فقد انطاعت محاولة الجاحظ بطبع نفعي واضح يمكن أن يعدّ بدون مبالغة أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى

1) - اللغة والتفسير والتواصل، ص: 16.

2) - التفكير البلاغي عند العرب، ص: 47.

3) - مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

4) - اللغة والبلاغة والمילاد الجديد، ص: 151.

"بنفعية الخطاب" (La Pragmatique du discours) ومتى يلاحظ على الماحظ أنه تناول الخطاب اللغوي من زاوية كونه عملية تواصل (Communication) يستوجب قيامها حدّاً أدنى من الأطراف لا يقل عن ثلاثة: المتكلم، والسامع، والكلام، والرابط بين الأطراف هو الوظائف الثلاثة: الوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية، والوظيفة الشعرية، حيث إنّ الأولى تقوم من القيمة مقام الأصل. فالماحظ لا يتصور خطاباً لغويًا مهماً كان مستوىً، لا يكون الفهم والإفهام قاعدته. وغاية هذه الوظائف جمِيعاً هي السامع⁽¹⁾.

وهكذا، فبالبلاغة ينتصر الشاعر أو الخطيب لقضيته ويُسوغها في النفوس، ويتم تكيينها في الذات "إنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة"⁽²⁾ ولعلّ هذا ما جعل المتكلمين والمعتزلة يعتبرون تعلم البلاغة غاية في حد ذاته، فهي تمكّنهم من أداة ناجعة، يظهرون بها على خصومهم في المناظرات والمحادلات⁽³⁾. ووفقاً لذلك، فإن البلاغة هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع، مع ما يقتضيه ذلك من محسنات وإبابة وإظهار وإقناع، ويعود هذا التصور إلى كون البلاغة قد نشأت في أحضان الصراع العقائدي، فقد وصف القرآن الكريم بعض الناس بأنّ لهم ألسنة حادة، ووصف طائفة أخرى بأن لهم القدرة على الجدل والخصوصة، وبديهي أن تكون اللغة في خضم هذه الظروف ظاهرة من مظاهر الصراع وليس السلام⁽⁴⁾.

1) التفكير البلاغي عند العرب، ص: 299.

2) العمدة، في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القميرواني، القاهرة، مطبعة 1925، ص: 245.

3) اللغة والتفسير والتواصل، ص: 136.

4) مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 07.

وتبعاً لهذه الظروف تحولت اللّغة الجميلة إلى وسيلة من وسائل القهر والخوف، يمكن أن تؤدي في حياة المجتمع إلى الشرّ، على نحو ما يمكن أن تؤدي به إلى الخير.

وممّا تحدّر الإشارة إليه بعد هذا، أن اللّغة في الموروث البلاغي كانت خادمة للمنطق والإقناع، متأثرة بالمنطق الأرسطي الذي أدى بالبلاغة القديمة إلى العجز عن إمكانات التعبير اللغوي التي تتجاوز البنية السطحية، وتوجّل في شبكات الأبنية التحية لتركيب، ويعود هذا العجز إلى اعتماد البلاغة على ربط اللّغة بالواقع وحصر وظيفتها في الإشارة إليه، وهذا ما أدى إلى الاعتناء بالحالة العقلية للمخاطب أكثر من الاعتناء بحالته الوجدانية ونزعها إلى الوضوح بما هو مفهوم عقلي صرف⁽¹⁾.

ومن آثار المنطق الأرسطي ولع البلاغيين العرب بالتقسيمات والتفرعات الجامعة المانعة بما فيها من حدود ورسوم، مما كان له الأثر في حقائق البلاغة وفقدان رونقها الحيوي⁽²⁾.

ومن منظور مصطفى ناصف، فقد كانت البلاغة القديمة تقوم على تعقل الأشياء أكثر من قيامها على وجدها وأنها كانت تهتم بالعقل⁽³⁾، الذي ينجرّ عنه حتماً تراجع الخيال وانحسار قدراته وتحديد فعاليته في التجربة الشعرية يظهر ذلك جلياً في تمسّك النقاد بالوضوح وعدم الإبعاد⁽⁴⁾.

1) البلاغة والأسلوبية، ص: 182.

2) اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 150.

3) المرجع نفسه، ص: 151.

4) مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 08.

ونخلص بعد هذا كله إلى أن المنهج البلاغي القدسي كان منهجا خطابيا نظريا شديدا الاهتمام بالقسمة والتفرع، يستكثر من الشواهد والأمثلة، ولم تكن البلاغة مميزة من الثقافة الفلسفية أو العقلية⁽¹⁾، وهي لذلك -أي البلاغة- كانت تزعم أن الذهن الإنساني يتعامل مع الخاص منذ البدء وينتقل منه إلى العام⁽²⁾، لذا عيب عليها أن أفقها لم يتجاوز الوحدات الجزئية، أو أنها كانت تميّز بين الجزئي والكلي بمقتضى المنطق والإلقاء⁽³⁾ في حين أن البلاغة الحديثة ليس لها حاجة دائمة إلى حدّة هذا التمييز.

II البلاغة الجديدة والخطاب:

ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها المفكر البولوني المولد البلجيكي المقام "بريلمان شارل" (Perelman Charles) تحت اسم "مقال في البرهان: البلاغة الجديدة" يعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو الحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر⁽⁴⁾.

1) - اللغة والتفسير والتواصل، ص: 145.

2) - بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992، ص: 133.

3) - اللغة والتفسير والتواصل، ص: 129.

4) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 73.

هذا عن مدرسة "بروكسل" البلجيكية، أما عن الشكلانية الروسية، فإنه يلاحظ عموماً على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللغة التواصلية، وأنها ليست منبته الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، هي اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان⁽¹⁾.

وإذا كانت مدرسة بروكسل والمدرسة الروسية تمثلان التيار الأول في البلاغة الجديدة، فهناك تيار ثان نشأ في السبعينات، يرى الباحثون بأنه يعمل في الاتجاه المضاد للتيار الأول وقد ولدت بلاغة هذا التيار في حضن البنوية النقدية ذات التروع الشكلياني الواضح، تمثل حدّتها في أنها تقوم في مقابل التقاليد المدرسية للبلاغة الفيلولوجية، ويمثلها جماعة ممّن أطلق عليهم البلاغيون الحدد، معظمهم في فرنسا مثل: "جييرار جنيت" و"جان كوهين" و"تودوروف" و"جماعة.م" أو "جماعة ليجا"، كما يطلق عليها أحياناً يلتقيون في كثير من مبادئهم وإنجازهم بمثيل الدراسات المحازية واللغوية في الثقافة الانجليزية والأمريكية على اختلاف في المناهج والغايات⁽²⁾.

وبالإضافة إلى التيارين السابقين هناك اتجاه ثالث يحاوز للتيار الثاني، ومعتمد على السيميولوجيا من ناحية، والتداولية من ناحية أخرى، وقد تحول إليه في نهاية السبعينيات بعض أنصار التيار الثاني أمثال "تودوروف" الذي اعترف عام 1979 بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة، وقد اتضحت بعد هذا أنّ مفهوم بلاغة الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع

1) - بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 73.

2) - المرجع نفسه، ص: 73 - 74.

الخطاب، علم عالمي في موضوعه ومنهجه، مهما اختلفت الأسماء التي تطلق عليه⁽¹⁾.

1-II - بلاغة البرهان لمنى "بيريلمان":

يرى "بيريلمان" أن نظرية المحاجة لا يمكن أن تنمو إذا تصورنا أن الدليل البرهاني، إنما هو مجرد صيغة مبسطة بدائية ولذلك فإن هدف "نظرية البرهان" (Théorie de l'argumentation) هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كنافته⁽²⁾.

يقول "بيريلمان" في تحديد موضوعه: "إذا كانت القرون الثلاثة الأخيرة قد شهدت أعمالاً كبرى تدور حول المشكلات الفلسفية والإيديولوجية، واتسم هذا القرن الأخير بازدهار الدعاية والإعلان، فإن المناطقة المحدثين قد أغفلوا هذا الجانب، مما يجعل نظريتنا تقترب مرة أخرى مبدئياً من شواغل عصر النهضة، ولذا فإننا نقدمها باعتبارها بلاغة جديدة..."⁽³⁾.

ويبدو جلياً أن مقاraphة "بيريلمان" البلاغية تهدف إلى إبراز حقيقة هامة، وهي أن كل محاجة تنمو بالنظر إلى مستمعين، في حين رأى الأقدمون أن الفكر

1)- Del Formalisma a la neoretoria, Pozuelo, y vancos, Jose Maria, Madrid, 1988, P: 189

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

3)- Treate de l'argumentation- la nouvelle rhétorique Perelman, Ch. Oubseches- Tytica Trad- Madrid- 1989- P:36.

الجدلي مواز للفكر التحليلي، لذا يرى بيريلمان أن بحوثه تتجاوز بزمن طويلا بلاغة الأقدمين⁽¹⁾.

في بالنسبة للأقدمين "كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو "فن الكلام المقنع للجمهور"، فهي تتصل إذن، باستخدام لغة التكلم بالخطب التي تلقى في الميادين العامة أمام حشود من الناس، وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات المقدمة ومع أن هذا هو نفسه هدف كل محاجة برهانية، فليس هناك ما يحمل الباحث على أن يقصر دراسته على العرض الشفهي للبراهين، ولا أن يحصرها في الجماهير المحتشدة في الميادين"⁽²⁾.

وبالإضافة إلى هذا -يرى بيريلمان" أن "رفض الشرط الأول المتمثل في عدم حصر الدراسة على العرض الشفهي للبراهين يعود إلى الشواغل التي تحرك المناطقة لفهم عمليات الفكر وآلياته، بعيدا عن اهتمامات من يعنون بتكونين النواب والخطباء والممثلين، وإذا كان صحيحا أن تقنية الخطب الجماهيرية تختلف عن الماجحة المكتوبة فإنه نظرا لأهمية الدور الحديث للطباعة، فإن هذا الاتجاه يعني في المقام الأول بالنصوص المكتوبة، مما يجعله يغفل دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة، لأن هذه المشكلات تتصل بوظيفة معاهد الفنون الدرامية ومدارس الإلقاء والتمثيل"⁽³⁾.

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 75.

2)- Treate de l'argumentation, P: 36.

3)- Ibid, P: 36.

وإذا كان لابد من الاحتفاظ بشيء من البلاغة التقليدية حسب رأي الباحث، فإنه ينبغي الاحتفاظ بفكرة المستمعين التي تنبثق مباشرة من فهم طبيعة الخطاب، فكل قول يوجه إلى مستمع، وكثيراً ما ننسى أن الشيء ذاته يحدث بالنسبة لكل مكتوب، وبينما نتصور الخطاب بالنظر إلى مستمعين، فإن غياب القراء مادياً ربما يجعل الكاتب يظن بأنه وحده في هذا العالم، بالرغم من أن نصّه في الواقع مشروط دائماً بهؤلاء الذين يتوجه إليهم واعياً أو بشكل غير واعٍ⁽¹⁾.

II-1-1- كيف يكون الخطيب فعالاً ومؤثراً منظور "بيريلمان":

عرفنا أن البلاغة عند الأقدمين هي دراسة التقنيات التي يستخدمها عامة الخطباء للوصول بأسرع ما يمكن إلى النتائج المستهدفة وتكوين الآراء دون الاجتهاد في التمييز الحاد، غير أن لـ"بيريلمان" وجهة نظر أخرى تمثل في أن "البحث في البرهان لا يمكن أن يقتصر على ما يناسب هذا الجمهور الجاهل، وإذا كان الخطيب مضطراً -لكي يكون فعالاً ومؤثراً- أن يتكيف مع الجمهور، فإنّ ما يترتب على ذلك هو أنّ أفضل الخطاب ليست بالضرورة هي التي تقنع المفكرين. ومن هنا تُبع أهمية تحليل الحجج البرهانية فلسفياً، وهي ذات طابع عقلي أساساً، لأنها تتجه إلى قراء لا يخضعون للإيحاءات والضغط والمصالح والأهواء"⁽²⁾.

(1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

2)- Treatise de l'argumentation- P: 39.

وبعد ذلك يعلمنا الباحث أنه عندما يتضح لنا أن هذه التقنيات البرهانية تبدو على كل المسويات -سواء كان الأمر يتعلق بنقاش عائلي، أو بحوار جدي في وسط مهني متخصص أو بمحاجة إيديولوجية- وإذا كانت نوعية المستمعين الذين يؤيدون بعض البراهين في مجالات التخصص الدقيق هي ضمان قيمتها، فإن أبنية البراهين المستخدمة في المناقشات اليومية هي التي يجعلنا ندرك سبب وكيفية فهمها⁽¹⁾.

ومن منظور المناطقة والفلسفه أن ما يميز البلاغة الجديدة هو أنها "منطقية" لا "تجريبية"، فنظرية البرهان التي تهدف إلى بحث سبل التأثير عبر الخطاب بشكل فعال في الأشخاص، كان يمكن أن تدرس كفرع من علم النفس، وعندئذ تحول إلى موضوع يتصل بعلم النفس التجريبي، حيث نضع موضع الاختبار مختلف البراهين أمام مجموعات متنوعة من المتلقين الذين يتم اختيارهم بطريقة منتظمة، كي نستطيع استخلاص بعض النتائج الهامة من هذه التجارب⁽²⁾.

غير أنها نلاحظ أن موقف الفيلسوف المنطقي يختلف عن موقف عالم النفس، فالبُون شاسع جداً لأنَّه لا يمكن لنهج المعلم أن يحدد قيمة الحجج المستخدمة في العلوم الإنسانية؛ لذا يصرح بيريلمان بأنَّه يستلزم عمل المناطقة، ويَتَّخِذ منها حججهم التي أعطت ثماراً جيده من ذقرن تقريباً⁽³⁾.

1)- Treate de l'argumentation- P: 39.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

3)- المرجع نفسه، ص: 77.

وهو يعلن عن تصريحه هذا بقوله: "إنّ المنطق قد استطاع أن يظفر بدفعة، قوية منذ منتصف القرن الماضي، عندما كفَّ عن تكرار الأشكال القديمة، وأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل. فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسّس باعتباره دراسة لوسائل البرهان الرياضي، لكن مجاله ظلّ محدوداً، مما يدفع المناطقة إلى استكماله بنظرية برهانية، وهذا ما نهدف إلى وصفه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية"⁽¹⁾.

ونحن لذلك، كثيراً ما يكفي أن نصف خطاباً بأنه "بلينغ" لكي نسلبه فعاليته. إنّ كثيراً من كتب البلاغة والخطابة التي تعدد إجراءات الإقناع توصف بأنّها مصطنعة أو شكلية أو لفظية، وهذا بحدنا كما يقول "بيريلمان" حيال هذه المجموعة من الثنائيات المتعادلة.



هذا التدلي في قيم الخطاب التأملي الذي يتم تلقيه باعتباره إجراءاً يجعلنا نفضل الخطاب العفواني غير المعد مهما كانت نوافقه⁽²⁾.

وتساؤقاً مع هذا يرى "بيريلمان" أنّ الإجراء هو طريقة العمل من أجل الوصول إلى نتيجة بين إجراءين إحداهما طبيعي، والآخر مفتuel (مصنوع)، فكثيراً ما تكون الدموع الكاذبة لاستدرار العطف، والمحاملة (المدح) بعرض العطاء أو النفاق لما للفظ من سحر كما سبق الذكر.

1)- Treatise de l'argumentation- P: 41.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

II-1-2: موقف المتلقى إزاء الخطيب:

يتم تلقي الخطاب باعتباره إجراءً عندما لا نشعر بأنه منبثق من موضوعه، فال المستمع عندما يتحاور مع الخطيب في احترام القيم الممجددة والإعجاب بها، يندر أن يحكم عليه باعتباره مستخدم إجراء بلغ، لكن من لا تعنيهم هذه القيم لا يرونها بنفس الطريقة، وكثيراً ما يعلق المستمعون "إتها مجرد كلمات" لإدانة الآخرين لما يبذلو في خطابهم من فراغ وخلوًّ من القيم التي يعتقدون بها، كما يمكن أيضاً أن نشعر بهذا الانطباع، وبأننا حال إجراءات بلاغية في حالة الاتفاق على القيم عندما يبدو أن الخطيب يتّخذ قواعد وتقنيات لا تتوافق بشكل طبيعي مع الموضوع لشدة أناقتها واتساقها⁽¹⁾.

II-1-3: كيف تتفادى دسم الخطاب بأنه مجرّد إجراء؟

يرى صلاح فضل، أنه يمكننا الوصول إلى هذا الهدف بتأكيد أن الخطاب نتيجة الواقع، وأيضاً بجموعة من التقنيات التي تؤدي إلى تفادي إثارة الانفصام بين الشكل والمضمون، مع ضمان عدم إمكانيته على أن الطريق الصائب لذلك، هو ملائمة الأسلوب للموضوع، كما يتصوره المستمع أو المتلقى بصفة عامة، فالملازمة كثيراً ما تؤدي إلى تفادي هذا الانفصام، وتقوم العناصر التي يمكن تأويلاً لها بأنها علامات على العفوية بدور فعال في تلاؤم الأسلوب مع الواقع وزيادة درجة الاقتناع به⁽²⁾.

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

2) - المرجع نفسه، ص: 79 - 80.

وينتهي "بيريلمان" إلى نتيجة مفادها إنّه لا يوجد أدب بدون بلاغة على أنّ نفهم من هذا المصطلح فن التعبير، لكن أدوات هذا الفن تفقد فعاليتها بقدر ما يتم تلقيها باعتبارها مجرّد إجراءات بلاغية، فالقيمة البرهانية لا تتعرّض للإهانة ما دام منتج الخطاب يعطي إيحاءً قوياً عن نفسه وعن الأشياء، ويقدم لها صورة لا تتحمل المستمع على الفصل بين الإجراء والواقع، وقد تكون علامات الارتباك والصدق مفيدة لتفادي هذا الفصل، وكل مظاهر النقص التي تبدو ضارة للوهلة الأولى بالنسبة للتأثير البرهاني، يمكن أن تصبح مفيدة له، وفي مقدمتها دلائل الارتجال والعفوية الصلاقة⁽¹⁾.

ويبدو أنّ مبادئ هذه المدرسة تسهم بشكل فعال في الحدّ من غلواء التحليلات الشكلية، وتشير إلى ضرورة الاهتمام بالوظيفة على المدى البعيد في الخطاب برمتّه.

ومن خلال برنامج "بيريلمان" البرهاني نقف عند فكرتين محورتين لعلاقتهما الوثيقة بالفرض التفسيري لفهم أهم الأشكال الأدبية، ولما هما من أهمية في توضيح معالم هذه البلاغة الجديدة، أو هما: فكرة القياس (Analogie) ودوره في الأبنية البرهانية.

فالقياس عند "بيريلمان" يعدّ نقلًا للبنية والقيمة معاً على أساس التفاعل الذي ينجم عن الرابط بين المقيس والمقيس عليه، وإن كان يؤثر بشكل أوضح على المقيس، فإنه يؤثر أيضًا على المقيس عليه، هذا التأثير يتجلّى بطريقتين: من

1)- Treatise de l'argumentation, P. 688.

خلال البنية وعبر انتقال القيمة المترتبة عليها، وبهذا فإن الأقىسة تلعب دوراً هاماً في عملية الابتكار وعمليات البرهان معاً⁽¹⁾.

ومن وجة النظر البرهانية، يجب أن يظل القياس في دخل حدود لا يتجاوزها إذا أريد به دعم فكرة معينة أو انطباع خاص وكثيراً ما تكون تنمية القياس تعزيزاً لقيمتها، غير أنها قد تعرّض المتكلم لخطر الهجوم من قبل المتلقى بعبارة بسيطة لكنها قاتلة "القياس مع الفارق"⁽²⁾.

والفكرة الثانية هي فكرة ربط الأبنية النحوية بحالات المجتمع وحركته، وبهذا الصدد يشير "بيريلمان" إلى أنّ لغة بعض المجتمعات المتراتبة تعتمد على الحثّ والتحريض، وقواعدها ونحوها لها طابع سحري مقدس، بحيث يبدو أن الرموز اللغوية لا تمثل الأشياء، بل تحول هي ذاتها إلى أشياء؛ إذ تختلّ مكاناً

محليّاً في سلم القيم، وتسيّم الشعائر بمن مستواها الخاص، بينما نجد اللغة في المجتمعات الديموقراطية ملكاً لكل الناس، تتطور بحرية تامة، ويتم تحسينها وتشييدها

في المجتمعات التراتبية، بحيث تكتسب التعبيرات والصيغ طابعاً شعائرياً، إذ يتم تداولها في مناخ من الاتصال والخضوع الشامل، ومع ذلك يكفي أن لا تكون هذه الصيغ إجبارية وأن لا تسمح بنفس روح الاتصال لكي تحول إلى مجرد عبارة مصكوكة⁽³⁾.

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 81.

2)- Treatise de l'argumentation- P: 68.

3)- Ibid, P: 264.

وصفة القول، إنَّ هذه الملاحظات الفلسفية التي آثارها "بيريلمان" حول اللُّغة أعادت الاعتبار للبلاغة، وأسهمت بشكل فعال في إثارة قضایاها الجوهرية، حيث استفادت البلاغة من معطيات المنطق الحديث وشارفت أفق علوم الاتصال الجديدة.

II-2- الملامحة البنوية العامة:

تبلور هذا الاتجاه في عقد الستينات من هذا القرن في كتابات مجموعة من النقاد البنويين من المدرسة الفرنسية والألمانية حتى أعلنته جماعة "M-Group" في بحوثها المتالية⁽¹⁾.

ويلاحظ الدارس أنَّ هذا الاتجاه يتميَّز بعدد من السمات، أبرزها قطعاته الفعلية مع التقاليد البلاغية القديمة، وغلبة الطابع غير التاريخي عليه، وارتباطه الوثيق بالتجربة الشكلية، واتخاذ مبادئها وسيلة لإضفاء الطابع العلمي، لا الإيديولوجي على بحوثه، بعد تغيير المنظور العام بانتصار البنوية وما يبعدها، خاصةً عندما قام علم اللُّغة بدور العلم القائد، وتزعم في الثقافة العربية المعاصرة الاتجاه المحدَّد إلى التحليل التقني مما برزت معه "العلامة-Signe" باعتبارها نقطة البدء في استكشاف الرسالة طبقاً للمفهوم المتداول في علوم الاتصال الحديثة⁽²⁾.

وبناءً لذلك فقد اهتم أنصار هذا الاتجاه بتحليل علاقات الأجزاء الخمسة المعروفة في البلاغة وهي: الأغراض، والترتيب، والعبارة، والذكرة،

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 82.

2) - المرجع نفسه، ص: 82 - 83.

وال فعل بنظائرها في النظام اللغوي الحديث، وذلك عن طريق التمييز بين عمليات التلفظ، والعناصر الثلاثة الباقية هي اللفظ ذاته، كما أن هناك من ربط مفهوم الغرض البلاغي بالمستوى الدلالي، ومفهوم الترتيب بالمستوى النحوي، وجعلوا العبرة قاصرة على المستويين الصوتي والصريفي⁽¹⁾.

ولقد عمدت البلاغة العامة إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على أسس جديدة، باعتبارها تحولات أو انحرافات، تتضمن تصورات عديدة، وتميّز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التحولات: إحداهما تتصل بجوهر المادة والأخرى بعلاقتها، فال الأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحول، والثانية تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقتها، وهم لذلك يصفونها بالطريقة التالية⁽²⁾:

II-1-2- العمليات الجوهيرية:

إن هذه العمليات لا يمكن أن تتم إلا بشكليْن؛ أحدهما حذف الوحدات، والثاني إضافة وحدات جديدة، وبفضل آليات التركيب، نجد أن أي تحول ظاهر يعود في نهاية المطاف إلى عمليات حذف أو إضافة لبعض الوحدات، ومن الممكن تصور عملية حذف مزدوجة؛ يتم فيها إجراء الحذف والإضافة معاً.

1)- Del formalis ma a la neoretorica, P: 202.

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

(2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

ولعل هذه العمليات تذكّرنا بقول الجرجاني في باب الحذف "...فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيّب به موضعه، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنّت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به"⁽¹⁾.

والحذف كما يشير إلى ذلك الجرجاني لا يتم فقط كمقولة نحوية، بل يأتي لدواعي قوله معينة، ويتم كذلك الحذف في الموضع والحال الذي ينبغي فيه كي يؤدي المعانى التي تقتضيها الشروط التداوليّة (النفعية) حتى يحصل تأثير القول الذي فيه حذف إلى تحريك نفس السامع⁽²⁾.

II-2- العمليات العاملئية:

يُعدّ هذا النوع من أبسط العمليات وذلك أنها تقتصر على تغيير النظام الأفقي للوحدات دون أن تؤدي إلى تعديل في طبيعتها، وهذا ينتج في الواقع نوعاً من "التناوب" أيّاً كان النّمط الذي ينتهي إليه، فهو ينحصر في تغيير ترتيب النظام السياقي لسلسلة الكلام المنطوق أو المكتوب⁽³⁾.

واعتماداً على هاتين المجموعتين ألفينا البلاغيين الجدد يقومون بتحليل مستويات التغيير على عدّة محاور؛ التغيير النّفسي، والتركيبي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة بينها وهم لذلك يرون أن التغيير النّفسي إنّما هو عملية

1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، خزائر، 1991، ص: 153.

2)- إشكالات التواصل والمحاجج، ص: 96.

3)- Rétorica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983, P: 91.

- نقاً عن: بلاغة الخطاب وعلم النّص، ص: 84.

تؤدي إلى تعديل التدفق الصوتي أو الاسترسال للرسالة، أي تغيير شكل الرسالة من حيث إنها ذات مظاهر صوتية أو خطية. وينجم هذا التعديل في التدفق الصوتي بتغيير حرف أو أكثر، الأمر الذي يجعلنا نفضل اندماجه في الوحدة الأعلى منه⁽¹⁾.

وهكذا، فإن تسلسل الأصوات دون أن يكون لأي منها فرصة الدخول في علامة لغوية، يعتبر تغييراً لفظياً لكنه لا يمكن تعريفه إلاّ من الخارج، قياساً على تسلسل صوتي آخر، يدخل بوضوح في وحدات أعلى ذات كيان قائم من قبل، وهذا يظل من المهم أن تظهر هذه الوحدات العليا، وهي الكلمات المكونة من حروف ومقاطع.

وفي هذا السياق نجد البلاغيين يهتمون بالجانب الصوتي المنطوق والمكتوب لهذه الكلمات، باعتباره داخلاً في الصورة التي يكرهها المستكشم عن لغته، كما يوضح المنظور الذي يتخذونه أساساً بالنسبة للجسم اللغوي وذلك باختيارهم لثلاثة مستويات متراة⁽²⁾.

- أولها ما يطلق عليه "ما تحت اللّغوي" وهو مستوى الخواص الخلافية في اللغة، والتي لا تشكل بذاتها تعبيراً مثل: الجهر، والهمس، والأنفي، والثنوي، والحلقي في الصوتيات والأشكال الكتابية للحروف المستقيمة والممدودة، وطابعها في الرسم وخصائصها في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها وقابليتها للاتصال أو الانفصال وبقية تشكيلاتها الخطية المتنوعة.

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 84.

2) - المرجع نفسه، ص: 84 - 85.

- وثانيها ما يطلق عليه "المستوى الأولي" وهو المتعلق بالحرف وبمجموعاتها التي تشكل عناصر صرفية للعلامات أو تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات.

وثالثها هو "المستوى المركب" وهو المستوى الخاص بالتراكتيب أو مجموعات الكلمات والمتاليات المتماسكة التي تكون بدورها جملًا وفقرات تامة. ولكن هذا الطابع الطولي خاصةً، في المستويين الثاني والثالث لا يمكن تطبيقه إلا على الشعر؛ لأنّه يحدد الموقع بدقة تبعاً لعملية النظم التي تفرض مكاناً للوحدات، مما يجعله يتضمن شفرة إضافية لللغة توجب عليها أشكالاً لا تكميلية يتوقعها المرسل إليه كما يلاحظ في التغيرات اللّفظية والتركيبية⁽¹⁾. وهكذا، فإنه يمكننا معرفة أين تم عملية الإضافة أو الحذف، وذلك بالاستعانة على الشعر.

ثم إنّه إذا كان مستوى التغيير اللّفظي يحيل إلى الصوتيات والصرف فإنه يحيل كذلك إلى النحو عندما يتم التغيير التركيبي في الجمل. وعليه، فمن الصعب استبعاد جميع القيم الدلالية من مجال النحو، فعندما يضع النحاة مثلاً مراتب مثل النبي للمعلوم مقابل النبي للمجهول أو مرتبة المفرد مقابل المشنّ والمجمّع، فإن عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار جانب المعنى في تحليلاتهم، وإن كانوا لا يحتفظون له بنفس درجة الأولوية السابقة⁽²⁾.

1)- Retorica general- Groupe- U- P: 97

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85.

2)- Ibid P: 97

- نقلًا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

وخلاصة القول، إن النحو يظل يحتل مكاناً يسبح بين الصرف والمنطق والدلالة.

وهكذا عندما يكتشف "حاكمسون" (Jackobson) "أيقونياً" (Iconique) يتعلق بالرسم البياني في الظواهر النحوية فإنه يفضي بنا إلى منطق بنية الجملة، وكما يقول فإن ترتيب الكلمات في معظم اللغات المعروفة يستجيب لعوامل عدّة طبقاً لمنطق المعنى، كما يستجيب لتابع الأفعال طبقاً لترتيب الأحداث الزمني، و يجعل الأولوية للفاعل على المفعول لأنّه بطل الرسالة إلى غير ذلك من المراتب المحددة⁽¹⁾.

وهكذا نلاحظ أن الخطاب العادي لا يعني كثيراً بخلق توازنات منتظمة، فهو لا يبدأ في تشكيل هذه التوازنات إلاّ عندما يتعد عن الاستعمال المتوسط، ويسير في "الترتيب الجيد" للكلمات، وعندئذ يهدف إلى تحقيق غرض فعال وغريب عن الرسالة التي تتوجه مجرد التوصيل، لافتاً الانتباه إليها في ذهنه، ومبرزاً تميّزها التعبيري، مما يجعل إجراءات الاتساق الإيقاعي أشكالاً بلاغية بلا ريب⁽²⁾.

وإلى جانب التحوّلات اللفظية والتركيبية التي رصدها البلاغة البنوية العامة، هناك التغييرات الدلالية التي وصفت بأنّها الشكل الذي يؤدي إلى إحلال وحدة دلالية محل أخرى، هذه الوحدات التي تتجلى عادة في كلمات ومن خلال كلمات.

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85 - 86.

2) - المرجع نفسه، ص: 88.

II-3- طبيعة الاستجابة الجمالية للنص ووظيفته البلاغية من وجهاً

نظر البلاغة الجديدة:

يعود سبب تعقيد الظاهرة الأدبية حسب الباحثين إلى فكري الأثر والقيمة فيها، ومن هنا يمكننا التعرف على التأثير الجمالي باعتباره حالة عاطفية تشيرها الرسالة لدى المتلقى الخاص وتتنوع فاعليتها طبقاً لبعض العوامل التي يتصل بعضها بالمتلقى ذاته⁽¹⁾.

ومن هذا المنظور، فإن القيمة التي تعزى إلى النص ليست بالضرورة شيئاً كامناً فيه، بل يتمثل معظمها في استجابة القارئ أو السامع له؛ إذ أنّ هذا الأخير لا يكتفي بأن يتلقّى بياناً جمالياً محسوساً، لكنه يتأثر ببعض المثيرات وهذا التأثر في طبيعته تقييم.

يستنتج مما سبق أنّ فكرة التأثير ذات طابع سيكولوجي في المقام الأول عندما نتحدث عن الأعمال الأدبية وكذلك فكرة القيمة، لكنها تنزع إلى المرتبة الثانية من وجهة النظر المعرفية⁽²⁾.

ولقد استطاع "ريفاتير" (Riffaterre- M) أن يميز في إجراءاته التحليلية بوضوح بين المثيرات والأحكام الناجمة عنها، إذ أنّ الخصائص الجمالية التي تعزى لبعض الواقع لابدّ من عزّلها عن ردود الفعل السيكولوجية التي تشير، لأنّها

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 95.

2)- المرجع نفسه، ص: 96.

يعرفون البلاغة بأنّها "فن القول بشكل عام" أو "فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ" مما يجعلها مجرد أداة نفعية ذرائعة⁽¹⁾.

يقول الباحث الألماني "لوسبرج" (Laus berg- H): "إنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية والبلاغية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد"⁽²⁾.

أمّا "ليتش" (Leitch, V) فإنه يرى بأنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلّان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما، ولذلك فإنّ البلاغة والتداولية البراجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لمارسة الفعل على المتلقى، على أنّ النصّ اللغوی في جملته إنّما هو "نصّ في موقف" مما يرتبط لا بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه فحسب، وإنّما بالنظر إلى تلك التعديلات التي في سلوكهما أيضاً⁽³⁾.

ولكن هذا الاعتقاد قد يجعل من كل شيء بلاغة، انطلاقاً من أنّ لكل شيء أهدافه النفعية، لذا فإن دارسي التداولية يرون أنه من الأنسب تضييق مجال دلالة البلاغة؛ لأنهم يفهمون التداولية اللغوية الآن كتنظيم غير مخالف لعلمي الدلالة والنحو وكلّ في المستوى المناسب؛ إذ أنه يقوم بجمعهما في مستوى ثالث

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

2)- Del Formalisma a la neoretorica, P: 196.

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

3)- Ibid; 196.

- نقلًا عن نفس المرجع، ص: 98.

بالنسبة للدرس اللغوي مجرد مؤشرات بغض النظر عن قيمتها الإيجابية أو السلبية⁽¹⁾.

وانطلاقاً من هذا الرأي، فإنّ الأثر الرئيس للمجاز عندهم إنما هو إطلاق عمليات التلقي الأدبية للنص الذي يدخل فيه معناها الواسع، إذ يكشف حينئذ عن الوظيفة الشعرية التي تحدث عنها "جاكسون" والتي يفضل هؤلاء الباحثون أن يسمّوها بلاغية، هذه الوظيفة التي تركّز على الرسالة، بما هي رسالة في دواهها ومدلولاتها، وتبرز بشكل محسّم الجانب الملموس للعاملات اللغوية⁽²⁾.

وبعد هذا، فقد لاحظ "تودوروف" أنّ الخاصية الوحيدة المشتركة بين جميع الأشكال البلاغية أنها كلّها "محوّفة Opaque" أي أنها تنزع إلى أن يجعلنا نتلقي الخطاب، ذاته وليس دلالته فحسب.

هذه، إذاً بعض مبادئ الاتجاه البنوي للبلاغة الجديدة في سياق عرض بعض النظريات.

III- التحليل التداولي للخطاب:

إنّ المهمة الأولى حسب أنصار هذا الاتجاه لتحديد علاقة البلاغة بالتداولية (Pragmatique) هي تعريف مجال كلّ منهما خاصةً أنّ هناك بعض التعريفات الموسعة المرتبطة التي تساعد على التحديد العلمي الدقيق وذلك مثل من

1)- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، جدة، 1988، ص: 248.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 96.

خاص بالسياق المباشر، مما يجعل التداولية قاسما مشتركاً بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية⁽¹⁾.

وعلى العموم، فإن التداولية هي المعرفة الشاملة بالآخر والمعرفة العميقة بمكونات عملية التخاطب، أو هي كما يحدّدها "فكوني" جزء من العلم المعرفي، باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقى أو الفيزيائى، وعالم اللغة، وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكى، وإنما تعمل اللغة على تحسيد سيرورة البناء المعرفى الواسع للعالم⁽²⁾.

ويُبيّن أن سيرورة البناء المعرفى لا يمكنها أن تعكس العبارات التي يتشئها الإنسان، ولا العالم الحقيقى الذي تغير قضاياه صورة للتعبير اللغوى، وإنما تنحى في اتجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتعل وفقها الأنظمة السيكولوجية والذهنية.

فاللغة باعتبارها ميكانيزم ما سيكولوجيا تتقاسمها ذهنية متنوعة (تركيب، استنباط، استنتاج، مجاز، معجم، ...).

تشتعل وفق عمليات تفكيكية واستنتاجية، وهي عمليات أصبحت تُعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية بعدها كانت تدرس داخل النظام التواصلى الذى تحكمه قواعد النقل⁽³⁾.

1)- Del Formalisma a la neoretorica, P: 196.

- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 14.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يستنتج من هذا، أن التداولية هي العلم الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، كما يعني بتحليل وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، هذا العلم الذي أخذ ينمو في العقود الثلاثة الأخيرة والذي تغذيه -حسب طبيعة "غير تخصيصية" جملة من العلوم أهمها الفلسفة، وعلم اللغة، والأنثروبولوجيا وعلم النفس، وكذا علم الاجتماع⁽¹⁾.

ومن أجل ذلك، يعني التداوليون بالإقتراب من الخطاب كموضوع خارجي، أو كشيء يفترض وجود فاعل متج له، وعلاقة حوارية مع مخاطب أو مرسى إليه.

ومن وجهة النظر الألسنية، فإن فكرة الفاعل ضرورية لتابعه تحولات اللغة في الخطاب وعلى العكس من ذلك ما نراه من وجهة النظر العملية المتصلة بالفواضل المتكلمين التي ترى بأن اللغة ليست نظاماً وحيد الاتجاه، ولا الفاعل المتكلم وحده شخصية أو فرداً معروفاً في ممارسته القولية على الرغم من أنّ كلاً من اللغة والمتكلم يمثلان الأساس الضروري لنظرية اللغة والأسلوب.

ففي علم اللغة نجد أنّ تصور الفاعل المتج للخطاب تقترب به ملاحظة حضوره في هذا الخطاب ذاته، فالفعل الفردي ليمتلك اللغة يدخل المستكمل في كلامه وهذا اعتبار يعدّ جوهرياً في تحليل الخطاب، إذ أنّ الخطاب هو المكان الذي يتكون فيه فاعله ومن خلال هذا الخطاب فإنّ الفاعل يبني عالمه كشيء ويبني ذاته أيضاً.

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 25.

وعلى هذا الاعتبار، لابد من الإشارة إلى أهمية هذا الأزدواج في فكرة الفاعل الذي يعتبر منتجا للخطاب، وناتجا عنه في الآن ذاته؛ حيث يتمثل وجوده فيه، سواء كان واقعا تجريبيا مثل مؤلف النص، أو مرسل الخطاب القائم تاريخيا، وشخصيا أو كان تكوينا نظريا في إطار علم اللغة طبقا للأصول المعرفية المنشقة عنها⁽¹⁾.

وهكذا، يعرف الفاعل من خلال خطابه، وتعتمد نظرية الخطاب على تصوّرها الخاصة المتتجانسة، ويشمل التحليل النصي موقف الفاعل الداخلي تجاه قوله.

وانطلاقا مما ذكر، فإن النص يقدم دائما باعتباره "موسوماً" (Marqué) أو "غير موسوم" بطريقة شخصية أي أنه يتصل بفاعل يتجلى فيه، معبرا عن رأيه أو وجهة نظره، مشيرا إلى تجربة أو حدث متعلق به ذاته، وعنده يصبح النص موسوماً، أو متضلا بواقع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وعنده يكون غير موسوم؛ هذان الوضعين الأساسيان للخطاب بكل ما يدخلهما من تعديلات وتدخلات يتحلىان نصيا من خلال العوامل التالية⁽²⁾:

- مؤشرات الشخص والمكان والزمان.
- كيفيات القول التي تحدّده مثل: موقف التأكيد واليقين، أو الشك والاحتمال.

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

2)- Analisis del discurso, lozano, Jorge penaquarin, Grisixa, Abril- Gouzalo- Madrid- 1986- P:89.

- نقل عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 99.

- مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنما يوقف القائل مما يقوله، ويدخل في ذلك العناصر اللغوية الذاتية أو الخارجية التي تحدد الموقفين.

وبناء على هذه العوامل قسم التداوليون الخطاب إلى نوعين كبارين: خطاب مباشر وآخر غير مباشر وهم لذلك "يعتبرون إدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر يعدّ أقصى درجة من الموضوعية بقدر ما يتلزم عموماً بالنقل الحرفي دون تحريف حتى إن بعضهم يعتقد أنه يمكن أن يصل الخطاب الذي يستخدم هذه الطريقة إلى نسبة 100% من الموضوعية"⁽¹⁾. لكن هذه الموضوعية التي قال بها التداوليون قد لا تتطابق تماماً مع الخطاب وتوضيحاً لحالات الخطاب المباشر، يعرض الباحثون بعض الأمثلة والأشكال الخاصة به وهي كالتالي:

- يمكن استخدام كلمات شخص آخر لكي يعبر الإنسان عن نفسه دون أن يغفل أن هذه الكلمات صدرت عن شخص آخر، ويمثل هذا الشكل حالة النصوص المقطعة من المؤلفين الذين يحتاجون بأقوالهم، أو يعتمد على سلطتهم الأدبية⁽²⁾.

وكتنموذج لهذا الشكل أن ينطق من يريد الانتقام بعبارة العين بالعين، والسن بالسن والبادئ أظلم".

1) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 100.

2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أو كعبارة التهديد والوعيد الخاصة بالحجاج: "إني أرى رؤوسا قد أينعت، وقد حان قطافها، وإن لصاحبها".

على أن استخدام هذه العبارات الجاهزة يجعلنا أمام قائلين: القائل المقدس وهو صاحب العبارة الأصلي، والقائل الفعلي الذي يقوم بالانتقام أو التهديد، أي الذي يتقمص شخصية القائل المقدس، متمثلا بكلماته، متكتعا على سلطته ومعانيه.

وفي أحيان أخرى يُراد بالخطاب المباشر مجرد نقل الخبر، ولكن حتى هذه الظاهرة لا يمكنها أن تتصف بالموضوعية التامة، لأن القائل ناقل الخبر قد يضفي عليه نسخة من الغضب أو السخرية، أو نيرة هكمية دون تغيير الكلمات ذاتها⁽¹⁾.

وبتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الأشكال الخاصة بالخطاب المباشر وعلى رأسها استخدام عبارات الغير، تحيل إلى تحليل النصوص الأدبية التي أضاءها "بانختين" (Bajtin, M) ببحثه، وتابعتها "كريستيفا" (Kristeva-) بتعديقها لمفاهيم "النهاي" أو ما يسمى "بالتناصية".

أما القسم الثاني من أشكال الخطاب الكبرى فهو الخطاب غير المباشر والملاحظ، أن هذا الخطاب يتولد من امتصاص خطاب الآخر وأدائه بطريقة غير

1)- Analysis del discurso, P.149

- نقل عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 101.

حرافية، مما يتطلب تحويل أزمنته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراته كي تنسق في اتجاهاتها وإحالاتها الأمر الذي يجعله مختلفاً عن الخطاب المباشر⁽¹⁾. وهكذا، فإن القائل في هذا القسم من أشكال الخطاب يقوم بإعادة صياغة الكلام الذي ينقله متوكلاً على الدقة والحذر في نقله حيناً، أو إيجازه واقتطاع بعض أجزائه حيناً آخر؛ مستخدماً كلماته هو ليؤدي بها ما قاله المتكلم المنقول عنه، فتتصبح تلك الإشارة والأزمنة التي قام القائل بتغييرها أقل موضوعية وحياداً من الخطاب المباشر⁽²⁾.

يستنتج من هذا، أنّ القائل يدمج خطاب الآخر في خطابه هو، وينقله إلى موقفه القولي، فيصبح المتكلم الأول شخصاً غائباً ويتحول المضارع الذي استخدمه المنقول عنه إلى ماضٍ في عبارة المتكلم الثاني، أي إن إعادة الصياغة غالباً ما تتضمن الإبقاء على بعض عناصر القول الأول من تعبيرات مميزة وعلامات تعجب أو استفهام أو ترجيحات وتكرار، وروابط استدلالية وسببية وإشارات أخرى لغوية من قبيل الخطاب المباشر الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تداخل الفواعل⁽³⁾.

1)- Analysis del discurso, P: 151.

- نقاًلا عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 102-103.

2)- Ibid, P: 151

- نقاًلا عن المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- Ibid, P: 151.

- نقاًلا عن المرجع نفسه والصفحة نفسها

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يشير التداوليون إلى ظاهرة أخرى، هي ظاهرة "التباعد" (Distance)، فعندما يعمد المتكلم إلى اتخاذ موقف لا يدل على التبني الكامل لما يقول، فإن هذا يؤدي إلى خلق مفارقة واضحة، وقد يتم ذلك عن طريق العلامات التنصيص أو غيرها، مما يجعلنا نتساءل: هل هناك دائمًا استيلاء على كلمات الآخرين، أو إشارة إليها كموقف مقابل يدل على التباعد عن الكلمة الخاصة⁽¹⁾.

وإذا كان تيار تحليل الخطاب التداولي قد أفاد في الآونة الأخيرة من مبادئ السيميولوجي فذلك أنّ وصف التوظيف السيميولوجي لا يتأتى عن طريق تحليل المكونات المعجمية والجملية، وإنما عن طريق البحث في الخطاب بأكمله، وإذا كان اللّغويون قد تعودوا أن يتقلّوا من الأصوات إلى الكلمات ثم إلى الجمل، فقد شرعوا في الآونة الأخيرة في التدرج نحو الخطاب ثم منه إلى الطبيعة والعالم.

وعموماً، فإن الخطاب من هذا المنظور يظل هو الأولى بالعناية باعتباره نمطاً من الإنتاج الدال، يحتل موقعاً محدداً في التاريخ، ويشغل علماً بذاته كان يسمى "البلاغة" من قبل⁽²⁾.

ولكن هذا الخطاب الذي ظل ردحاً من الزمن يسمى "بلاغة" لم يصدّم أمام ما اعتبره من تحولات معرفية أسهمت فيها البحوث السيميولوجية،

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 103.

2)- Analysis del discurso- P: 36.

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

والتحول إلى ما يسمى اليوم "علم النص" (Science du texte) وعليه، فلتنا عندما نشغل بهذا الخطاب النصي ونصف طريقة قيامه بوظائفه، فإننا نلاحظ أن النظم البنوية التي تكونه تتصل من الوجهة التداولية بظروف إنتاجه، مثلما تتصل مشكلات فهمه وقراءته⁽¹⁾.

وفي النهاية نخلص إلى أنَّ النص ينبع معناه بالتكيف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة للنص لا بالانتقال من الجزء إلى الكل.

IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب

النطاق:

إن عملية الفهم تشكل دائرة مغلقة تحكمها قوانين محددة خاصة بها، بينما تتسع عملية التفسير لقضايا أخرى تحكم بها عوامل متباعدة وفي حين لا يتطلب فهم الوحدة اللغوية مهارات خاصة، فإنَّ عملية التفسير تحتاج إلى مهارة إضافية، وعلى الرغم من اكتناع علماء النفس بأنَّ الاتصال التفاعلي لا يقتصر على الفهم فقط، بل يتعداه إلى مرحلة التفسير فإنهما قد أدمجا في بوتقة واحدة، يشار إلى تحقيقهما بنجاح عملية الاتصال التفاعلي⁽²⁾.

ونظراً لأهمية عملية الفهم، فقد بدأ التحول في مجال علم النفس المعرفي خلال الفترة الأخيرة من تحليل فهم الجملة إلى فهم النص/الخطاب. ويلتقي علم

1)- Analisis del discurso, P: 36.

- نقلًا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، د. فلاح شبيب العجمي، علم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والأداب، دولة الكويت، المجلد 28، العدد 01، يوليو/سبتمبر 1999، ص: 346-347.

اللغة بعلم النفس المعرفي في الجانب الدرعي (المقصدي)، لكون التحليل اللغوي بحاجة إلى نواح غير ظاهرة في الخطاب، ومحال وجودها هو التحليل النفسي لذلك بذلك - كما يقول محمد مفتاح - محاولات للخروج بها من ميدان علم النفس إلى مجال اللسانيات⁽¹⁾.

IV-1- تحليل حملياته القلقي وتأثيرها:

يتبع على الدرس البلاغي للخطاب أن يتبنى منهج اللسانيات الوصفية، ببعده الديناميكي المفتوح، محاولا تحديد الأشكال اللغوية المناسبة في النص دون إغفال للمحيط الذي وردت فيه، وذلك للكشف عن الاطرادات الظاهرة ووصف حركتها.

فمحل الخطاب يعتبر الكلمات والعبارات والجمل التي تظهر في المدونة النصية لخطاب ما، دليلا على محاولة المنتج، توصيل رسالة إلى متلقي، مما يجعله يعني على المخصوص ببحث كيفية وصول متلق ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل المنتج في مناسبة معينة. وكيف أن متطلبات المتلقي المفترض تؤثر في تنظيم خطاب المنتج، وتتحذ هذه المقاربة الوظيفة التواصلية مجالا أوليا للبحث، وبالتالي تسعى إلى وصف الشكل اللغوي ليس كموضوع ساكن، وإنما كوسيلة منظمة دينامية للتعبير عن الدلالة المقصودة⁽²⁾.

1) - دينامية النص (تنظيم وإنجاز)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص: 38.

2) - بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 127.

وتتساوقا مع هذا، يتمثل حكم القيمة في التعبير بشكل ظاهر أو ضمني عن مدى الرضى والارتياح الجمالي للوظيفة التي يقوم بها النص، أو الضيق بها والتبرّم منها. فهو يفترض سلماً من القيم يصعب قياسه علمياً حتى الآن؛ لأنّه يرتبط بمتغيرات كثيرة ذات طابع نفسي واجتماعي وثقافي، يمكن أن يكون خاضعاً لتأثير أنظمة قيمة أخرى أخلاقية ودينية وسياسية ماثلة لدى المفرد المتلقى شعورياً أولاً شعورياً والدراسة المعمقة للاستجابة الماثلة في حكم القيمة تنتهي إلى مستوى آخر من البحث الذي يتطلب منهجية وتصورات مختلفة عن تلك التي تقوم بتنميتها البلاغة والأسلوبية⁽¹⁾.

ومن هذا الجانب يرى "بيريلمان" أن التمييز بين أحكام الواقع وأحكام القيمة لا يمكن أن يكون مطلقاً؛ لأنّه يعتمد على درجات مختلفة من الكثافة والتدخل في كثير من الأحيان اعتماداً على المفهوم الجديد للتّأويل الذي يرى "هانز جورج غادامير" أنه "يتّمث في التركيز على الوحدة الوثيقة بين اللغة والفكر باعتبار هذه الوحدة هي الفرض الذي تنطلق منه الألسنية وتُصبح بفعله علماً... فعن طريق تحليل الظاهرة التّأويلية؛ نجد أنفسنا في مواجهة الوظيفة الكلية للفعل اللغوي، وفي انكشافها تمتلك الظاهرة التّأويلية مدلولاً كلياً"⁽²⁾. على أنّ أكبر تحدي واجهته التّداوليات المعاصرة منذ مطلع الثمانينيات، تمثل في وصف عملية التّأويل (التفسير) التامة للقول، نظراً للإشكالات التي

1)- Discourse Analysis, G.yule brown, Cambridge, 1983-P. 245.

- نقلًا من بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 128.

2)- فن الخطابة وتأويل النص ونقد الايديولوجيا، هانز جورج غادامير، ترجمة: نخلة فريفر، مجلة العرب

وال الفكر العالمي، بيروت، 1988، ص: 34.

بدأت تظهر وتطرح في مختلف مجالات العلوم التواصلية حيث تعددت المناهج والمقارب النظرية في محاولة لسد الفراغات وضبط المفاهيم وتحديد الآليات، وذلك كله بغرض الوصول إلى نتائج تلائم التطورات التي عرفتها المجالات التواصلية الآلية (الحاسوب، والعقول الالكترونية، والانترنيت،...).⁽¹⁾ وهكذا، توزعت جهود التداوليين بين مقاربتيين لوصف عملية التأويل⁽²⁾:

- المقاربة الأولى: تتعلق بتأويل جزئي للجملة، وانطلاقاً من المكونات الداخلية (تركيب، دلالة، فونولوجيا) وتندرج داخل التأويل اللساني.
- المقاربة الثانية: ويتعلق التأويل بإسناد مرجع معين لمختلف الحدود الداخلية للقول على أنّ المرجع يشير بصفة عامة إلى أشياء العالم، وتندرج هذه المقاربة داخل التأويل التداولي.

وممّا يلاحظ، أنّ هاتين المقاربتيين غير متكافتين على مستوى التحليل؛ لأنّ ما يمكن أن تتحققه، يمكن أن يكون متشابهاً في بعض أجزائه بالنظر إلى الدلالة أو المعنى أو المرجع، وهي عناصر لا تخرج عن الهدف والغاية من كل تأويل للقول؛ وهكذا فإن الإشكال الذي طرح مع التداوليات منذ ظهورها هو: كيف يمكن الفصل بين عمليتي الفهم التي تكون أسرع، وعملية التأويل التي تأتي في مرتبة ثانية لتحليل أو معالجة الفهم⁽³⁾ الحصول بين المخاطبين.

1)- إشكالات التواصل والمحاجج، ص: 20.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972, P:133.

ولمعالجة هذا الإشكال، لابد من الإحاطة الشاملة لمفهوم التأويل، ثم إبراز التقاويم المختلفة لبعض النظريات التي تعرضت لعملية التأويل.

فمفهوم تأويل الأقوال هو عملية مرتبطة بواقع وحقيقة الأقوال؛ ذلك أن التأويل يفترض إجراءات تحليلية وصفية لعمليات كلامية، موجودة فعلاً، أي متحققة بفضل اللغة، التي هي نظام مزدوج: نظام من العلامات والرموز اللسانية، ونظام معرفي سيكولوجي وعلى هذا الاعتبار تطرح إمكانات إجرائيةان لمفهوم التأويل⁽¹⁾.

- الإمكانية الأولى: يكون للتأويل فيها موضوع واحد هو وصف عملية الفهم التي تتحقق عن طريق اللغة ووحدتها، وهذا الوصف ليس له أية علاقة بالحقول المعرفية الأخرى (نفسية، سياسية، ...).

- الإمكانية الثانية: يكون التأويل فيها مندرجًا داخل منظومة عامة للعمليات المعرفية التي تحقق الفهم، وهي منظومة تسمح بالإحاطة بكل الحقول المعرفية التي تدور في تلك الفهم الشامل للقول.

وبناء على هاتين الإمكانيتين ظهرت النظرية التداولية المعرفية التي أرسى قواعدها كل من "سبيربر" و"ولسون" في كتابهما "الإصائية" (Pertinence)، هذا الكتاب الذي ينطلق في تحليله لعملية الفهم من مجموعة من المبادئ والمفاهيم أبرزها مبدأ الملاءمة"⁽²⁾.

1)- Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972, P:133-140.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 22.

IV-2- مبدأ الملاعنة (الإصائية) :

هو مفهوم ذو خصوصية سيكولوجية، يعمل على اختيار ما يأخذ باهتمام المخاطبين وما يثير فيهم من أقوال وحجج فكل الكائنات البشرية تمتلك حدس الإصائية وذلك أنها تستطيع التمييز بين المعلومات الملائمة وغير الملائمة، على الأقل بالنسبة لسياق معين. ومن هنا فإن الفهم يمثل درجة الملاعنة لا وجودها أو غيابها فقط؛ ما دامت المعلومات المتعلقة بنظام من العتقدات ومندرجة ضمن هذا النظام وبالتالي فهي لا تتركه عارياً، وإنما تعمل على تعديلات معينة هي من مستويات مختلفة⁽¹⁾.

يسنترج من هذا أن دور المعلومة الجديدة من شأنه الرفع أو التقليل من درجة معتقدات النظام، أو التأكيد والنفي، مما يكشف عن بعض التضمينات السياقية التي بإمكانها أن تحرّك إلى معتقدات أخرى؛ تؤدي في النهاية إلى تفاعل المعلومة الجديدة بالمعلومة القديمة.

وعلى حد تعبير "بيريلمان" فإن مبدأ الإصائية ليس قاعدة، ولكنه يشتغل كمحرك لعمليات التأويل على مستوى النّظام المركزي للتفكير⁽²⁾، وبذلك فهو مختلف عن المبدأ الكرايسبي والمبادئ التي تفرعت عنه. باعتبار هذه المبادئ معايير وقواعد يجب على المخاطبين معرفتها بهدف تحقيق التواصل الفعال، وإن كان بالإمكان خرق هذه المبادئ، في حين أن الإصائية لا تتطلب من المخاطبين

1)- Dictionnaire critique de la communication, P: 894.

2)- Théorie de l'argumentation, P :25.

معرفة مسبقة، وبالتالي لا يمكن خرقها؛ لأنها موجودة مسبقاً عند كل الكائنات البشرية⁽¹⁾.

وهكذا، فإن الإصائية تعدّ مبدأً يكون أصلاً في كل تواصل، وهذا المبدأ مؤسس على التصور الاستدلالي والمعرفي، ومدعوم في الآن ذاته بأسباب سيكولوجية ومنطقية يصعب خرقها؛ ومن أجل ذلك تعتبر الإصائية قاعدة لفعل التواصلي بامتياز⁽²⁾.

وعلى الجملة، فإن النظريات التداولية التي ارتبطت بدراسات كل من "أوستين وسورل" و"كرييس وديكرو" كان من نتائجها أنها قلّصت من دور التحليل المنطقي اللساني، واتسع مجالها إلى التحليل الخارجي للأقوال، على اعتبار أن هذه الأقوال مرتبطة بالواقع الخارجي القابلة للتحقق، وأن الكلام مرتبط بالاستعمال العادي أي اللغة اليومية⁽³⁾.

ولعل العمل الجبار الذي قام به كرييس في تعقيد التخاطب، كان له الدور الأساس في تحديد المبادئ الرئيسية في عمليات المحادثة، وأشكال التواصيل بين المتخاطبين؛ هذه المبادئ التي ساهمت في إبراز القيمة التداولية للكلام، وأعطت مفهوماً جديداً للمعنى الضماني، والمعنى المعجمي، ولمعنى التأويل والفهم، وعالجت إشكالات المقامات والسياقات التي كانت تقف في وجه التحليل المنطقي التقليدي، معالجة أخذت بتوظيف نتائج العلوم المعرفية⁽⁴⁾.

1) إشكالات التواصل والمحاجج، ص: 34-35.

2) المرجع نفسه، ص: 35.

3) المرجع نفسه، ص: 22.

4) المرجع نفسه، ص: 23.

فالمعول عليه في العلوم المعرفية؛ هو أئتها تمثل تالفاً بجموعة من العلوم المستقلة، بعضها وصفي تحريري (علم النفس المعرفي، اللسانيات، والأنطروبولوجيا المعرفية) وبعضها نظري تطبيقي (الذكاء الاصطناعي) هذه العلوم التي تلتقي في استهدافها للعمليات الآلية التي يشتغل بها الذهن البشري؛ من تفسير، وتجمیع، وإنتاج للمعارف وتأویلها.

IV-3- أنواع الفهم:

ويوجد نوعان من الفهم: فهم إيجابي، يفترض كمّا كبيراً من الذكاء، ويعدّ مهمة غایة في التعقید وهو ما يمكن ما يسمى "البصيرة" (Insight)، وينشأ هذا الفهم عندما يصبح هذا الفهم مشكلة⁽¹⁾.

أما النوع الثاني فهو الفهم السلبي: وهو ما تتحققه أغلب الناس بسهولة فطرية، من ليس لديهم فهم إيجابي، أو ليس لديهم منه إلا القليل، فهذا الفهم شكل من "المعرفة الضمنية" أو "القدرة المعرفية" السلوکية، وهي إمكان الكفاءة لفعل الكلام، وهي باختصار "عادة" (Habit)، ومعلوم أن كل ما يمارسه الإنسان بقوة العادة يعمله بشكل طبيعي؛ أي دون إعمال فكر، فالعادة -إذن- توجد مقابل التفكير الوعي، ومن أجل ذلك يختلف "الحدس العام" (Commonsense)، من زمن آخر، ومن مكان إلى غيره، فهو ليس "طبعياً" بل "ثقافي" لأن العادة ثقافة ونوع من الطبيعة الثانية، لذا يعطيحدث العام قالباً

1) مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 375.

تكوينياً جاهز الصنع، الشيء الذي يمكن بواسطته تفسير الواقع والأحداث اليومية⁽¹⁾.

ولعل هذا ما ذهب عليه "ابن رشد" في كتابه "فصل المقال" حينما قال: "ولما كان مقصود الشرع تعليم الحق والعمل بالحق، كان التعليم صنفين؛ تصوّراً وتصديقاً، كما يبيّن ذلك أهل العلم بالكلام. وكانت طرق التصديق الموجودة للناس ثلاثة؛ البرهانية، والجدلية، والخطابية. وطرق التصور اثنين؛ إما الشيء نفسه، وإما مثاله. وكان الناس كلّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين، ولا الأقوایل الجدلية فضلاً عن البرهانية، مع ما في تعليم الأقوایل البرهانية من العين، وال الحاجة في ذلك إلى طول الزمان لمن هو أهل لتعلمها، وكان الشرع إنما مقصوده تعليم الجميع، ويجب أن يطون الشرع بـشتمـل على جميع أنحاء طرق التصديق وأنحاء طرق التصور"⁽²⁾.

يفهم من هذا القول أن طرق التصديق منها ما هو عام، ومنها ما هو خاص، ومن أجل ذلك يواصل ابن رشد قائلاً: "ولما كانت طرق التصديق منها ماهي عامة لأكثر الناس -أعني وقوع التصديق من قبلها- وهي الخطابية والخطابية أعم من الجدلية، ومنها ماهي خاصة لأقل الناس وهي البرهانية. وكان الشرع إنما مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال تنبية الخواص، كانت

1)- Understanding a phenomenological, pragmatic, Analysis in philosophy, no19, G.B.Madison, Connecticut, green wood press, 1982, P:155-158.

- نخلا عن مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 357.

2)- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 50.

الطرق المصرح بها في الشريعة هي الطرق المشتركة للأكثر في وقوع التصور والتصديق"⁽¹⁾.

وانطلاقاً من هذا الأبي فأصناف الناس في الشريعة من منظور ابن رشد على ثلاثة: "صنف ليس هو من أهل التأويل أصلاً؛ وهم الخطابيون الذين هم من جمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق، وصنف هو من أهل التأويل الجدي وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصنعة، أعني صناعة الحكمة"⁽²⁾.

ويبدو أن هذه الآراء التي جاء بها ابن رشد كانت جديرة بأن تثير رد فعل عنيف من قبل الأصوليين المسلمين الذين رأوا فيها انصياعاً كلياً للفلسفة اليونانية، ومن هؤلاء الأصوليين "ابن القيم" الذي يرد على ابن رشد قائلاً: "ويضنّ جهال المنطقين وفروخ اليونان، أن الشريعة خطاب للجمهور، ولا احتياج فيها، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطرق الخطابة، والمحاجج للخواص، وهم أهل البرهان، يعنون أنفسهم، ومن سلك طريقهم. وكل هذا من جهلهم بالقرآن؛ فإن القرآن مملوء بالمحاجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد"⁽³⁾.

1) - تلخيص الخطابة ابن رشد، ص: 50-51.

2) - فصل المقال، ابن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص: 52.

3) - الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 244.

ومهما يكن من أمر، فإن اختلاف دارسي الخطاب القرآني يعود إلى اهتمام البلاغيين بمقتضى الحال، وهو مدار الحديث في صحيفة بشر بن العتمر الذي رأى فيها بديلاً لدروس إبراهيم بن جبلة السكوني في تعليم الخطابة؛ هذه الصحيفة التي يقدم من خلالها جملة من الآراء تتعلق بأحوال المستمعين وكذا بقضية الفهم ومطلعها كالتالي:

"والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضمن بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ من مقام من المقال، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وببلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني العامة معاني الخاصة، وتكتسوها الألفاظ الواسطة التي تلطف على الدهماء، ولا تجفو على الأكفاء فأنت البلغ التام⁽¹⁾."

واعتماداً على ما جاء في هذه الصحيفة "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. فإن كان الخطيب متكلّماً تجتّب ألفاظ المتكلّمين، كما أنه إن عَبَرَ عن شيءٍ من صناعة الكلام واصفاً أو محيياً أو سائلاً، كان أولى الألفاظ

1) - البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق: د. درويش جويدي، ج 1/91.

به، ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليه أحنّ وبها أشغف⁽¹⁾.

ومن منظور الجاحظ يمكن لهذه القاعدة أن تخرق في الخطاب عامة على وجه التظرف والتملح، كقول الشاعر أبي نواس⁽²⁾:

رَدِ	قُوَّهِيَّةَ الْمُتَجَرِّدِ	وَذَاتٌ خَالِدٌ مُؤْرَدٌ
ذِ	مَحَاسِنَا لَيْسَ تَنْفُذُ	تَامٌ لِلْعَيْنِ مِنْهُ
دِ	وَبَعْضُهَا قَدْ تَنَاهَى	فَبَعْضُهَا قَدْ تَنَاهَى
دِ	وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ عَضُوٍّ	مِنْهَا مَعَادٌ مُرَدَّدٌ

يستتتج من هذا، أن اللّفظ العاميّ والوحشي، يوافق البدوية الأعرابيّ؛ وذلك "أنّ الوحشى من الكلام يفهم الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوق، وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس لأنفسهم في طبقات"⁽³⁾؛ ومن أجل ملاءمة الكلام لشخصية الخطيب نصحوا بأن يحتفظ للنّادرة بلغتها، وألا يدخل عليها أي تحسين في الإعراب أو اللّفظ، أو التلفظ⁽⁴⁾. وعلى ضوء مراعاة مقتضى الحال، وأنّ لكل مقام مقالاً، صنفت البلاغة العربية فيما بعد، المخاطبين الذي يلقى إليهم الخبر على أصناف ثلاثة:

- مخاطب حال الذهن.

- مخاطب شاكٌ متربّد.

1) البيان والتبين، الجاحظ، ص: 92.

2) المرجع نفسه، ص: 94-95.

3) البيان والتبين، ص: 95.

4) بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط2، ص: 34.

- مخاطب جاحد منكر.

على أن درجة تأكيد الخطاب تتضاعف حسب هذا التركيب، كما أنه يمكن لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة أن يوضع مكان الآخر، وذلك حسب الملابسات التي يحدّدها أو يفرضها المقام⁽¹⁾.

وانطلاقاً مما جادت به ببلاغة القدامي والمحدثين تم تحديد أنواع الفهم، ولكن هل الفهم مطلقاً؟

قبل التطرق إلى الإجابة عن هذا السؤال هناك إشكالية المعرفة، وهو سؤال مركزي في العلم المعرفي طرحته بشكل دقيق العالم اللسانى الحوى "نوامتشومسكي" سنة 1975 الذي يقول: "كيف يحدث أن الكائنات البشرية بارتباطها المحدود والشخصي بالعالم تكون رغم ذلك قادرة على معرفة ما تعرفه"⁽²⁾. فالإنسان يملك معرفة ما، عن حقائق ذ موجودة فعلاً، وعن بعد (Distal) سواء كان طبيعية أو اجتماعية أو رياضية أو لسانية، ويدخل مباشرة معها في تفاعل معظم الحواس، ثم بواسطة المحس، وأخيراً عن طريق التفكير المعقلن، يستحضر تلك الحقائق الموجودة ليوظفها متى دعت الضرورة إلى ذلك⁽³⁾.

ولكن المعرفة التي يمتلكها الإنسان وينشدها ويشيد بها لا تأتى هكذا؛ وإنما عن طريق البنيات الإدراكية وعمليات الإدراك، هذه البنيات التي تطرح

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 35.

2)- Dictionnaire critique de la communication, P :874.

3)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 24.

إشكالات حول طبيعة النظام الذي يشتغل به الذهن البشري، وكيف يستقبل ويرسل، وكيف يستنتاج، فالذهن البشري نظام كلي يشتغل وفق آليات فيزيائية من أجل نمذجة البيانات والعمليات الإدراكية، وتشغيل البرنامج المعرفي وبالتالي تحقيق المعارف⁽¹⁾.

وفي الحقيقة، فإن الفهم يتوجه ضرورة إلى سوء فهم نفسه، لأن أولى مراحل التحرّر لدى المرء من أوهام الفهم أن يعي ذلك؛ فهو لكي يحصل على بعض الفهم، يجب عليه أولاً أن يراعي أن كلّ المعرفة اعتقاد فحسب، وأنه لا يوجد فهم يكون حقاً مطلقاً، ويكون معفة للحقيقة، وذلك أن الاعتقاد لا يمكنه أن يسائل نفسه، ولكننا نستطيع أن نحرّر أنفسنا من الغوغائية^(*) متى جان باتجاها المتأصل لأخذ الأشياء عن معتقداتنا عن الحقيقة نفسها⁽²⁾.

IV-4- حواهل تكوين فهم المخاطب:

IV-4-1- التوقعات:

السائد أن المتلقى يبدأ الفهم بعد تلقيه للرسالة موضوع الخطاب، ويستغرق ذلك إجراءات متتالية توصله في النهاية إلى الفهم الكلي للخطاب؛ ولأن السامع يتلقى الرسالة دون إرادة منه، فإن توقعاته لمضامين الخطاب تكون أقلّ درجة من توقعات متلقى النصوص المكتوبة، وذلك أن القارئ لا يتعامل مع

1)- Dictionnaire Critique, P : 873-876.

* الغوغائية: تكون باعتبار المرء اعتقاده قاطعاً وغير قابل للتقدّم.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص 358.

النص بشكل محايد وبريء، ولا يذهب إلى عالم النص وهو صفحة بيضاء، بل تكون لديه معلومات مختزنة في ذاكرته، تسمح له بالتعيم اعتماداً على مبدأ النظير، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المعايسنة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية⁽¹⁾.

ويقدم كل من "ريزبك" (Riesbeck) و"شانك" (Schank) "في دراستهما "التحليل التصورى" ما يدعى مبدأ الدور المهم الذي تسهم به التوقعات في فهم القارئ، حيث ينسبان جزءاً كبيراً من الفهم إلى توقعات تصوّرية وليس معجمية، ويجزمان بأن تصنيف المفردات يتم على أساس من التوقعات في ذهن المتلقي أثناء تعامله مع النص اللغوي الذي يكون بحاجة إلى نقله إلى تصورات بغرض تحليله وفهمه وتفسيره⁽²⁾.

وتنشأ توقعات المخاطب كذلك من مدى معرفته بشخص الخطيب وخلفيته، وكذا من الإمكانيات الذهنية والتصورية التي يمكن أن تظهر في أقواله، كما أن المسافة الزمنية والمكانية والاجتماعية دورها في طبع توقعات المتلقي إلى جانب بعض العوامل النصية والسياقية، مثل معرفة موضوع أو سياق الخطاب، أو سياق أحداته أو الوضع الجسدي للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم وطبيعة الحركة، وتقسيم الوجه مما يجعل التوقعات أكثر دقة وتحديد⁽³⁾.

1) - دينامية النص، محمد مفتاح، ص: 42.

2) - مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 260.

3) - تحليل الخطاب، ج.ب.براون، ج.بول - ترجمة محمد لطفي الرأسي، منير التركى، الرياض، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997، ص: 48.

IV-4-2- الأحكام المسبقة:

وللأحكام المسبقة أيضا دورها في بناء توقعات المتلقى، حيث يجعله مستعداً لتقبل التوقع على أنه حكم فعلى "فقد ننظر إلى التحيز العنصري مثلاً، على أنه مظهر لنمط محدد من التفكير، بشأن أفراد نصادفهم لعهد قريب، فتمنحهم صفات وأفعالاً مخصوصة على أساس نسق ذهني مسبق، رسمناه لأفراد من جنس معين... فبدلاً من اعتبارها قيوداً حتمية تحدد كيفية فهمنا للخطاب، يمكن اعتبار الأنماط الذهنية بمثابة الخلفية المعرفية المنظمة التي تؤدينا إلى أن نتوقع أو نتبين بمعظاهر معينة في تأويلنا للخطاب"⁽¹⁾.

IV-4-3- الصفات الشخصية للمتلقى:

ليست المعرفة أو التوقعات فقط هي التي تلعب دوراً مهماً في الفهم والتخييل الإدراكي، بل أيضاً الصفات الشخصية للمتلقى، تلك الصفات التي تترسخ من خلال التجارب الحياتية والخبرات الذهنية التي يُنميها في الوعي أو اللاوعي، والتي على ضوئها تكون محصلة الفهم الأولية مناسبة لما اختبره من قبل أو غير مناسبة، إذ تقوم عمليات فهمه على ربط كل حدث أو حالة بالتجارب السابقة المشابهة، ويتم ذلك من خلال أقيسة ذاتية الصنع يخزن فيها ما لا يتلاءم معها بوصفه نمطاً جديداً⁽²⁾.

1) تحليل الخطاب، ج.ب.براون، ج.بول، ص: 296.

2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

واعتتماداً على الصفات الشخصية للمتلقى، يجب أن يفرق بين الفهم الشخصي للخطاب والفهم الشخصي للموقف الذي يتحدث عنه الخطاب، ففي الحالة الأولى يكون موضوع الاعتقاد أو الرأي أو الصفة الوظيفية المباشرة للسياق التواصلي الحالي، وهو بذلك يتضمن تقويم الخطاب أو بعض صفاته، أو تقويم لفعل الكلامي المكون بواسطة التلفظ بالخطاب، أو تقويم للمتكلم، أمّا في الحالة الثانية فتشكل الآراء أو الاعتقادات أو الصفات بمراعاة ما تعود إليه من مرجعية موضوعية أو شمولية في الخطاب مثل: الحدث السياسي أو الحالة الاجتماعية أو المشاركين في مثل تلك الأحداث والمواقف⁽¹⁾.

وعلى أساس هذه العوامل التي تساهم بشكل فعال في الفهم، يوجد لدى "روبر ماثير" (Roepert Matthier) استعارة يشبه فيها تلقي الرسالة اللغوية بعمل محقق الجريمة الذي يتحرّى الجزئيات ويحاول أن يطابق بين ما يوجد في مشهد الجريمة وما لديه من ملفات المتهمين في تطابق البصمات أو اتفاق يدعوه إلى تأكيد التهمة، فرجل التحري يضيف من عنده معلومات إلى الواقع الفيزيائية بالاعتماد على تجربته الذاتية، وفي إدراك الكلام يُعيد بإيجابية بناء حلقات القطع الصوتية، التي يفترض أن تكون قيلت من قبل المتكلم، بأخذ المفاتيح المعطاة في الموجات الصوتية التي سمعها. واعتتماداً على معرفته بطريقة عمل لغته وأيضاً على

1)- Opinions and attitudes in discourse comprehension, Language and comprehension, T.A. Van Dijk, ed J.F, Ny, w Kintch, Amsterdam, North Holland publishing company, 1982, P: 37.

- نقل عن: مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 364.

كيفية عمل الأصوات اللغوية يُضيف معلومات يُكمل بها ما يفوته سماعه أو ما لم يفهمه من الرسالة⁽¹⁾.

وتلقي الرسالة يقوم على ما نسمع أو نرى، لكن ماذا نسمع؟ وماذا نرى؟

حتى وقت قريب كان ينظر بين علماء اللغة والنفس، أن المستمع أشبه ما يكون بالطابع على الآلة الكاتبة " فهو يتلقى الرموز الصوتية الفردية التي تتألف منها الكلمات بشكل سلبي تماماً، ثم يطابقها على الأصوات اللغوية المخزونة في ذهنه، فيتعرّف عليها الواحدة تلو الأخرى"⁽²⁾.

غير أن هذه النظرية لم تعمّر طويلاً، إذ جاءت بحرب عديدة أثبتت بطلانها، فمن الناحية الصوتية البحثة ليس بإمكان الفرد أن يستخلص الأصوات منفردة وبالتالي لأسباب كثيرة، إن مجرد النظر إلى سرعة النطق بتلك الأصوات يجعل هذا الأمر مستحيلاً⁽³⁾.

وهكذا، فإن كل ما يستطيع المستمع أن يستخلصه من الأصوات التي يسمعها، لا يعدو أن يكون دليلاً على محتوى الرسالة الصوتية، أو إطاراً عاماً يمكنه من إعادة بناء الجمل؛ ومن أجل ذلك يشبه العلماء دور المستمع بدور

1)- Understanding and producing speech E. Matthier and T.Roeper, Great Britain
Fontana Paperbacks, 1983, P: 70.

- نقل عن: مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 364-365.

2)- أصوات على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987 ص: 200.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

التحاج: هو التخاصم، والرجل المجاج هو الرجل الجدل.

الاحتجاج: من احتج بالشيء، أي اتّخذ حجّة، ويقال: أنا حاججه أنا مجاجه وحجّيجه أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان.

ومن خلال هذه التحديدات القاموسية يبدو أن لفظ الحاج أو الماجة يحمل في مضمونه دلالة ومعنى مستمدّين مما يشكّل سياقه أو شرطه التخاطبي المتمثل في (التخاصم) و(التنازع) و(الجدل) و(الغلبة) كعمليات مأمورّة هنا بمعانيها الفكرية والتوصيلية⁽¹⁾.

وعلى سبيل المقارنة تخيّل لفظة Argumentation (Argumentation) في معجم اللغة الفرنسية على عدة معانٍ أبرزها ما جاء بها في قاموس "روبير" (Robert)⁽²⁾:

- القيام باستعمال الحجج.
- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.
- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

وفي القاموس نفسه يشير الفعل (Argumenter) "إلى الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج"⁽³⁾.

ويبدو جلياً أن كلا التحديدتين القاموسيين لمفهوم الحاج لا يختلفان عن بعضهما إلا في الجوهر، لا في الدلالة.

1)- الحاج والاستدلال الحاجي، ص: 99.

2)- Dictionnaire de la langue Française le grand Robert, Paris, 1989- T1, P:535.

3)- المرجع نفسه، ص: 535.

أ-2- المعنى الاصطلاحي للحجاج: عرف الحجاج من زوايا شتى: السمات الموضوعية العامة، أو البني اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية أو التقاطع سمة أولية مائزة،... وتطول قائمة التعريفات، فنراها تدنو تارة من جوهر الحجاج، وتتأى عنده قليل تارة أخرى ومن أهم التعريفات التي ييلو أنها تقترب عن غيرها من جوهر الحجاج ما يلي:

- الحجاج عند "أندرسن" Andersen (Dover) طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوي المنطقية، وغرضها حل المذااعات والصراعات واتخاذ قرارات محبكة وتأثير في وجهات النظر والسلوك⁽¹⁾.
الحجاج عند "بيريلمان" Perelman و"تيتكا" Tytca طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استعمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجة تلك الاستعمالة⁽²⁾.

وبناءً على عنصر الاستعمال والموالاة التي بنيت عليها تعريفات بيريلمان وتيتكا، يعرف كل من "ريك" Rieke و"سيلارس" Sillars الحجاج بأنه عملية عرض دعاوى تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لأحدى تلك الدعاوى⁽³⁾.

1)- Reading in argumentation- Andersen jerry, M.Dover, Paul J.Allyn and bacon, inc boston, 1968, P: 03.

نقاً عن النص الحجاجي العربي، ص: 43.

2)- Traité de l'argumentation, perelman, Ch.Tytca, olbrechts presses universitaire de Lyon, 1981, P: 92.

3)- Argumentation and the decision Making process, Reike Richard D-Sillars, malcolm, O-John Wiley and sons Inc USA, 1975, P:6-7.

وإلى جانب هذه التعريفات، تبرز تعريفات أخرى كون الحجاج فعلاً لغوياً أو عملية اتصالية أو جنساً من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته، على نحو ما نجد في تعريف "أوتس ماس" (Ritz mass) و"ديبورا شيفرين" (Deborah Schiffren) وكل من "هайнمان" (Heinemann) و"فيفيجر" (Viehweger)، فالحجاج عند "ماس" سياق من الفعل اللغوي، تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف في شأنها، حيث تمثل الفرضيات المقدمة في الموقف الحجاجي، مشكل الفعل اللغوي⁽¹⁾.

والحجاج عند "شيفرين" جنس من الخطاب، تبني فيه جهود الأفراد وعامة مواقفهم الخاصة في الوقت نفسه، الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصومهم⁽²⁾.

والحجاج عند كل من "هайнمان" و"فيفيجر" عملية اتصالية هي كل ضرب من ضروب عرروب البرهان الذي يعلل الفرضيات والدلوافع والاهتمامات⁽³⁾.

1)- Argumentation, Maas, Utz: Spachliches, Handeln II in Hans Bueluler (hersg), Sprach 2, Fisher tas chenbuch Verlag, Frankfurt, 1973, P: 158-178.

- نقاً عن النص الحجاجي العربي، ص: 44

2)- Every day Argument, The organization of Diversity in Talk in Analysis, Vol3: Discourse and Dialogue, Academic press, London, 3d, edition, 1989, P: 35-46.

3)- Textlinguistik, Heinemann, Wolfgang, Viehweger, Dieter, eine einfuehrung, Max Niemeyer, Verlag, Tuebingen, 1991, P: 249.

- النص الحجاجي العربي (دراسة في وسائل الإقناع)، ص: 44

وتمثل هذه التعريفات نماذج دارت حول عناصر موضوعية، وبنائية ووظيفية، وخلاصة ذلك أنّ الحجاج جنس خاص من الخطاب يبني على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعوه مدعومة بالتبيرات، عبر سلسلة من الأقوال المتراطبة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بهدف دعوه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية.

أ-3- الحجاج عند العرب: الحجاج عند العرب هو الحجاج
والاحتجاج والجدل والمحادلة، يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي، فضلاً عن ذلك الدور الذي لعبه في الحياة العقدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية - وفضلاً كذلك عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب العلمي البلاغي التي تجلت في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ) عن إعجاز القرآن وذلك بإقناع الناس بفكرة النظم⁽¹⁾.

ولقد شغل الحجاج بعض القدماء جنساً خاصاً من الخطاب، ومن بين هؤلاء أبو الحسن إسحاق بن وهب (ت. 337هـ) وحازم القرطاجي (ت. 684هـ) اللذان تعرضا للحجاج بالدراسة والتحليل.

وممّا ذكره ابن وهب في مبحث "الجدل والمحادلة" يمكن استخلاص

النقط الرئيسيّة التالية:

(1)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 46.

- 1- "وأما الجدل والمحادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصوصيات، والتنصل في الاعتذارات"⁽¹⁾.
- 2- والجدل كما يفهم من كلام ابن وهب خطاب تعليقي إقناعي، فالجدل إنما يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسؤول عنها⁽²⁾، لذا يرى ابن وهب أنّه ينبغي للمجيب إن سُئل أن يقنع، وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السائل القبول. وإذا كان الفرج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع، فالغالب الذي يذكر ذلك⁽³⁾.
- 3- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصوصيات فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجبه تلك المقامات، ولهذا يفهم من كلام ابن وهب أنّ الجدل الحمود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصدق والجدل المذموم ما أريد به المماراة والغلبة، وطلب به الرياء والسمعة⁽⁴⁾.
- وهكذا فإنه إذا كان القصد هو الحق والصواب، وجوب على المجادل أو المخاطب ألا تتحمله قوّة إن وجدتها في نفسه، وصحّة في تمييزه، وجودة خاطره، وحسن بديهته، وبيان عارضته، وثبات حجّته، على أن يشرع في إثبات الشيء

1) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديشي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، 1378هـ-1967م، ص: 222.

2) البرهان في وجوه البيان، ص: 225-228.

3) المرجع نفسه، ص: 242-243.

4) المرجع نفسه، ص: 222.

ونقضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضدّه، فإن ذلك مما يذهب بيهاء علمه، ويطفئ نور بحجه، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة⁽¹⁾. أما في مبحث "أدب الجدل" فقد اشترط ابن وهب مايلي⁽²⁾:

- 1- أن يحمل المجادل عمّا يسمّى من الأدّى والنبيز.
- 2- ألا يعجب برأيه وما تسوّله له نفسه، حتى يفضي بذلك إلى نصائحه.
- 3- أن يكون منصفاً غير مكابر؛ لأنّه إنما يتطلّب الإنصاف من خصمته، ويقصده بقوله وحجّته.
- 4- ألا يستصغر خصمته ولا يتهاون بها، وإن كان الخصم صغير الحُل في الجدال.

وممّا ذكره ابن وهب في مبحثي "الجدل والجادلة" وأدب الجدل⁽³⁾ نستخلص أنه: يمكن أن ينظر إليه من منظور الاستراتيجيات الاتصالية الحجاجية ومن أهم ذلك:

- 1) أن يبني المجادل مقدماته مما يوافق خصمته عليه⁽⁴⁾.
- 2) أن يصرف همّته إلى حفظ النكت التي تمرّ في كلام خصمته مما يبني منها مقدّماته ويتوج منها نتائجه، ويصحح ذلك في نفسه، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمته فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه⁽⁴⁾.

(1) البرهان في وجوه البيان، ص: 235.

(2) المرجع نفسه، ص: 236-239.

(3) المرجع نفسه، ص: 224.

(4) المرجع نفسه، ص: 240.

- (3) - ألا يقبل قوله إلا بحجة، ولا يرد إلا لعنة⁽¹⁾.
- (4) - ألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره، واستعمال الروية فيه⁽²⁾.
- (5) - ألا يشغل إذا شاغبه صاحبه، ولا يرد عليه إذا أربى في كلامه، بل يستعمل الملهوء والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها، فإن ذلك أغاظ على خصميه من السب⁽³⁾.
- (6) - أن يخاطب الناس بما يعهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عمّا توجبه أوضاع الكلام⁽⁴⁾.
- ويبدو أن قول ابن وهب "إن الجدل إنما يقع في العلة" مطابق لما جاءت به النظرية الحجاجية المعاصرة التي ترى أن الكائنات البشرية صانعة علة (Reason-Makers) ومستخدمة علة (Reason-Users) والوقوف على كيفية صناعة الناس العلل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوى ومنح الموالاة، وإذا كانت العلة في جوهرها هي ما يقدم رداً على السؤال "لماذا"، فإن العلة المقنعة هي العلة في أن المستمع يمنح مواليته⁽⁵⁾.

1) البرهان في وجوه البيان ، ص: 237.

2) المرجع نفسه، ص: 240.

3) المرجع نفسه، ص: 239.

4) المرجع نفسه، ص: 244-243.

5)- Argumentation and the decision making process, P: 06-07.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 46-47.

أمّا حازم القرطاجي (ت. 684هـ) فإنّ أهمّ ما يستخلص من نظريته العامة "التحليل والإقناع" الأمران التاليان:

1- أنه ميّز بين جهتين للكلام.

2- أنه ميّز بين طرفيتين لإقناع الخصم.

ففي تمييزه الأول يقول حازم القرطاجي: "ما كان مل كلام يحتمل الصدق والكذب إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتراض، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال"⁽¹⁾.

ولعل حازم في تمييزه بين الإخبار والقتضاص وبين الاحتجاج والاستدلال يريده أن يميز بين نوعين من النصوص - النصوص السردية والنصوص الحجاجية على الترتيب.

وإذا كانت التمويهات والاستدراجات من الاستراتيجيات الحجاجية المهمة، فإنّ أول من تقطن إلى هذا الاستدراج هواني الأثير الذي سبق القرطاجي استخراج هذه الاستراتيجية من النص القرآني، ولذا فالاستدراج عند ابن الأثير (ت. 637هـ) هو من "مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال"⁽²⁾ بمعنى "استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم"⁽³⁾.

1)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجي، تقليل وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص: 63.

2)- المثل السائر ضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د.أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، ط2، 1973، ج 2/ 250.

3)- المرجع نفسه، ج 2/ 250.

أما حازم القرطاجي، فقد ربط التمويهات والاستدراجات بالطبع والمحنكة معاً، وهو لذا يقول: "التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والمحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك، والتدرّب في احتذائها"⁽¹⁾.

وإضافة إلى هذا الرابط فقد ميز القرطاجي بين التمويهات والاستدراجات قائلاً: التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال والاستدراجات تكون بتهيئ المتكلم بيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريره أو بإطائه إياه لنفسه، وإحراجه على خصمه، حتى يصير بذلك كلامه مقبولاً عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول"⁽²⁾.

ومن طرق تحقيق التمويهات التي ذكرها القرطاجي⁽³⁾:

أ- طي محل الكذب من القياس عن السامع.

ب- اغتراره إياه بناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباها بما يكون صادقاً.

ج- ترتيب القياس على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح.

1) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 64.

2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

د- إلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب بضروب من الإيداعات والتعجیبات تشغّل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس.

ولقد وقف باسل حاتم على استراتيجية في الحجاج المضاد (Counter argumentation) تعرف في التقليد البلاغي الغربي باسم "العبة الولاء الكاذب" (Straw man Gambit) وذلك بقوله: "لما كان قصد المجادل هو أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح، فإنّ عرض الدليل الذي يؤخذ من قول الخصم نفسه، سوف يصبح -على نحو مؤكّد- الطريقة الأعظم تأثيراً في إنجاز غایات المجادل،...".⁽¹⁾

وخلاصة هذا، أنّ كلام المخاطب لا تخلو جملة من دوافع خفية لذلك فهو يعرض محتوى الخطاب في جوّ من الرفض والمروغة حتى يتمكن من التأثير على خصمه أو جعله يقبل الدلائل المطروحة.

أ-4- الحجاج ومعناه في "نظريّة الحجاج": يجد الحجاج جذوره وخصائصه في كل أنماط الخطاب والخطابة وما تشتمل عليه من جدل وتبير وإقناع، لذا كان مفهوم الحجاج منذ القدم تابعاً تبعية عضوية واستعمالية لحالات أفعال تتطلبها وتستدعيه، أمّا بعض الأبحاث والكتابات الحديثة فقد جعلت منه موضوعاً خاصاً بها، حيث تفاعلت هذه الأبحاث مع اللغويات والمنطق والفلسفة، ومن منظور هذه الكتابات يشير الحجاج والتدليل إلى ذلك

1)- نموذج الجادلة من البلاغة العربية، باسل حاتم، بحث مترجم في: بحوث تحليل الخطاب الإقناعي، اختيار وترجمة د. محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419هـ- 1999م، ص: 39.

الخطاب الصريح أو الضمّي الذي يستهدف الإقناع والإفحام معاً مهمّاً كان متلقى هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك.

هذا ما يدل عليه "ميشال ماير" (Michelle Meyer) أحد منظري "نظريّة الحجاج" حيث يعرّف الحجاج عادة بكونه جهداً إقناعياً (إفحاميّاً)، معتبراً بعد الحجاجي بعدها جوهرياً في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه⁽¹⁾.

وعلى هذا الاعتبار، يصبح الحجاج بعدها جوهرياً في اللغة ذاتها، فينتتج عن ذلك أنه حيثما وُجد خطاب اللغة، فإنّ ثمة استراتيجية معينة نعمد إليها لغويًا وعقليًا، إما لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية في الحجاج نفسه وهي تستمدّ خصائصها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه ويعطى لها الشرعية وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم أو يكون الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيداً أو تجريداً⁽²⁾. ويبدو واضحاً من هذا أنّ الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنّما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة التي تمنّحه العناصر الأولية والقاعدية، أي عناصر الاستدلال والتدليل.

هكذا يتبيّن وجود أكثر من سياق لمفهوم الحجاج كما تتعدد حقوله الوظيفية من الحجاج الخطابي البلاغي إلى الحجاج الفضائي (القانوني) إلى الحجاج الفلسفـي أو الرياضـي، ...

1)- Logique, langage et argumentation- meyer (Michel) Hachette Université- 2ème édition- Paris- 1982- P: 136.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 99-100.

ومن ثم، كان من البديهي أيضاً أن يكون للحجاج كخطاب وكعمليات استدلالية إقناعية علاقات معقدة ومتجلدة سواء مع البلاغة الكلاسيكية والحديثة أو مع المنطق والبرهان أو مع اللسانيات والتداوiliات⁽¹⁾. ومن أجل الأهمية القصوى للحجاج، تسعى كل الأجناس المعرفية إلى ضمّه إلى حضيرتها الخاصة، وهو لذا أثري وطّعم بمفاهيم ووظائف وتنظيرات مختلفة في تطوير مستمر.

ب- حقوق الحجاج و مجالاته الاستعملية :

ب-1- الحجاج والتداوile: يرى الباحثون أن الحجاج ظاهرة متجسدة في الخطاب وبه يتحقق، وهو ملتبس بألبسة لسانية وأسلوبية، ومن نتائج ذلك، أن مقاربة هذه الظاهرة مقاربة لسانية غدت حالياً مسألة طبيعية إن لم تكن ضرورية.

لذا يعدّ التناول الألسني لظاهرة الحجاج ملتقي تقاطع فيه مقاربات متباعدة أشدّ التباين، منها اللسانيات العامة، والتداوile والأسلوبية والبلاغية. ولقد اعتقد الدارسون اللسانيون النظر إلى الخطاب اللغطي الحجاجي، كخطاب يتوفّر على خصصيات بنائية وبراغماتية تجعله مختلفاً عن غيره من الخطابات السردية والحكائية والإخبارية،...⁽²⁾.

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 100.

2)- Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, №21, Hors série, juin-juillet, 1998, auxairre, P:20-23.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي ووسائله ومجالاته-

ومن هذا المنطق يحدد "جون بول بروونكار" (Jean Paul-B.) أنماط الخطاب في أربعة هي: السردية والحكائية والتفاعلية الحوارية، ثم النظرية؛ وينبني هذا التصنيف على أساس لسانية داخلية؛ وإذا كانت النصوص "التفاعلية-الحوارية". وحتى النظرية هي الأكثر احتضانا للحجاج، فإنّ هذا لا ينفي إطلاقاً أن أشكال النصوص الأخرى لا تختزن الحجاج⁽¹⁾.

وتسعى المقاربة اللسانية وحتى الأدبية إلى التعامل مع نوع خاص من التخاطب والتكلّم، وعليه فإنّ التخاطب الحجاجي خاضع لفظياً إلى مثلثات سيميولوجية لسانية هي كالتالي:

1- المرسل---الرسالة---المستقبل (جاكوبسون Jackobson).

2- التعبير---المعنى---الإقناع والانفعال (بوهлер Buhler).

3- المخاطب---الخطاب---المخاطب (أوسيتين Asrtin).

وحتى يتم إدراج الحجاج ضمن الدوائر السابقة، لابدّ من رصد كل الأفعال الكلامية والتكلمية التي لها مرجعية أو سياق مشترك بين المستكمل والمسموع أو بين المخاطب والمخاطب.

ولئن كان البعض يعتقد أن دراسة الحجاج في الخطاب اللفظي هو شأن لتداوilye (Pragmatique)، فإنّ لهذا الاعتقاد ما يبرره، إذ بالفعل نجد الخطاب الحجاجي يخضع ظاهرياً وباطنياً لقواعد شروط القول والتلقي؛ بعبارة أخرى إنّ

1)- Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, N°21, Hors série, juin-juillet, 1998, auxairre, P:20-23

كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية، وبالتالي قيمة
ومكانة وأفعال الذوات المتخاطبة⁽¹⁾.

ولكن مجال التداوليات مجالٌ واسع ومتشعب؛ فهناك مجال تداولية
البلغيين، وب مجال تداولية اللسانيين، وب مجال تداولية الفلسفه والمنطقة؛ ونظرا
لتشعب التداوليات ذهبت أرمينيكو فرانسواز "Françoise Armingaud" إلى
القول: "إن التداولية كبحث في قمة ازدهاره لم يتحدد بعد في الحقيقة، ولم يتم
بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها، واصطلاحها"⁽²⁾.

وعلى الرغم من تداخل اختصاصات التداولية فإن الباحثة "أرمينيكو
فرانواز" تناول الإجابة عما يلي:

- من يتكلّم؟ وإلى من؟

- ماذا نقول بالضبط حين نتكلّم؟

- ماهو مصدر التشويش والإيضاح؟

- كيف نتكلّم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

وتستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار مقاصد التكلّم وأفعال
اللغة وبعدها التداولي، وكذا السياق، فالباحثة تناول أن تستعمل عن المستكمل
والمستمع، ثم عن نوع الرسالة أو الموضوع أو الخطاب، ثم عمّا يحيط بالرسالة
من لبس أو غموض، وسؤاها الأخير استعلام عن الأشكال البلاغية من استعارة
ومجاز وكتابه وغيرها.

(1) - الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 101.

(2) - المقاربة التداولية، أرمينيكو فرانسواز، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت، ص: 11.

و جدير بالذكر، أن هذه الأسئلة تنطوي على كل أنواع الخطاب بما في ذلك الخطاب الإقناعي الذي ينطوي على عدة مستويات أهمها المستوى الحواري أو التحاوري سواء كانت ذوات هذا التحاور غائبة أو حاضرة أو متعددة الأصوات والأamarات.

وعن الحوارية تقول الباحثة فرانسواز: "تعدّ الحوارية مكوناً لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين توجдан في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحواري من خلال الحدود التالية كل تلفظ يوضع في مجتمع معين، لا بدّ أن يتبع بطريقة ثنائية، توزع بين المتكلمين الذين يتمرسون على ثنائية الإصابة، و ثنائية العرض على حدّ تعبير فراسيس جاك (F.Jacques)⁽¹⁾.

وبناءً على هذا القول؛ فإنّ الظاهرة التخاطبية-الحوارية صميمية في كل خطاب على الإطلاق؛ غير أن الاتجاه الحجاجي في هذه الظاهرة يبدو أكثر وضوحاً على صعيد التواصل الفكري.

إنّ أساس الحجاج، إذن، في منظور بعض الاتجاهات التداولية هو الحوارية وما تتطلبه من عمليات حجاجية تنوع و تباين تقنياً بتتوّع و تباين أنماط التحاور و مراتب الحوارية، هذا الأمر الذي دفع طه عبد الرحمن إلى الاعتقاد بأن "الحوارية تنقسم إلى الحوار" و "المحاورة" و "التحاور" وكل منها يخضع لمنهج حجاجي استدلالي، وآلية خطابية، وبنية معرفية، وشواهد نصية"⁽²⁾.

1) المقاربة التداولية، ص: 85.

2) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص: 51.

ييد أن هذا الاعتقاد قد تعرض إلى النقد، كونه قد يسقط الباحث في نزعة تفاضلية وتعسفية نظرا لما يترب عليه من تقسيمات منهجية، لذا يرى أحمد عراب أنّ الحوارية وحجاجها هي ذاها من نتائج "العملية التواصيلية" ومن ثم فمن الصعب جداً حصر كل اتجاهات المناقشة والتحاطب الحجاجي، حتى لو حاولنا أن نضع لذلك قواعد و"مبادئ"، أو مسلمات كتلك التي سماها "كرييس" (Grice). مبادئ المناقشة القائمة على "التعاون"⁽¹⁾.

مبادئ المناقشة عند كرايس⁽²⁾:

- مبدأ الكم: اشتتمال مساهمة المناقش على كمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان.
 - مبدأ الكيف: المساهمة في النقاش تكون حقيقية لا تؤكد ما يعتقد صاحبها أنه خطأ، ولا تؤكد ما هو في حاجة إلى حجج.
 - مبدأ العلاقة: التكلم في صميم الموضوع وعند الضرورة.
 - مبدأ الطريقة: الوضوح في الكلام وتجنب الالتباس في الحديث، وكذا تجنب الكلام الغامض مع توخي الاختصار والمنهجية.

ولكن هذه المبادئ لا يمكن اعتبارها تداولية أو حاجاجية محببة، لأنّها تعتبر عديمة المعنى خارج نطاق النشاط التخاطبي باعتباره نشاطاً عقلياً، وهذا النشاط بدوره ليس معزولاً عن مضمونه السوسيو-أخلاقي والتواصلي (العرفي).

١) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 102.

2)- Élément pour la lecture des textes philosophies, cossuta frediric, bordas, Paris, 1989,
P: 187-188.

والدليل على ذلك أن كل مناقشة، أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر، وتواصل معه⁽¹⁾.

ب-2- الحجاج واللسانيات: تهدف المقاربة اللسانية إلى معالجة ظاهرة "الحجاج" كظاهرة لسانية-نصية لا يمكن تفسيرها دون إبراز مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام؛ ودون إغفال العناصر والروابط الحجاجية التي هي بمثابة أدوات لسانية.

ومن الذين اهتموا بالتحليل اللساني للحجاج، إ.بنفيست "I.Benveniste" و "أ. ديكور" O.Ducrot) و آخرون، ومن أبحاث "بنفيست" (Enunciation) فهم أن اللغة لا يمكن أن تتحقق فعلياً إلا بواسطة التلفظ و حينئذ تحول اللغة إلى خطاب يجسد علاقة بين متكلم ومستمع.

وهو لذا يرى أن "ال فعل الفردي الذي سَعْمَلُ بواسطته اللغة، يجعل من المتكلم قبل كل شيء ما يشبه المحدد الثابت في شروط التلفظ الضرورية، فقبل التلفظ لا تكون اللغة سوى عبارة عن إمكانية لغوية، وبعد التلفظ تصبح بمثابة الخطاب الذي يصدر عن متكلم في شكل صورة ناطقة تستهدف مستمعاً، يبعث تلفظا آخر ارتجاعيا"⁽²⁾.

ومن زاوية أخرى يؤكّد اللسانيان (بنفيست) على أن "التلفظ يتميّز بحدّة العلاقة الخطابية مع الشريك، سواء أكان شريكاً حقيقياً أو متخيلًا فردياً أو

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 103.

2)- Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974, P: 81-82.

جماعياً، وهذه الخاصية تطرح بالضرورة ما يمكن أن نطلق عليه، الإطار التشيسي للتلفظ"⁽¹⁾.

وعلى هذا الاعتبار، فإنّ التلفظ يتخذ من بين أشكال الخطاب "صورتين" ضروريتين؛ الأولى بثابة مصدر التلفظ وتمثل الثانية هدف أو غرض التلفظ، إذًا، فالقضية هنا تتعلق ببنية الحوار.

واستمراراً لهذه الأفكار التي أتى بها "بنفينست" حول التلفظ والتكلم والخطاب، يتصور "ديكرو" أن الخطاب الحجاجي وراءه ذات متكلمة أي له مصدر أو مصادر؛ فالتكلم -داخل الخطاب- هو المصدر المسؤول عن الخطاب بصفة عامة، وعن حجاجة بصفة خاصة، ومن أجل هذا يميّز "ديكرو" بين المتكلم والمتكلف، على اعتبار المتكلف هو المسؤول عن منطق (قول) أو أكثر، وهو الصوت المتحدث باسم المتكلم للتعبير عن رأي أو أطروحة (موقف خاص) ضمن هذا الخطاب الحجاجي ككل⁽²⁾.

وفي هذا السياق؛ أبدع "ديكرو" مفهوم "المتكلف" -متعدد الأصوات- لحل مشكلة تحليل بعض الأقوال التي لا نعرف بالضبط لمن تنسب فيها الكلام، هل لمتكلّم واحد، أم لأكثر من متكلّم"⁽³⁾.

1)- Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974, P: 85.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 104.

3)- La philosophie des discours argumentatifs in pratiques auricchio (angues) et Alliés (Revue) N° 73, Mars- 1992, P: 07-40.

وإذا كان الاتجاه اللساني يجعل (معنى) القول يتعارض مع (قيمة) القول والذي ينحر عن تعارض الدلالة مع التداولية، فإن لّساني "ديكرو اعتقاداً آخر مؤدّاه "أنَّ المعنى لا يحدّد من دون الرّجوع إلى مقاصد القول وحجّاجه"⁽¹⁾.

ولكن هذا الطرح اللساني لا يفصل بين بعد التداولي والبعد الدلالي للخطاب، إلا أنَّ للباحث "ديكرو" رأياً آخر يتمثل في تفريقه بين الاستدلال العقلي وبين الخطاب؛ إذ الأول لا يشكل حسبه خطاباً لأنَّ كل قضية من قضايا الاستدلال تحيل بوحدها إلى حالة واقعية أو افتراضية من حالات الواقع⁽²⁾.

وهكذا يقول ديكرو: "بالنسبة لي، إنَّ كلاً من الاستدلال العقلي والخطاب يتميّان إلى نظامين مختلفين إطلاقاً، أي نظام ما نطلق عليه عادة "المنطق" ونظام ما أطلق عليه "الخطاب"⁽³⁾.

ولعلَّ "ديكرو" بكلامه هذا يريد تنبّيه الباحث إلى نتيجة مفادها "إنَّ الخطاب النّفسي يتوفر على خاصية حجاجية مباطنة له دون أن تعير هذه الخاصية بمعايير منطقية خارجية. وحجّاج هذا الخطاب يتجلّى في العلاقات بين المنطوقات والأقوال، وهي علاقات مكونة لتلك الأقوال وتوجهها في جتمع ما، توجّيهاً معيناً⁽⁴⁾".

1)- Les échelles argumentatives, Ducrot- (Oswald), édition des minuit, Paris, 1989- P: 08.

(2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي - ص 105.

3)- Les échelles argumentatives, Ducrot, O- P: 10.

(4)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 105.

وانطلاقاً من هذه النتيجة، راح كل من "ديكرو" و "ج.ك.أس.كومبر"⁽¹⁾ يطلقان على الحجاج الخطابي اسم "الحجاج داخل اللغة".⁽¹⁾

إذ يتعلق الأمر هنا بحجاج يمكن وصفه بـ"منطق الكلام" أي تلك القواعد الداخلية للخطاب والتي تحكم في ترابطه و تسلسله⁽²⁾.

ومما سبق ذكره نستنتج أن كثيراً من أفعال الكلام لها وظيفة حجاجية، خاصة تلك الأفعال التي تهدف إلى توجيه المتلقي نحو مرمى معين أو صرفة عنه.

ومن منظور "ديكرو" تتوفّر الوظيفة الحجاجية على خصائصها في بنية الجملة ذاتها، وبعبارة أخرى: "...إنّ القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هي حصيلة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل إنّ الجملة بإمكانها أن تشتمل على مورفيمات وتعابير وصيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري فهي تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك"⁽³⁾.

وخلالصة لهذا العرض الذي يجعل استعمال الحجاج ليس عنصراً يضاف إلى اللغة، بل يسري فيها سريان طبيعياً، سوف يميّز بين الدليل (الحججة القاطعة) وبين الحجحة العادلة من جهة وسوف يولي اهتمامه التحليلي لإبراز نظام وترتيبة الحجاج (حجج قوية، حجاج ضعيفة) أو (حجج علياً، حجاج سفلية) بالنسبة لنتيجة معينة من ناحية ثانية⁽⁴⁾.

1)- Les échelles argumentatives, P: 11.

2)- المرجع نفسه، ص: 12.

3)- Les échelles argumentatives, P: 18.

4)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 105.

وبعد هذه المقاربات، هل نستطيع القول بأنّ كل من التداولية واللسانيات استطاعت أن تمتلك نواصيّ حجاج الخطاب؟

بـ-3ـ الحجاج والأسلوبية: والجواب عن السؤال السابق هو أن الفعالية الحجاجية كفعالية خطابية لا تظهر وتنحسم لغويًا إلا بمهارات أسلوبية، وتأثيرات بلاغية فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والإبتكارية كمتطلبات جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية⁽¹⁾.

ولا يخفى على أي باحث أنّ قيمة هذه العوامل تتفاوت من نصّ حجاجي إلى آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوّي الحجاج وتزيد من فعاليتها؛ أي أنها تعمل لصالح التأثير والإقناع، لذلك يمكن النظر إليها كظواهر أدبية وخطابية قائمة الذات؛ كما يمكن النظر إليها في علاقتها بأدوارها الحجاجية وقيمتها الإقناعية.

وعليه، فإذا كان الحجاج قد بقى جذوره مع التداولية واللسانيات، فإنه لم يهمل عند البلاغيين والأسلوبيين الذين اهتمّوا بتحديد وتصنيف أنواع الحجاج والأساليب الحجاجية خاصة في مجال الخطابة.

ولأنّ أنواع الحجاج وأساليب عديدة، ولا يمكن حصرها فائياً، فقد حاول كل من "ج. ج. روبيو" (J.J.Reberieu) في كتابه "عناصر الخطابة والحجاج" و"ج. روس" (J.Russ) بكتابها "المناهج الفلسفية" حاولاً أن يحدداً هما أيضاً أنماط الخطاب الحجاجي⁽²⁾.

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 106.

2)- Les échelles argumentatives, P: 20.

وبالإجمال، فإنّ اللغة باعتبارها نسقاً دلائلاً لفظياً استراتيجياً في التواصل الإنساني، تتفوّق عن باقي الأنساق الدلالية الأخرى؛ لكونها على حدّ تعبير "ر. بارت" تمدّنا بالمعنى، بل هي نموذج المعنى في حدّ ذاته ، ثم إنّ اللغة اللفظية بطبيعتها تؤثّر ووجدت لتؤثّر. فخاصّية المعنى وخاصّة التأثير في اللغة الطبيعية تفسّران لماذا لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والمحاجة، ولماذا لا تخلو أسلوب التعبير والقول من أفعال استدلاليّة وأدوات لغوية نحوية-لسانية، تفصّل أجزاء الجمل وتحمّلاته الجمل، وتستسيغها العقول ومعايير المتعارف عليها لدى جماعة بشرية معينة⁽¹⁾.

وإذا كان التعبير عماده الجمل، وهي بدورها عمادها المعنى؛ فإنّ اختيار مناسبات وكيفيات استعماله أمور تبقى من اختصاص المتكلّم ونوعية أسلوبه. ومن وجهة نظر "دمشقية عفيف" تنطلق الأسلوبية اللغوية من الأسلوب باعتباره "قائماً على استخدام الموارد الإبلاغية للغة، لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الفعالية"⁽²⁾.

ونظراً لذلك التداخل الحاصل بين القول الشفاهي والقول الخطبي (المكتوب)، وبإحالة أحدهما على الآخر، فإنه لا يمكن إهمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تتدخل سواء في إيصال المحتويات والدلالات أو في تحقيق التأثير، لأنّ هذه الظواهر تتعلّق بكيفية انتقاء عناصر العبارة، وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاع العبارة ونبراتها، والاستعارة والاشتقاقات، وبباقي الطاقات الإبلاغية

(1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 106.

(2) - الإبلاغية فرع من فروع الألسنية، ص: 25.

والتعبيرية التي تلعب أدواراً متناقضة بالنسبة لوضع الحجاج، داخل تناظرية معينة⁽¹⁾.

ولكن هذه الأساليب والعبارات لا يمكنها أن تؤثر أو تقنع من دون مضمون، أي من دون التنسيق ما بين المعانٍ والأفكار، ومن دون العلاقة الحاججية القائمة على تلك القسمة العادلة بين الناس والمتمثلة في العقل.

بـ-4- الحجاج والبلاغة: إذا كان أسطو قد نظر إلى البلاغة على أنها هي نفسها الخطابة بقوله: "الريطورية قوّة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"⁽²⁾ فإننا نجد في التراث العربي فرقاً واضحاً بين كل من الخطابة والبلاغة، كون البلاغة أشمل وأعم من الخطابة التي هي جنس من أجناس التواصل وفن القول.

وإذا كانت الخطابة شديدة الارتباط بالشعر عند العرب، فقد فصل أسطو بين الخطابة (الريطوريقا) وبين الشعر (البوتيقا) إذ الخطابة عنده قوّة تتتكلف الإقناع، وهذا الإقناع يتطلب بالضرورة قواعد ووسائل يمكن اعتبارها منهاجية، لأنها تدخل في صميم بناء الخطابة، وعناصر هذا البناء ثلاثة: "وسائل الإقناع أو البراهين" وأسلوب أو "البناء اللغوي" وترتيب أجزاء القول"⁽³⁾. إذ "اللائي ينبغي أن يكون القول قيهن على مجرى الصناعة ثلاثة؛ إداهن": الإخبار من أي شيء تكون التصديقات و(الثانية) ذكر اللاتي

1) - مقال الحجاج والاستدلال الحاججي، ص: 107.

2) - النقد الأدبي، و.ك. ومرت، ك.بروكس: ترجمة: حسام الخطيب ومحى الدين صبحي، دمشق، 1973، ج/1، 103.

3) - بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط1، ص: 17.

تستعمل في الألفاظ، و(الثالثة) أن كيف ينبغي أن تنظم أو تنسق أجزاء القول⁽¹⁾، ثم هناك عنصر للقاء الذي أضافه الدارسون المحدثون بعد أرسطو،

ومنهم البلاغيون العرب باعتباره عنصراً مستقلاً يتضمن الحركة والصوت.

وإذا كانت هناك علاقة توتر وتنابذ بين الخطابة والفلسفة داخل الفكر اليوناني، فعلى العكس من ذلك ما نجده في الثقافة العربية من تكامل وتفاعل بين الأجناس الثلاثة؛ الخطابة والبلاغة والشعر.

وعموماً، "فالخطابة - عربياً - هي نوع من القول والتحاطب، أمّا البلاغة فهي بعد أسلوب في هذا القول؛ لذلك جاز الحديث عن بلاغة الخطابة واستحال العكس"⁽²⁾.

وعلى اعتبار أن مفهوم البلاغة يشير إلى الطريقة والأسلوب فطبعي الآية ينحصر هذا المفهوم في الخطابة وحدها، بل يتعداها إلى أنماط أخرى من القول كالشعر والفلسفة وغيرهما؛ لهذا اشتملت البلاغة على ثلاثة علوم جدّ بارزة؛ علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع.

فعلم المعاني يستهدف البحث عن كيفية تجنب الأخطاء والاستهجان في تأدية المعنى من خلال كلام معين، ويستهدف علم البيان البحث عن كيفية تجنب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام، بينما ينصب علم البديع على تحسين الكلام وإضفاء جمالية التعبير عليه.

1) - الخطابة، أرسطو، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979، ص: 181.

2) - مقال الحاج و الاستدلال الحاجي، ص: 108.

وتبعاً لذلك فإنّ البلاغة هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسّنات وإبادة وإظهار وإقناع، وهي لذلك يمكن أن تعرّف على أنها "ملكة اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة بالرجوع إلى الموضوع أيًا كان"⁽¹⁾.

ولأنّ حقول البلاغة متعددة ومتعددة، فقد تباينت منظورات الباحثين في تناولها؛ ومن الذين أسهموا بشكل كبير في الدرس البلاغي، عبد القاهر الجرجاني في (ت. 471هـ) الذي أولى عناية فائقة للمعاني وكذا لدور التطبيق والاستعارة والقياس فيها ملخصاً ذلك في كتابة "أسرار البلاغة" بقوله: "واعلم أنّ غرضي في الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفتقر (...)" وأيّن أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكّنها في نصايه وقرب رحمها منه"⁽²⁾. ولقد ركّز الجرجاني على "التشبيه والتّمثيل والاستعارة لأنّها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطاب تحيط بها من جهاها"⁽³⁾. وحملة هذا أنّ البلاغة عند الجرجاني وثيقة الصلة بنظرية النظم (التّأليف) والمعنى، متخذة في ذلك القرآن الكريم، وأشعار العرب مرجعية لها.

أما السّكاكـي فإنه يعرف البلاغة بقوله: "هي بلوغ المستكمل في تأدـية المعانـي حدـا له اختصاص بتوفـيه خواص التـراكـيب حقـها، وإـيراد أنـواع التـشبـيه

1) - النقد الأدبي، وك. مراتن، ك. بروكسن، ص 103/1.

2) - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هلموت ريتـر، دار المسـيرة للـصحافة والـطبـاعة والـنشر، بيـروـت، 1983، ص: 25.

3) - المرجـع نفسه، ص: 26.

والمحاز والكناية على وجهها، ولها أعني البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباعدةان تباينا لا يتراهى لهما نارهما، وبينهما مراتب تقاد تفوق المحصر...".⁽¹⁾.

وبهذا المعنى فإن بلاغة السكاكي تجمع بين خواص تراكيب الكلام، ومراعاته لمقتضى الحال، وأوجه الاستحسان وبين مطابقة الكلام لقصده ومراعاته لوضوح الدلالة.

وإذا كان السكاكي قد ذهب في كتابه "مفتاح العلوم" إلى حد تقييد وترتيب علوم البلاغة ترتيبا يكاد يكون نهائيا، فإنه يرى أن الفصاحة قسمان: أحدهما راجع إلى المعنى؛ وهو خلوص الكلام من التقييد، والثاني راجع إلى اللّفظ؛ وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة تحرى على قوانين اللّغة وتكون سليمة عن التنافر⁽²⁾.

واعتمادا على ما ذهب إليه البلاغيون العرب من تعريفات وأبحاث حول البلاغة استنتاج "أدونيس" أن "البلاغة تهدف إلى أمرتين؛ الوضوح (الارتجال) والتأثير (النفع)".⁽³⁾

وانطلاقا من هذا الاستنتاج يبدو جليا أن البلاغة قد أخذت هنا كمحدد أساس للخطابة، لأن الخطابة تخاطب جمهورا معينا، ومن ثم حاجتها للبلاغة لإقناعه والتأثير فيه. فالتأثير والاستعمال يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع، ومن هذا نفهم أنه يجب الإقرار بوجود حجاج بلاغي يجد

(1)- مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983، ص: 415 - 416.

(2)- المرجع نفسه، ص: 416.

(3)- الثابت والتحول، أدونيس، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979، ج 3/133.

عناصره الأساسية في المعانى البلاغية كأدوات إقناعية؛ مثل الشاهد والاستشهاد والحججة والدليل والاستدلال...⁽¹⁾.

وبهذا الصدد يرى الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بأن الشاهد عنصر من عناصر الحجاج والإقناع؛ كما أنه مرادف للحجّة والدليل والبرهان، وبناءً على هذا فإن للحجاج دلالة بيانية وبلاغية وكذلك له حمولة عقلية ومعنوية؛ إذ به يحصل التصديق والاستدلال والخبر والبرهنة على صدقه⁽²⁾.

ومن هذا المنظور، اعتبر الحجاج البلاغي القائم على الشواهد دعامة لإرساء الحقائق وبناء صرح العلم عند كلّ من الجاحظ، وكل من هجّ نهجه؛ وهكذا يؤكّد الجاحظ أنّ "مدار العلم على الشاهد والمثل..."⁽³⁾.

ولعلّ الجاحظ يكون قد استمدّ دور الشاهد والمثل من عادة العرب في هذا الميدان، وهو لهذا كثيراً ما كان يجعل من الحجّة والدليل والشاهد أشياء مترادفة ومتطابقة، وفي هذا يقول: "وكان المقنع الكندي الشاعر واسمه محمد بن عمير، كان الدهر مقنعاً، والإقناع سمةُ الرؤساء والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجّة القاطعة أنَّ رسول الله ﷺ كان لا يكاد يُرى إلَّا مقنعاً"⁽⁴⁾.

ويدعم الجاحظ قوله هذا بقول آخر ليؤكّد أنَّ الدليل والحجّة متمثلان في أقوال يُستدلّ بها، لا يطأها الشك؛ لأنَّ "الدليل الواضح والشاهد القاطع،

1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 109.

2) - المرجع نفسه، ص: 09.

3) - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر ودار الجيل، بيروت، المجلد الأول، ص: 171.

4) - البيان والتبيين، ج 1/ 103.

قول النبي ﷺ: نصرت بالصّبا وأعطيت جوامع الكلم، وهو القليل الجامع للكثير⁽¹⁾.

ولعل هذا الترافق والتطابق الحاصل بين الحجّة والبرهان والشاهد والدليل هو الذي جعل القواميس العربية لا تميّز بين هذه المفردات دلالياً ووظيفياً.

أما أرسطو، فإن الشاهد عنده يتمثل في القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، وينحصر إجمالاً بالخطابة القضائية ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه⁽²⁾.

جاء في البيان والتبيين: "وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء"⁽³⁾ وقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية⁽⁴⁾.

1) - البيان والتبيين، ج 1/29.

2) - بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط 1، ص: 65.

3) - البيان والتبيين، ج 1/118.

4) - الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف مصر، 1969، ص: 198.

وكان صالح المري القاص العايد البليع كثيراً ما ينشد في قصصه وفي موعظه هذا البيت⁽¹⁾:

نباتٌ يُرَوِّي أَصْوَلَ الْفَسِيلَ
فَعَاشَ الْفَسِيلَ وَمَاتَ الرَّجُلُ
وَأَنْشَدَ الْحَسْنُ الْبَصْرِيَّ فِي مَجْلِسِهِ فِي قَصَصِهِ وَفِي مَوَاعِظِهِ⁽²⁾:
لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيْتُ الْأَحِيَاءِ

وكان العرب "يستحسنون في الخطاب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آلي من القرآن الكريم، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقابة، وسلس الموقف"⁽³⁾، ويستشهد الجاحظ على كلامه هذا بعمران بن حطان الذي خطب خطبة أعجب بها الناس، ثم إنّه مرّ ببعض المجالس فسمع "رجلًا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن"⁽⁴⁾.

وإذا كان الحاجاج البلاغي قد تجاوز نطاقه الخطابي ليجد مكانته في علوم أخرى، فإنه لم يتخلّ عن خصائصه المتمثلة في كسب تأييد المتلقى في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقى عن طريق إشاع

1) - جمهر خطب العرب، أحمد زكي صفت، المكتبة العلمية، بيروت، ج3/396.

2) - المرجع نفسه، ج3/398.

3) - البيان والتبيين، ج1/118.

4) - المرجع نفسه، ص: 118.

مشاعره وفكرة معاً حتى يتقبل ويافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة/الخطاب⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معاً، إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجارة وصورها البينية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البينية.

وواضح جداً أن أساليب الحجاج البلاغية تتميز بمعايير أدبية وجمالية، الأمر الذي جعلها تمتد إلى كل أنشطة (اللغة والقول وبهذا الصدد يقول "ميشال ماير" (M.Meyer): "إن كل شيء قد أضحي "تواصلاً" من الصدقة إلى الحب، ومن السياسة إلى الاقتصاد، حيث تجد العلاقات تقام وتفسخ بناءً على فشل أو نجاح البلاغة"⁽²⁾.

ومن هذا القول نستخلص أنّ وراء كل حجاج بلاغة، ووراء كل بلاغة حجاج؛ لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والاستغواط قصد الامتناع والإقناع.

يقول حبيب أعراب: "إن البلاغة هي قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتولّه الخطيب أو القائل عموماً، لغرض موضوعه أو رأيه أو قناعته؛ ولأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه. إلا أن الصور البينية والخيل المجازية واللغوية (فن القول) وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تستند بأدوات ترجيح الرأي وتسويقه عقلياً، وهذه الأدوات هي التي يُوفرها الحجاج أو الحاجة"⁽³⁾.

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

2)- Questions de rhétorique, Langage, Raison et séduction, Meyer Michel, Librairie générale, Française, Paris, 1993, p: 07.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

ونفهم منذ هذا، أنّ البلاغة قد تؤثّر وتستميل وتعتّق ولتكنّا قد لا تقنع وتفهم معاً، ما لم تتلاحم مع الحجاج والمحاجة وإذا كانت "جاكلين روس" Jacqueline Russ (تعتقد أن "الصور البلاغية هي عملية أسلوبية تنشط الخطاب وهذا وظيفة إقناعية"⁽¹⁾) فإنّ الباحث حسب إعراب يرى أن "هذه الصور على الرغم من أهميتها لا تستطيع أن تصمد أمام العقل التفاذ، والشك الوقاد ما لم تكن مدرومة عضويا بالحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة"⁽²⁾.

وهو لهذا يقول: "أن الحجاج البلاغي يبني ويتوسّع الرأي الصائب والصادق، أما الأسلوب البلاغي فهو يعرض هذا الحجاج وموضوعه في صور وتقنيات تقتضيها جمالية الإيصال والتلقي"⁽³⁾.

وإذا كانت البلاغة تمثل إمبراطورية واسعة على حدّ تعبير "ش. بيريلمان" فإن الأساليب الحجاجية ماهي إلا راقد من روافد هذه الإمبراطورية؛ لذلك لا يجوز إطلاقا اختزال البلاغة سواء كفن الكلام والقول أو كما احتجت ودراسات في مفهوم الحجاج والمحاجة (البلاغية)⁽⁴⁾.

1)- Les méthodes en philosophie, Russ Jacqueline, Ed Armand colin, Paris, 1992, P. 55-58.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

3)- المرجع نفسه، ص: 111.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

نستنتج من هذا الرأي، أن هناك صنفاً من الحجاج خاصاً في بنائه وترتيبه لقواعد البلاغة والبيان، يتسم بالسمات التالية⁽¹⁾:

- اندماجه عضويًا بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق.
- اشتراطه لرغبيتين هما؛ إرادة المتكلم (المؤثر والمقنع) وإرادة المتلقى (المتأثر والمقنع).
- خضوع حججه للتراتبية والتنظيم: القوة، الضعف، البدء، الختام، الإبطال، الإثبات، ...
- اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الامتاعي أو الجمع بين البيان والبديع.
- عدم قابلية القولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية.

أهداف الحجاج في الخطاب البلاغي: يمكن اختصار هذه الأهداف في العناصر التالية:

- التأثير في المتلقى (السامع أو القارئ) وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده واقتناعه الخاص.
- التأثير في المتلقى بجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريده المخاطب.
- استعماله وإغراء المتلقى باعتباره ذهناً وعاطفةً (عقلاً وقلباً) للكسب تأييده وتوافقه الضماني أو الصريح.

وبناء على سمات الحجاج وأهدافه؛ فإن الحجاج سواء كان استدللاً أو سجالاً في الحقول التواصلية والمعرفية الأخرى؛ مثل: السياسة والقضاء والفلسفة،

(1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

لن يخلص كلياً من رواسبه البلاغية والخطابية، فالحجاج الذي يتغذى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير سيظلّ دائماً محتفظاً بقدر معين من البلاغة والخطابة⁽¹⁾.

وقد لا يبالغ إذا قلنا: إنّ اللغة الطبيعية باستثناء لغة الرمز والدلّالات الواحدة تنسّع من تلقاء نفسها إلى الإغراء وهذا ما يؤكده "ج. بوديار" من أن "الإغراء هو أمر بدائي في اللغة في كلّ خطاب يتواطأ في هذا الاستمتاع، وفي هذا الانحراف الإغرائي، وإذا لم يفعل ذلك بنفسه، فإن هناك من سيفعله مكانه"⁽²⁾.

ولكن هذا الرأي نفسه قد تعرض للنقد على اعتبار أن أطروحة (ماير وديكرو) التي اعتبرت الحجاج خاصية مباطنة لكل خطاب لغوي، لم تراع في تعليلها الفروق الواضحة بين الأداء الشفاهي، والأداء الكتابي، بين الاستعمال التواعدي العفواني والمحي للغة وحجاجها، وبين الاستعمال التقني والمدروس لهذه اللغة⁽³⁾.

ونظراً لتدخل الأبعاد التداولية واللسانية والبلاغية والأسلوبية والسيميويطيقية، فإنّ أوضاع الحجاج تتشابك وظائفها وأمارتها تتعدد، خاصة في الخطاب الشفاهي؛ الذي كثيراً ما يتعرض إلى التشوه والتفكك، مما تعكس آثاره على اتساقيته وبنائه، كما على ضوابطه ومساراته الحجاجية.

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 111.

2)- Questions de rhétorique, Langage- Raison et séduction, P: 125.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 111.

ب-5- **الحجاج في القضاء:** يفترض "ش. بيريلمان" أن الحجاج يغطي كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع، مهما كان المتلقى ومهما كانت الطريقة المتبعة⁽¹⁾.

ويعد القضاء أحد المجالات التي تستدعي الحجاج والمحاجة، والمقصود بهذا القضاء، هو ذلك القضاء الذي يتم فيه إصدار الأحكام من قبل القضاة.

- **مسوّغات الحجاج القضائي وأهم مميزاته:** يتميّز مجال المرافعة والمداولة في النشاط القضائي بالسجالات والتأنيات والمحاكمات، وتتدخل في هذا المجال أطراف أساسية هي: القاضي والمحامي، والمدعى العام،...، وحتى تأخذ الأحكام الصادرة عن القضاة صبغة شرعية عادلة يفسح المجال غالباً لخطابة الإقناع والتبرير؛ لأنّ المرافعة هي قبل كل شيء خطابة ومحاجة، والمداولة هي الأخرى تبرير وحجاج⁽²⁾.

وقد صنف أرسطو أنواع الخطابة، معتمدًا في تصنيفه ذاك على حال المتلقى الذي اعتبره حكماً، ثم نظر بعد ذلك إلى القضايا المحكوم فيها⁽³⁾، ونصّ كلامه في ذلك حسب الترجمة العربية كالتالي:

"أنواع الريطورية ثلاثة عدداً، وكذلك يوجد السامعون للكلام، والكلام نفسه مركب من ثلاثة؛ من القائل، ومن المقول فيه ومن الذي إليه القول، والغاية إثما هي نحو هذا، أعني السامع، فالسامع لا محالة إما نظر وإما

1)- Question de rhétorique, Langage, Raison et séduction, P: 125.

2)- المقال الحجاجي والاستدلال الحجاجي، ص: 112.

3)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط1، ص: 33.

حاكم، والحاكم إما في المستقبلات كرئيس الجمع الذي يحكم في اللائق. قد كف كالقاضي، وأما الناظر فللقوّة، فمن الاضطراري أن يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس؛ مشوري، ومشاعري، ومثبتي⁽¹⁾.

ومن هذا النص نفهم أن "أرسطو" قد ميّز بين الخطابة الاستشارية، والخطابة القضائية والخطابة الاحتفالية، ولهذا يمكن القول: إن الحاجاج القضائي هو حال كذلك في الخطابة القضائية التي تتميّز بمقامها وحالها وبحججها وأقيمتها.

وتختص الخطابة القضائية -إجمالاً- عند أرسطو من القوانين، والشهود والاعترافات، وأقوال الحكماء، ولذلك تعد حججاً جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها، وتواترها وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه⁽²⁾. كما سبق الذكر.

أما القياس الخطيبي الذي يجسد الحاجاج القضائي، فهو ذلك القياس القائم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، ولعل الداعي إلى هذا القياس (القياس المضمر) هو ضرورة التبرؤ من التهمة بالاحتجاج والأدلة المقنعة؛ لأن القضايا القضائية تعد بمثابة مشاكل تحتاج إلى حلول، تصاغ في شكل أحكام وقرارات.

1) - الخطابة، أرسسطو، ص: 17.

2) - بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 65.

وبمجرد ما تطرح المشكلة، فإن إمكانية الرأي المعارض وإمكانية النقاش تصاحب هذا الطرح،... عندما تعالج مشكلة ما في سياق معين تصبح الحجّة هي الجواب المصاحب للنتيجة "الحل" على حدّ تعبير ميشال ماير⁽¹⁾.

والواقع إن كل ما يواجه الناس أفراداً وجماعات من مشاكل يضطرهم إلى الاستعانة على الأقل بأداتين لخولة حل هذا المشاكل، وهاتان الأداتان هما: اللغة والسؤال أي التحاور⁽²⁾.

ولأن المرافعات والمداولات القضائية تقوم على التحاور يمكننا القول: إن القضاء وأحكامه تشكل مجالاً خصباً للتدليل والحجّة، وفق قوانين هذا الحقل وضوابطه.

وإذا كان إصدار الحكم من اختصاص القاضي أو الهيئة القضائية، فإن المحامي المكلف بالدفاع عن قضية ما، مضطرب للبحث عن القرائن والحجج القوية والمحققة للتأثير على قرار القاضي قبل الشروع في المداولة التي تشكل إطاراً للتحاور ولفحص الحجج والاستنباطات وتبرير الحكم الصادر تبريراً قانونياً ومنطقياً⁽³⁾.

ومعلوم أن المداولة لا تتم إلاّ بعد استماع القاضي أو لجنة القضاة إلى تصريحات أطراف النزاع، وإلى رأي المدعى العام، وكذلك إلى آراء الشهود والمحامي، ولكن على الرغم من أن تلك الأحكام والقرارات الصادرة عن القضاة

1)- Logique, Langage et argumentation, M. Meyer, P: 137.

2)- المقال الحجاجي والاستدلال الحجاجي، ص: 113.

3- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 113.

بعد المداولة، تكون نتيجة لقياس واستدلال حجاجي تظلّ احتمالية وترحيبيّة قابلة للطعن والاستئناف.

وبحسب بالذكر، أنّ الحجاج القضائي يستعمل عدّة عمليات عقلية ومنطقية (قياس، استباط، استنتاج،...) مما يوحي بوجود "منطق حجاجي"، ولكن لا يمكن في أيّ حال من الأحوال الإدعاء بوجود "منطق قضائي خالص" وذلك أنّ أصالة تدخلات القاضي والمحامي لا تكمن في القياس والاستباط بل في إقامة المقدمات وتاؤلها، ويتم هذا على صعيد القضية الكبرى أولاً، ثم على صعيد الواقع والمعطيات⁽¹⁾.

ثم إنّ أي تفكير قد يكون معقولاً ومنطقياً دون أن يخضع بالضرورة لقواعد المنطق أو البرهان وشكلانيته مادام الأمر يتعلق بحجج وأدلة تفسيرية أو تبريرية مصدرها وجهة نظر معينة⁽²⁾.

وبحسب وجهة نظر أرسطو، فالقاضي لا يقيس ويستبط صوريّاً، وإنّ كان منتجًا للحقيقة واليقين، كما أنه لا يجادل ويحتاج ليقنع ويتعنت، وإنّ كان خطيباً عمومياً؛ إن القاضي يختار القوانين التي يراها ملائمة للحالة أو النازلة المفحوصلة ثم يقوم بتأويل تلك القوانين في اتجاه تبرير الحكم تبريراً مدعماً بالحجج المتماسكة⁽³⁾.

1)- Le raisonnement, Robert Blanché, p.u.f, Paris, 1973, P : 236.

2)- المرجع نفسه، ص: 239.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 114.

صحيح أن القاضي لا يستتبع نتائجه من مقدمات يقينية، ولكنّه يقوم بتمحیص ما يقدم من معطيات وواقع، ثم يربطها بربطاً حجاجياً بالقواعد والمتون الحجاجية، أما الحكم أو القرار النهائي فهو نتيجة لتحكم الضمير وأعمال التبرير العقول والمقبول معاً⁽¹⁾.

ومن هذا التحليل، نستخلص أن الحجاج القضائي يجمع بين نوعين من الحجاج: هما الحجاج الخطابي والحجاج الفلسفـي فمن جهة يجمع بين الإقناع والتأثير، ومن جهة أخرى يجمع بين الحجة العقلية والمنطق مستعيناً في ذلك بالصرامة النطقية اللفظية والإقناعية البلاغية.

وفي هذا الاتجاه، يقول "ج. إزار" (G. Izard) أحد المحامين الغربيـين المشهورـين: "إنّ الهدف من الدفاع هو الإقناع وقادته العليا هي الوضوح، ومثل الدفاع هو إنشاء تسلسل في غاية الوضوح، وتناسق منطقي جيد: إنشاء فحص ودحض متـكامل للاعتراضات حتى يستطيع هذا التيار المتـسلسل في ذهن القاضي، ولا يترك أي مجال لرأـي مضاد، ولا يجب للأسلوب أن يلفّ ويدور كيـفما اتفـق ذلك، فالصـيغ الجـيدة هي التي تلـخص وتكـشف وتـلزم بمجموع البراهـين في جـمل وـكلمات مختـصرة"⁽²⁾.

والعلـّ المتـبع لهذا الكلام، يستـتبع أنـّ المحامي يستـعمل في دفاعـه عن المتـهم حجاجـا خطابـيا (بيانـيا) وـمنطـقـيا في الآـن ذاتـه؛ فهو يـجمع بين كلـ من التـعـيل والتـصدـيق والإـقنـاع ولكنـ لا يمكنـ بأـي حالـ من الأـحوالـ، أنـ تنـزل تلكـ

(1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجـي، ص: 114.

2)- Le Raisonnement, R-B, P: 136.

الحجج والبراهين القضاوية إلى مستوى الصور البينية والبلاغية المقيدة بالمنحي الجمالي والإمتاعي؛ لأن الحجاج القضائي يستدعي الصدق والصلاحية على أشكال الإدعاء والتبرير والحكم وفق ما تنتهي إليه القوانين والمساطير القضائية.

ب-6- الحجاج والفقه: يستلهم القضاء تشريعاته من الحاجة الفقهية وهذه الحاجة استنباطية وتقديرية فقط، وليس برهانية يقينية⁽¹⁾، وعلى حدّ تعبير "الفارابي" فإن صياغة الفقه هي التي يقتدر بها الإنسان على أن يستنبط تقرير شيء مما لم يصرّح واضح الشريعة بتحديداته على الأشياء التي صرّح فيها بالتحديد والتقدير، وأن يتحرّى تصحيح ذلك حسب عرض واضح الشريعة بالملة التي شرعاها في الأمة التي لها شرع⁽²⁾.

وإذا كان الفارابي يشير إلى نوع من استنباط المجهول من المعلوم، فإن محاولة تأسيس الشريعة والفقه الإسلاميين عند ابن رشد تقوم على الاستدلال والبرهان، بدل الجدل والحجاج الكلامي، وهذا ما عبر عنه بقوله: "إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة، إذ لم يكن في الصدر الأول، فإن النظر أيضاً في القياس الفقهي وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأول، ولا يرى أنه بدعة، فكذلك يجب أن تعتقد في النظر في القياس العقلي"⁽³⁾.

1) مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 114.

2) إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص: 107.

3) فصل المقال فيما بين الحكم والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص: 25.

تفهم من وجهة نظر ابن رشيد أنه يرى في "البرهان العقلي" والتأويل اليقيني" أصدق السبيل لاستنباط الأحكام والحقائق الشرعية⁽¹⁾.

مقنعاً في اعتقاده هذا أن البرهان كأدلة للعلم واليقين بدل الحجاج المفضي إلى الشك⁽²⁾.

ولكن القياس الفقهي مهما أريد له أن يكون قائماً على الاستنباط والاستقراء المنطقيين فإنه بحكم ثوابت الفقه وحقل بنائه، وتداوله لن يكون إلا نشطاً جديلاً حجاجياً وبلا غية معيارياً.

بـ-7- الحجاج والفلسفة: إذا كان الحجاج قد لقي مكانته في المقول السابقة فإنه لم يعدمها كذلك في الحقل الفلسفى، على الرغم من أن تلك الممارسات والاستدلالات في الفلسفة ليست مقصودة لذاتها وإنما هي متبرّرة بغايات بعضها تعليمية وعقلية (إقناعية، حوارية،...) وبعضها منهجية وفكرية (محالية، جدلية تحليلية، نقدية،...) وكل ذلك في ارتباط عضوي مع ما تتطلبه روح التفاسف⁽³⁾.

وروح الفلسفة كما هو معلوم، تتطلب وضع الإشكالات فلسفياً ومعالجتها معالجة "تفهم" اللغة وتشيد الأطروحة والمواقف والمنظورات تشبيعاً، عماداً للحجج والاستدلالات اللفظية⁽⁴⁾.

1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 115.

2) - المرجع نفسه، ص: 115.

3) - المرجع نفسه، ص: 116.

4) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبناءً على ما تقدم ذكره، فإن الفلسفة هي خطاب العقل والمعقولية؛ لذلك يعدّ الحجاج بعده جوهرياً في الفلسفة، ثم أننا نجد وثوقي العقلانية الفلسفية يرون أنّ خطاب الفلسفة هو خطاب الدليل والبرهان، لا خطاب الحجة والبيئة⁽¹⁾.

نفهم من هذا أنّ الأمر يتعلق هنا بقضية الإيمان والاعتقاد، إذ يتوجّب على المعتقد إقناع الآخر بالحجّة والحجج لكي يتقوى إيمانه، وهذا الصدد يقول "هير قريني" (H. Grainier): "عندما أعمل على الإقناع فإني أرغب في اقتسام اعتقادي مع الآخرين علماً بأنّ التفكير عندي، يعني التفكير مثلّي"⁽²⁾.

وبالتالي فإن غاية الفلسفة عند هؤلاء هي البحث عن الحقيقة، ولكن تفكير الحقيقة هو تفكير الدليل والبرهان، لا تفكير الحجاج والتعليق⁽³⁾، لأنّ الحقيقة التي تتغيّرها الفلسفة بحاجة إلى حجّة قاطعة لا إلى مجرد الحجة العادلة.

ولكن وعلى الرغم من معقولية الفلسفة وعقلانيتها البدائية؛ فهي مدينة بالكثير للغة الطبيعية، وما تتجّ به هذه الأخيرة من استعارات والتباسات. وصفوة القول: إنّ الخطاب الفلسفـي هو خطاب برهاني، ولكنه برهاني بالمعنى "المجازي" أو الشبيهي للبرهان لا بالمعنى الحرفي الدقيق له.

- علاقة البرهان بالحجاج الفلسفـي: إن الحجاج الفلسفـي يستلزم التصديق أكثر مما يستلزم التقرير أو الإقناع والإمتناع المباشر، غير أنّ المؤلعين

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 116.

2)- La Connaissance philosophique, Grenier Hubert, Ed Masson et Cie Parie, 1973, P: 148.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 116.

بالوجه البرهاني لم يفصلوا بين الافتتان بهذا البرهان وبين الاهتداء بمبادئه وملاحمه.

فالفلسفة باعتبارها أقوالاً وخطابات تستدلّ بالحجّة لا بالبرهان أو الدليل؛ لأنّ البرهان محكوم بمعيار الصحة والخطأ وذلك بناء على صحة نتائجه وكفايتها الذاتية ومعنى هذا أنّ نتائجه لا تحتاج إلى دعم أو تقوية خارجية. أمّا صدق البرهان فهو صدق قضایاه؛ لذا فإنّ قيمة البرهان لا تقادس برأي أو موقف لأنّ هذه القيمة مباطنة له والصدق الداخلي في البرهان وقابليته الرمزية (تحرّره من لبس الدلالة والتأنويل) يجعله أنساب لقضايا المنطق والرياضيات دون غيرها⁽¹⁾.

أمّا الاستدلال الحجاجي فهو لا يملك إلزامية وصرامة البرهان ولا موضوعية وقوّة الدليل؛ لأنّ صلاحية الحجاج الفلسفـي تـقاس بمعايير خارجـية، أي بمعايير قوته أو ضعفـه، كفايـته أو عدم كـفايـته، نجاحـه أو فشـله في الإقناع⁽²⁾. إذا، فغاية الحجاج ليسـت هي الصواب أو الخطأ بل التأثير والتقبـل؛ لـذا نجد من يذهب بالقول إلى أنّ: "مضامـين الخطـابـات الفلـسفـية لا يمكن اختـزالـها في خطـابـات وأنـسـقة منـطـقـية وكلـ محاـولةـ في هـذا الـاتـجـاهـ هي مجردـ وـهمـ"⁽³⁾. وـذلكـ لأنـ البـاحـثـ يـتعـاملـ معـ تـماـسـكـ مـسـارـاتـ المـفـاهـيمـ، لاـ أـمـامـ تـماـسـكـ القـضـاياـ المـنـطـقـيةـ.

1)- Le raisonnement, Robert Blanche, P: 223.

(2)- المرجع نفسه، ص: 223.

3)- Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988, P: 211.

ومن منظور "ج. غ. غرanger" (G.G.Granger) فإن البرهان مفهوم "رخوا" والذي يجعل منه برهانا "مننا رخوا" هو كونه عبارة عن نشاط خطابي لا يخلو من بلاغة وبراعة أسلوبية⁽¹⁾.

وانطلاقاً من هذا المنظور، فإننا أمام نوعين من البرهان: البرهان الحقيقى، والبرهان الفلسفى أو كما يسمى بالحجاج الفلسفى فإذا كان البرهان الأول مجاهلاً المنطق والرياضيات، فالثاني مجاهلاً الأطروحات والمفاهيم والإشكالات التي لا يمكن أن تختزل في قواعد بنائية أو علاقات رمزية وحيدة الدلالة⁽²⁾. ونستنبط من هذا نتائج البرهان الأول لا يمكن أن تكون هي نفسها التي ننتظرها من الحجاج الفلسفى، فالبرهان معناه اليقين والصدق، والدليل معناه التحقق والموضوعية.

واعتتماداً على هذا التباين بين البرهانين يذهب "ج. غ. غرanger" إلى الاعتقاد بأن خصوصية الاستدلال الحجاجي العقلي الفلسفى لا تكمن في "البرهنة" بل في "الإظهار" أو ربما "الوصف"⁽³⁾.

ولكن هذا الاعتقاد قد تعرض للنقد؛ لأن "المعرفة" الفلسفية لا يمكنها أن تخلص من "البرهان" الجاف، كما لا تكتفى ب مجرد "الإظهار" و"الوصف". وانطلاقاً من هذا النقد، تستنتج أنه لا يمكن المماضلة كذلك بين الفلسفة والمنطق أو العلم؛ ذلك، أنه مهما حاولت الأنساق البرهانية أو

1)- Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988, P: 211

(2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 117.

3)- Pour la connaissance philosophique- G.G.Granger- P: 214.

الاستدلالات العقلية أن تبتعد عن نموذج النسق اللغوي أو المعقولة اللقضية، فإن هذه الأخيرة تبقى هي المرجعية الأولى لاشغال العقل وعملياته، وهي الأكثر شيوعاً رمزياً وتواصلياً⁽¹⁾.

وبهذا نستخلص أن الفلسفة تستدل عقليا بالحجج اللفظية والخطابية، وتحلل الأفكار بالأفكار، لكنها لا تستدل بالبرهان القطعي القضاوي المنطقي كما لا تستدل بالدليل الواقعي الموضوعي الذي يؤسس القوانين⁽²⁾. وهكذا فإن الحاج الفلسفى هو تفكير أو "معرفة" على الطريقة الفلسفية، ولكن، ماذا عن الجدل والحوار داخل هذا الحاج؟

- الحجاج الفلسفى وقضية الجدل والمحوار: لا يمكن بأى حال من

الأحوال نسيان أن الفلسفة كانت في أصلها جدلاً ومناقشة، قبل أن تصبح

أنساقاً ومتوناً وقبل أن تتعدد مذاهبها ومسالكها واتجاهاتها.
فالفلسفة الأولى (الابتدائية) كانت خطاباً عقلياً لفظياً، أدواته الحجاج
العقلية والاستدلالات العقلية الكلامية، في مواجهة خطاب الاعتقاد الأسطوري
الذي لا يفسّر ولا يقنع، بل يتخيّل ويسود وينغرس في الوجودان والمشاعر الفردية
والجماعية⁽³⁾.

١) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 118.

- المرجع نفسه، ص: 118.

(3) - التفكير الفلسفي، إعداد وترجمة: عبد السلام بنعبد العالى و محمد سبيلا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، 1987، ج 17.

ولعل الدارس لتاريخ الفلسفة يكتشف أن تلك الفلسفة كانت قائمة على الجدل والمحاجة، وخير دليل على ذلك "الحقيقة" التي لطالما مهدتها "أفلاطون"، وذلك "العلم" الذي شيده وبناه "أرسطو".
واعتبارا من هذا، فلا أحد يمكنه أن ينكر ذلك بعد الجدل والمحاجي الذي مارسه الفلاسفة الأوائل؛ لذا يمكن القول: إن المحاجج الفلسفـي لا ينجلـي وينقشع إلا مع ممارسة الجدل العقلي والفكـري بـمعناه التـداوـلي، لا بـمعناه المـذهبـي أو الـديـاغـوـجي⁽¹⁾.

وإذا كان الاستدلال المحجاجـي الفلسفـي لم يرتبط بالـيرـاهـين أو الحـسـابـات الصـورـيـة، فـلـأـنـ طـبـيـعـةـ هـذـاـ اـسـتـدـلـالـ تـرـتـبـطـ بـالـجـدـلـ وـالـمـنـاقـشـةـ وـالـمـواـجـهـةـ بـالـكـلـامـ بـيـنـ المـوـاـقـفـ أوـ الـأـطـرـوـحـاتـ.

ومـاـدـاـمـ منـطـلـقـ هـذـاـ اـسـتـدـلـالـ هوـ الـأـطـرـوـحـةـ (ـالـمـوـقـفـ)ـ فـإـنـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـخـيـرـةـ أـنـ تـأـخـذـ بـعـيـنـ الـاعـتـبـارـ كـلـ الـاسـتـجـابـاتـ الـعـقـلـيـةـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ بـسـطـ هـذـهـ الـمـوـقـفـ فـيـ مشـهـدـ فـكـرـيـ حـوـارـيـ جـدـلـيـ.

وـفيـ هـذـاـ الـابـجـاهـ لـاحـظـ "ـرـ.ـبـلـانـشـيـ"ـ (R.Blanché)ـ أـنـهـ عـنـدـمـاـ يـعـرـضـ فـيـلـيـسـوـفـ ماـ فـكـرـتـهـ فـهـوـ يـفـعـلـ ذـلـكـ -ـغـالـبـاـ- عـبـرـ الـحـجـاجـ،ـ إـنـهـ يـتـمـسـكـ بـأـطـرـوـحـتـهـ وـيـدـافـعـ عـنـهـ؛ـ لـكـنـ هـذـهـ الـأـطـرـوـحـةـ لـيـسـتـ بـجـانـيـةـ؛ـ بـلـ يـكـوـنـ قـدـ توـصـلـ إـلـيـهـ بـعـدـ تـأـمـلـ طـوـيـلـ⁽²⁾.

1)- مقال المحاجج والاستدلال المحجاجـيـ،ـ صـ:ـ 119ـ.

2)- Le Raisonnement, R. Blanché, P: 230.

و فحوى هذه الملاحظة أنَّ الحوار والجدل يمثلان أرضية خصبة لاستنبات الاستدلال الحجاجي الفلسفى، وكذا لمناقشة الأفكار أو الدعوى. ثم إنَّ تفكير الفيلسوف وما ينطوي عليه من حوارية وجدل سيضطرّانه حتماً إلى صوغ أطروحته في شكل أحكام وجمل تؤكّد أو تنفي⁽¹⁾.

ولكن هذه الجمل قد تسبقها أو ترافقها أو تعقبها جملة من المخرج هي أيضاً أفكار وقضايا لفظية، مما يشكل نسقاً من الأفكار والمعاني التي تأخذ الواحدة منها برقة الأخرى، لتشكل في النهاية خطاباً عقلياً متماسكاً.

لذا فما من قارئ لنصوص الفلسفه إلاً ويتملكه شعور قويٌّ إزاء ما تكتنفه هذه النصوص من إرادة عميقه في إشراك الآخر بخصوصيته أو كونيته كمنصب متفق أو محاور مخالف⁽²⁾.

ولأنَّ الفلسفه تنبذ العنف والإكراء، ولأنَّ اللعنف هو نقطة بدايتها، ولأنَّه هو غايتها القصوى، ولأجل تحقيق تلك الغاية التبليلة فليس هناك أبل من وسيلة غير وسيلة خطاب المناقشة والحجاج والإقناع⁽³⁾. مما يوحى لنا بأنَّ الفلسفه كانت في الطريقة المثلى لطرح المشاكل، والبحث عن الحلول عقلياً، ولنا قدوة في "أفلاطون" الذي جعل المحاوره وسيطاً خطابياً لعرضه أفكاره الفلسفية.

1) - الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 120.

2) - المرجع نفسه، ص: 120.

3) - المرجع نفسه، ص: 121.

ونخلص في النهاية إلى أن ذلك الترابط بين الفعالية الجدلية -الحوارية، والفعالية الاستدلالية الحجاجية يشكل ما يسمى بالتناص؛ لأن المخاور حسب الباحث طه عبد الرحمن يدمج من نصّه نصوصاً معايرة سابقة، مما تلاه أو مبائية (...). ليصطفي نصّه بصبغة المعايرة الصميمية⁽¹⁾. الأمر الذي يوحى بوجود جدلية الأخذ والرفض.

- علاقة الحجاج الفلسفى بالبلاغة: كنا قد ألمحنا إلى أن الخطابة تلجم إلى الحجاج لغرض الإقناع العقلي والعاطفى معاً وذلك لأن الحجاج البلاغي الذى يسم الخطابة منذ أن وجدت إلى الآن يعتبر إجراءاً خطابياً استراتيجياً، إذا ما رام المتكلم التأثير في المخاطب واستعماله لأخذ قرار ما، أو اتخاذ موقف معين أو القيام بعمل ما، ولذلك فالصيغة الأسلوبية والصور الإستعارية والبيانية تعتبر من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية الحاجة الخطابية⁽²⁾.

أما في الفلسفة كفكير فإنّ بعديها العقلى والخطابي يتقطعان ويتكاملان، وهذا أمر لا شكّ فيه، ومن هنا تستحيل هذه الفلسفة إلى "خطابة" فلسفية؛ لأن أفكار الفيلسوف ومعانٍه لا تعرض عارية من متطلباتها التّغوية والأسلوبية⁽³⁾.

ولكن لابدّ من التنبيه إلى أن "الخطابة" الفلسفية وبلاغتها لا هدف إلى تحقيق التأثير العاطفى ولا إلى توجيه سلوك المتلقى توجيهاً مباشرأً وعملياً؛

1) - في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ص: 42.

2) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 122.

3) - المرجع نفسه، ص: 122.

ولكنها تسعى إلى جعل المتلقى يتقبل حقائقها متسللة في سعيها هذا إلى اللغة وطاقاتها التواصلية والاستدلالية.

ومن أجل هذا بين ج.غ. غرانيج أن الخطابة الفلسفية تقوم بتوسيع الأوضاع اللسانية، وذلك باستعمال الحوار والاستفهامات العرضية (...) لتنشيط التفكير⁽¹⁾. ملاحظ في الآن ذاته أن الخطابة الفلسفية تقوم ببنية وحدات الدلالة بحيث تعيد استعمال مضامين اللغة المتدالوة استعملاً فلسفياً، يلائم وضعية المفاهيم باعتماد الصور التشبيهية والاستعارية⁽²⁾.

ويفهم بعض الباحثين من البلاغة الفلسفية تلك الصور المُعتادة في الأداءات الأدبية والخطابية الصرفة، ولتجنب هذه المبالغة في مكانة البلاغة في الفلسفة، لابد من التنبيه إلى أن بلاغة الفيلسوف لا تشبه بلاغة الخطيب إلا في ملامحها العامة، وليس في كيفية تدبيرها وفي مسوّغتها وغايتها⁽³⁾.

وإذا كان التقاء الفلسفة مع الخطابة والبلاغة قد يحصل، إجمالاً في نطاق الحجاج الفلسفي وضفافه فإن ذلك لا يبرر الاندفاع إلى ربط علاقة التبعية بين الحجاج الفلسفي وبين صور البلاغة ومحسّناتها وإن كانت الباحثة "جاكلين روس" (J.Russ) قد أثبتت على هذه المحسنات⁽⁴⁾.

وبديهي أن تختلف بلاغة الفيلسوف عن بلاغة الخطيب لأن الفيلسوف يشبه، ويستعير، ويصف، ويمثل، ... ليمفهوم التصورات الأولية وليس شكل

1)- Pour la connaissance philosophique, P: 205.

2)- المرجع نفسه، ص: 205 - 206.

3)- Les méthodes en philosophie, P: 50-53.

4)- Ibid, P: 50-53.

القضايا، أو ليجعل استدلالاته الحجاجية تصدر عن العقل دون أن تتجاهل متطلبات التلقي⁽¹⁾.

ولهذا لا نستغرب أن نجد الصور البلاغية وتحققاها الأسلوبية تحظى بمثابة كبيرة في النصوص الحجاجية من النوع الإشهاري والصحافي والإيديولوجي؛ ذلك أنها تستلهم بعض ملامح حجاجها من بلاغة الشعر والخطابة، وما تأثر بهما من أحناس قوله أخرى والتي يندرج حجاجها ضمن دلالتها ومحتوها⁽²⁾.

وإذا كان هناك من فرق بين حجاج بلاغة الفلسفة وحجاج البلاغة كبلاغة؛ فإن الفرق يكمن في كون حجاج بلاغة الفلسفة ليس مقصوداً لذاته ولا يقتضي دلالة حتمية، بينما يندرج حجاج بلاغة الشعر والخطابة ضمن نسيج ودلالة هذه الأقوال والكتابات⁽³⁾.

وإذا أخذنا على سبيل المثال النص الشعري، فإن حاجته إلى التخييل والتصوير تولد بالضرورة حاجته إلى المحاز، وذلك لأغراض دلالية. وهذا ما ذهب إليه إبراهيم خليل بالقول إن "الاستعارة تعمق المعنى عبر محور الاستبدال، وهو اختيار شيء لوضعه في موضع شيء آخر، في حين أن

1) - مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 122.

2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3) - المرجع نفسه، ص: 123.

الكنية تعمق المعنى عبر خط آخر هو المحاورة، وكلاهما أى محور الاستبدال والمحاورة يؤثر في البعد الدلالي للنص الشعري⁽¹⁾.

ومن منظور عبد الحق منصف فإنه "لا يمكن التفكير في الاستعارة داخل الخطاب الفلسفي، بوصفها محسّناً بلاغياً، بل بوصفها مكوناً داخلياً من مكوناته (...)" وربما كانت إحدى ركائزه⁽²⁾.

ولكن الفيلسوف لأجل من يستدل ويحاجج؟ ولمن يضرب الأمثال
ويتساءل؟ ولماذا يثبت ويفي؟ ولماذا يستشهد ويلمح، يحلل ويفسّر؟ إله يفعل
ذلك ليقتسم ما يدور في فكره مع مخاطب مرئي أو محتمل.

وهكذا لم يكن "فرديرك نيتشه" (F. Nietzsche) بعيداً عن الرؤية الصائبة عندما قال: "كلما كانت الحقيقة التي تريده تعليمها أكثر تحريراً كلما وجّب عليك أن تزيّنها لاغواء المواس" ⁽³⁾.

ويقصد "فرديرك نيتشه" بالحقيقة تلك الحقيقة الفلسفية "الجريدة" والتعليم الذي يمارسه صاحبه هو علاقة الأنما بالآخر. أما التزيين المطلوب فهو تزيين عما ينادي البلاغة وأساليب اللغة.

1)- الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص: 98.

2) - مقال مفارقات الخطاب الفلسفى بين الاستعمال المفاهيمى للغة والاستعمال الاستعارى، عبد الحق منصف، مجلة الفكر العربى المعاصر، عدد مزدوج 100/101، بيروت، 1993، ص: 70.

(3)- ما وراء الخبر والنشر، فريديريك نيتشه، ترجمة: جزيلة فالور حجّار، ط1، 1995، ص: 127.

الحق الجنائي الذي تجتمع لديه أدلة مختلفة غير مترابطة في ظاهرها فيحاول هو أن يربطها معاً ليهتدى بها إلى دليل متكامل يرشده على هوية الجرم⁽¹⁾، كما أشار إلى ذلك (روبير ماثير).

ولعل من نافل القول، أن نشير إلى أن عملية الكلام والاستماع محاطة كثيراً بظروف قد تكون غير مواتية فتشوه الأصوات أو تعرقل مسيرها في الهواء، أو تعترض تلك المسيرة أو تقحم فيها أصواتاً أخرى بحيث لا تصل الرسالة الصوتية واضحة وضوحاً كاملاً إلى أذن السامع.

ومعلوم أن كل مستمع يحاول أن يتخلص الرسالة الصوتية التي يحتمل أن تكون قد صدرت عن المتكلم، مستفيداً من معرفته السابقة للغة، وهذه المعرفة المتّبعة أمر هام للغاية لسبعين: أو هما؛ أنها تزود المستمع بتوقعات معينة من حيث الأصوات التي يسمعها، كما أن هذه التوقعات تسحب أيضاً على النظام اللّغوي مثلما تسحب على نظام المعاني في اللغة⁽²⁾.

ولا أحد ينكر أن كل إنسان سوي مزود في ذهنه بمعرفته لأنظمة لغته؛ من نظام صوتي، ونظام نحوي، ونظام للمعاني؛ ولذا فهو يتوقع أن يسمع كلاماً يتماشى وهذه الأنظمة جائعاً؛ ولكن ليس من الضروري أن يسمع كل ما يتوقع سماعه؛ ومن أجل ذلك فهو يفتح فيما يسمعه عن استشارات تشير إلى الإطار العام لتركيب الجملة، وبالتالي فإنه يتوقع ما هو آت من الكلام.

1)- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص: 201.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فمثلاً: نحن كمتحدثين باللغة العربية، عندما نسمع شخصاً يبدأ كلامه قائلاً: الرجل... فإننا نتوقع أن نسمع الخبر؛ لأنّ معرفتنا بلغتنا العربية زوّدتنا بالترافق الأساسية للجملة البسيطة، وسواء كنا مثقفين أو أميين فإنّ في ذهننا أن الجملة البسيطة في اللغة العربية تتألف من عنصرين هما، المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، كما أنها نعرف أيضاً أن المبتدأ يسبق الخبر - غالباً - لذلك فحالما نسمع كلمة "الرجل" تعتبرها مبتدأ وننتظر الخبر الذي يمكن أن يكون كلمة واحدة مثل: "مريض" فتصبح الجملة: الرجل مريض أو شبه جملة: الرجل في البيت. أو فعلاً وفاعلاً: الرجل يدخن.

وهكذا فإنّ معرفتنا بقواعد لغتنا يجعلنا نتوقع ما هو آت من الكلام بناء على معرفتنا أيضاً بمعاني المفردات، ولقد دلت الأبحاث التي اتبعت هذا النهج في الدراسة، وخاصة تلك التي قام بها "توم بيفر" (T.G.Bever) في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية، أن المستمع يسمع ما يتوقع أن يسمعه، ويتساعده على هذا التوقع معرفته بأصوات لغته ومعرفته بقواعد لغته، ومعرفته كذلك بمعاني مفردات لغته، وكذلك معرفته بالعالم بوجه عام وبخضارة أمتها بوجه خاص⁽¹⁾.

وخلاصة ما سبق ذكره أن المستوى الذي تقوم عليه عمليات التفريق بين الأصوات في اللغة البشرية يتغير كثيراً، ولذلك أشار "فيليب لبيرمان" إلى أن القطع الصوتية تأتي إلينا بمستوى 20 إلى 30 قطعة في الثانية، بينما أسرع مستوى

1)- The Cognitive basis for linguistic structure in « hayes, cognition and The development of language, T.G.Bever, (N.Y.Wiley 19970), P184.

- نقلًا عن أصوات على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص: 203.

يمكن أن يصل إليه مستوى التعرّف الذي يعتمد عليه بين الأصوات المفردة في التابع بين سبع وتسع قطع في الثانية. والنظام النظري (Visuel System) يقع تقريرياً في المستوى نفسه. ومن أجل ذلك يضيف السامع أو القارئ كما سبق الذكر معلومات من مخزونه الذهني يكمل بما ما يفوتة أو ما لم يفهمه، ومعنى ذلك أن ما ينتج عند وضع قطع الجمل في سياق منطوق أو مكتوب ليس هو الجملة التي تنقل أفكاراً محدّدة، وإنما مشروع جملة، ومجموع هذه المشاريع أو ناتجها يشكل مشروع نص وليس نصاً، وذلك كله بعد استقرار الأفكار لدى المتواصل معه⁽¹⁾.

وبعد هذا العرض البسيط لعوامل تكوين الفهم، نخلص إلى أنه إذا كان تكوين النص، يعتمد على المتلقى الذي يوجه الفعل الكلامي، ويعتمد عليه بمحاج الحديث الاتصالي، لا على المنتج، فإن المعانٍ الأقرب إلى ذهن المتلقى هي التي تكون مفضلاً لديه، والشيء نفسه يتحقق عندما يكون للعبارة أو النص أكثر من دلالة، فإنه يختار أكثرها سهولة أو بساطة، ففي الدعاية مثلاً؛ عندما يكون للعبارة أكثر من معنى، ويكون أحد تلك المعانٍ جنسياً، فإن المعنى الجنسي هو الذي يقفز أولاً إلى ذهن المتلقى⁽²⁾.

ولكن ما الفرق بين معنى النص وبين مفهومه؟

1)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 365.

2)- On the cognitive aspects of the Joke, R.Giora, jornal of pragmatics, 16 (1991), P: 477.

- نقل عن مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 365.

في كثير من التصورات الذرعية يفرق بين معنى النص ومفهومه وذلك لأنّ أغلب عناصر النص لها دلالات ذرعية في طرح المُحجَّج مثلاً أو صيغ الخطاب أو طرق الكلام، وحتى في الكلمات المفردة أو الجمل الكاملة التي يكون مضمونها قابلاً للدراسة، ومع ذلك لا يمكن فهمها بشكل صحيح إذا لم يرجع إلى المواقف التي قيلت فيها أو إلى الخلفية المعرفية المرتبطة بها، ومعلوم أنّ كل عنصر في النص له من ناحية المبدأ إمكان ذرعى، والواقع أننا نتكلّم من أجل أن نبلغ هدفاً⁽¹⁾.

ومن خلال خلفية المواقف المختلفة، يمكن أن يفرق هنا بين معنى النص بوصفه ذلك المضمون الذي يحتويه النص تركيباً ودلالة (أي ما يوجد في النص فعلاً) وبين مفهوم النص بوصفه الشيء الذي ينقله النص في موقف معين وبدلاً من مفهوم النص يمكن أيضاً أن تسمى "الوظيفة الاتصالية".

يستنتج مما سبق أن النص يدخل في سياق حدث ينبع في إطاره تبعاً للهدف المقصود، ويفهم في إطاره أيضاً، أمّا ما يؤخذ من مفهوم النص أو الوظيفة الاتصالية، فإنه لا يعتمد على النص فقط، بل يجب على المتلقى أن يتلقاه من تراكم معقد من معنى النص وعوامل إنتاج الموقف وفهمه (يتبع إلى ذلك شركاء الاتصال والغرض من الكلام وكذا حدود العلاقات بين هؤلاء الأطراف)⁽²⁾.

1)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 366.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبعد هذا، يبدو التباين بين معنى النص ومفهومه في النصوص المنطقية أكثر جلاءً، الأمر الذي يوضح إعطاء وزن أكبر في حالات الحوار للعوامل غير اللغوية المساعدة في تحديد المفهوم، خصوصاً نبرة الصوت، وتعابير الوجه، والحركات الجسمية المصاحبة أكثر من حالات النصوص الأحادية (الكاتب والنص).

وفي النهاية، نخلص إلى أنَّ أهمَّ الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بالخطاب هي تلك الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللغوية، والتي كان لها الفضل في وضع الأسس التجريبية والنظرية لتحليل الخطاب، وتحديد طبيعة العلميات المعرفية المستخدمة في إنتاج الخطاب وفهمه، وتخزينه وإعادة إنتاجه، بالإضافة إلى القواعدعرفية العامة، وكذلك البلاغة الجديدة والشعرية والتداولية التي تعدَّ أحدث فرع من العلوم اللغوية التي تعنى بتحليل عمليات الكلام والكتابة، ووصف وظائف الأقوال وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام.

الفصل الثاني

الخطاب الإقناعي - وسائله و مجالاته -

١- الإقناع

٢- وسائل الإقناع

٣- مجالات الإقناع

I- الإِقْنَاعُ:

I-1- مفهومه:

ينحصر الإقناع للقوانين التي تحكم عملية الإدراك والمعرفة والدافعية لدى يرى محمد عبد الرحمن عيسوي أنَّ الفرد يميل إلى الاقناع بالإيحاءات التي يعتقد أنها تصدر من الأشخاص ذوو المكانة الاجتماعية البراقة⁽¹⁾. كما يعرف الإقناع بأنه آلة رئيسة لتكوين الآراء والآراء والموافق⁽²⁾.

والإقناع عند "والاس" "تأثير المصدر في المستقبلين بطريقة مناسبة ومساعدة على تحقيق الأهداف المرغوب فيها، عن طريق عملية معينة، أين تكون الرسائل محددة لهذا التأثير"⁽³⁾.

ويعرف "توماس شايدل" (Thomas Scheidel) الإقناع بأنه "محاولة واعية للتأثير في السلوك"⁽⁴⁾.

1)- دراسات في علم النفس الاجتماعية، عبد الرحمن محمد عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص: 19.

2)- رسائل الإعلام وأثرها على تقييم نشأة الطفل الاجتماعي المجتمع العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1992، ص: 170.

3)- Theory of Amman communication, Stephen W, little john, Charles E-Merrill company, 1978, P: 163.

4)- Persuasive speaking, Scott, scheidel, Thomas M foresman and Co. Glenview, 1967, P: 01

- نقلًا عن مقال: النص الحجاجي العربي، محمد العبد، مجلة فصول للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 60، 2002، ص: 45.

بينما يرى "أوستن فريلي" (Austin Freely) أن الإقناع والحجاج جزءان من عملية واحدة، ولا اختلاف إلا في التوكيد (Emphasis)؛ يولي الحجاج الدعاوي المنطقية أهمية خاصة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوي الأخلاقية والعاطفية، أما الإقناع فإنه ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده⁽¹⁾. وإلى جانب ما سبق من تعاريف يرى كل من "هوارد مارتين" (Howard martin) و"كينيث أندرسون" (Kenneth Andersen) أن كل اتصال هدفه الإقناع، وذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال⁽²⁾.

ويبدو أن هذين الباحثين بتعريفهما هذا؛ يقصدان الإقناع بمعناه العام؛ وليس الإقناع الحجاجي الذي يصدر عن وسائل منطقية ولغوية خاصة. ويمكن توضيح هذه المسألة بالنظر إلى نصوص الخطابة العربية، إذ يكون النص الخطابي نصاً إقناعياً، ولكنه ليس نصاً حجاجياً بالضرورة، لأنه لا يعبر بالضرورة عن قضية خلافية.

1)- Argumentation and debate, Freely Austin, J. wids worth publishing Co.Belmont, 2nd, 1966, P: 07.

- نقلًا عن مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 45.

2)- Speech communication, Martin Howard, H. Andersen, Knenneth E-Allyn and bacon, Inc boston, 1968, P:06.

- نقلًا عن المرجع السابق، ص: 45.

وبناء على ذلك، فإن كل نص حاججي نص إقناعي، ولكن ليس كل نص إقناعي نصًا حاججيًا، يرتبط الإقناع إذن بالحجاج ارتباط التص بوظيفته الجوهرية الملزمة في محيط أنواع نصية أخرى كالوصفيات والسرديات⁽¹⁾.

وعلى آية حال، فهناك من يفرق بين نوعين من الإقناع، فهناك الإقناع العقلي، وهو أحد أشكال النفوذ المرغوبة والكريمة، ويتم بواسطة الاتصال العقلي هذا الشكل الذي يقوم به (أ) ليتمكن (ب) من الوصول إلى فهم الموقف الحقيقي من خلال توفير المعلومات الصحيحة، حيث يتطرق الإقناع عن طريق الاتصال العقلي مع مبدأ الأخلاقي الذي أوصى به "كانط" (Kant) ومؤدّاه أنّ المرأة لابدّ أن يتعامل مع أقرانه من البشر بوصفهم غایات في ذاتهم، وليس مطلقاً كوسائل للوصول إلى غاية⁽²⁾.

وهناك الإقناع الخداعي، ويتمثل هذا النوع من الإقناع في صور غير أمينة للاتصال، لا تتضمن نقل المعلومات الصحيحة فحسب، وفي هذه الحالة يمكن أن يكون الإقناع مقصوداً؛ حيث يقوم (أ) بإقناع (ب) ليقوم بعمل ما، أو سلوك ما، ليس عن طريق تزويده بالفهم الصحيح للبدائل المبنية على المعلومات الصحيحة، ولن عن طريق تشويه فهم (ب) لهذه البدائل⁽³⁾.

1) مقال: النص الحاججي العربي، ص: 45.

2) الإقناع الاجتماعي (خلفيته النظرية وألياته العملية)، د. عامر مصباح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص: 17.

3) المرجع نفسه، ص: 17.

ولكن هذا النوع من الإقناع لا يتوافق مع المبادئ الأخلاقية "الكانت"، لأنّ الناس ضمن هذا الإقناع لا يعاملون كغaiات وإنما كوسائل وأدوات أو مواضيع لتحقيق الأغراض.

ومهما يكن فإن الإقناع الخداعي يجد أرضيته الخصبة في كلّ من الدعاية المغرضة، وفي وسائل الإعلام الإشهارية وكذا في المجال السياسي.

وبحمل القول فإن الإقناع: عملية إيصال الأفكار والاتجاهات والقيم والمعلومات إما إيحاءً أو تصريحاً، عبر مراحل معينة، وفي ظلّ حضور شروط موضوعية وذاتية مساعدة، وكلّ هذا عن طريق الاتصال.

ومن جهة أخرى لابد من الإشارة إلى أن مفهوم الإقناع يرتبط بمفهوم آخر وهو التأثير، ويکاد هذان المفهومان يكونان متلازمين؛ فظاهر لفظ التأثير يشير إلى عملية تبدأ من المصدر لتصل إلى المستقبل مع توفر إرادة لذلك في حين أنّ مصطلح التأثير يشير إلى الحالة التي يؤول إليها المتلقى بعد التعرض لعملية الإقناع واستقبال الخطاب وتفاعلاته معه⁽¹⁾.

فالتأثير إرادة و فعل للتغيير السلوك والاعتقادات أو الآراء، أو على الأقل تعديلها أو ترسیخ قيم وأفكار جديدة، أمّا التأثير فهو النتيجة الحقيقة من وراء عملية التأثير وبهذا ندرك أن التأثير مرادف للإقناع، والتأثير مرادف للاقناع⁽²⁾.

1) - الإقناع الاجتماعي، ص: 17

2) - المرجع نفسه، ص: 18.

وهناك مصطلح آخر قريب من مصطلح الإقناع وهو "الإيحاء" الذي يشير إلى التأثير غير المباشر في سلوك الآخرين عن طريق النفوذ النفسي، والقدرات السيكولوجية للمقنع⁽¹⁾.

ويعرف "الإيحاء" على أنه: "التأثير النفسي القائم على التقبل الصاغر لما يوحى به من عمل أو سلوك أو أفكار أو رغبات"⁽²⁾.

ونستنتج من هذا أن الإقناع يمثل عملية تتقاسمها عدة مراحل حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، وهي التأثير في سلوك الفرد، إما بتغيير هذا السلوك أو بتعديلاته، أو بناء رأي أو اتجاه جديدين؛ ولذلك نجد "وليرشام" و"دونالد روبرت" يعرّفان الإقناع على أنه "عملية اتصال تتضمن بعض المعلومات التي تؤدي بالمستقبل إلى إعادة تقييم (Réapprissee) إدراكه لمحيطه أو إعادة النظر في حاجاته وطرق التقائها أو علاقاته الاجتماعية أو معتقداتها أو اتجاهاته"⁽³⁾.

ومن خلال هذا التعريف يظهر أن عملية الإقناع هي تلك العملية التي ترمي إلى توضيح وبيان كيفية إشباع حاجات الفرد، وتحقيق رغباته؛ وإن كان الإقناع في حقيقته أوسع وأدق من مجرد إشباع وتحقيق الرغبات.

وحتى تؤدي عملية الإقناع غرضها وتحقق هدفها يرى "هبرت ليونبرجر" أنه يجب على هذه العملية أن تتم عبر المراحل التالية⁽⁴⁾:

1)- الإقناع الاجتماعي، ص: 19.

2)- وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي، ليلي داود، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2000، ص: 170.

3)- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان أحمد رشى، دار الفكر العربي، 1975، ص: 17.

4)- المدخل السوسيولوجي للإعلام، أحمد الخشاب وأحمد التكلاوي، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1974، ص: 25.

- 1- مرحلة إدراك الشيء (Awareness): وهي المرحلة التي يختبر فيها المخاطب أو الجماعة لأول مرة الفكرة أو الصور أو الاتجاه الجديد، وفي هذه المرحلة يمكن للمخاطب أن يقبل ما قيل له أو يرفض ذلك.
- 2- مرحلة المصلحة والاهتمام (Interest): وفيها يحاول المتلقي أن يلتمس مدى وجود مصلحته فيما يطلب منه.
- 3- مرحلة التقييم أو الوزن (Evaluation): وفيها يبذل المتلقي الجهد للمقارنة بين ما يمكن أن يقدم له هذا الأمر أو الاتجاه الجديد، وبين ما تقدمه له ظروفه الحالية.
- 4- مرحلة المحاولة (Trial): واختبار أو تجربة أو جسّ نبض الشيء من قبل المخاطب أو المرسل إليهم من ناحية ومحاولة التعرف على كيفية الاستفادة من ناحية أخرى.
- 5- مرحلة التبني (Adoption): وفيها يصل المرسل إليه أو الجمهور إلى حالة الاقتناع الكامل شفهياً وعملياً بالفكرة الجديدة أي بالمطلوب، حيث تصبح هذه الفكرة جزءاً من الكيان الثقافي والاجتماعي للفرد والجماعة.
ومن زاوية أخرى أشار كل من "رلين" (Ryan) و "gross" (Gross)
إلى أن تبني الفكرة الجديدة يتم عبر مراحل أربع هي⁽¹⁾:
 - 1- الشعور بالفكرة.
 - 2- الاقتناع بفائدها.
 - 3- محاول قبولها.

(1)- دراسات في العلاقات العامة والإعلام، علي عجوة، القاهرة، عالم الكتب، 1985، ص: 26.

4- التبني الكامل لها.

١-٢- بعض نظرياته الإقناعي والتأثير:

إن استمالة الرأي العام نحو فكرة معينة هي هدف كل قائم بالإقناع والتأثير، ومن أجل ذلك ينصب اهتمام القائمين به على أفضل السبل للوصول إلى تغيير اتجاهات هذا الرأي أو بناء اتجاهات جديدة أو تعديلها أو لفت انتباه الجمهور نحو قضية معينة.

وعلى هذا الأساس تراكمت البحوث العلمية في هذا المجال بشكل لم يصبح الإقناع والتأثير مجرد طريقة فنية يمارسها الخطيب البلع وأنا أصبحت علمًا يدرس.

ولقد بدأ الاهتمام بالإقناع والتأثير بعد ظاهرة الدعاية النازية والدعائية الشيوعية، والدعائية الصهيونية بعد الحرب العالمية الأولى، حين أصبحت الدعاية والتأثير على الرأي العام وعلى معنويات الشعوب والمقاتلين لا تقل أهمية على سلاح الدبابات والطائرات^(١).

فالإقناع يستهدف معنويات الخصم بالتشكيك والتضليل والإحباط من القدرات، مما يساعد على شنّ الحروب، كما يستهدف معنويات الجنود فتشحذ هممهم وتعياً وتتفتح فيهم روح القتال والدفاع والأمل في النصر وما إلى ذلك. كما يمتدّ الإقناع إلى مجال آخر وهو مجال تسويق البضائع فأصحاب المصانع والشركات يولون التسويق الإقناعي لبضائعهم في وسائل الإعلام أهمية

(١) - الإقناع الاجتماعي، ص 09.

كبيرى، على اعتبار أن اقتناع المستهلك للبضاعة هو المحدد لمستقبل المؤسسة المنتجة.

ولا يقف الإقناع والتأثير عند هذين المجالين وإنما يتعدايان ذلك إلى مجالات أخرى كالحملات الاجتماعية، والتسويق السياسي (تسويق الإيديولوجيات والأفكار ومشاريع الحكومة) وكذا مجال علم النفس العيادي⁽¹⁾. ونظراً لهذه الأهمية القصوى للإقناع والتأثير سعى بعض العلماء، خاصة علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى دراسة هذه الظاهرة فنظروا لها بناءً على متطلبات العصر، ومن هؤلاء "ميشال لونات" و"والاس".

١-٢-١- نظرية التأثيرات الثلاثة:

تتم عملية الإقناع والتأثير في سلوك الأفراد عبر ثلاث مراحل حسب نظرية "ميشال لونات"⁽²⁾، وهي التوعية، والتشريع ثم التتبع أو المراقبة ومن هذه التسميات اشتقت اسم نظرية التأثيرات الثلاثة Convaincre, Concaindre, Contrôle.

أ- مرحلة التوعية :

تضمن التوعية آليات الإقناع اللسانى والتوضيح والتفهيم، وتعزيز كل ذلك بالأدلة والبراهين المقنعة التي تنساب إلى عقول المستقبلين، على أن يتتوفر في الأفكار المراد إيصالها البساطة والوضوح، حتى لا يتعب المتلقى في فك رموزها

1)- الإقناع الاجتماعي، ص: 10.

2)- الإعلام الاجتماعي، ميشال لونات، ترجمة: صالح بن حليمة، مراجعة: مصطفى المصمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1993، ص: 13-16.

أو ما غمض منها، وبالتالي يسهل عليه فهمها وفهمها، فتتأثر بذلك الرسالة الإقناعية المصداقية، وممّا يساعد كذلك على فهم هذه الرسالة، وضوح الغرض المقصود⁽¹⁾.

ولا يتوقف نجاح هذه المرحلة عند هذا الحدّ فحسب، بل لا بدّ للمرسل من أن يختار الظرف المناسب لإلقاء رسالته حتى تجد صداقتها، أو الآذان الصاغية والقلوب الرحمة فللظرف المحيط أو الراهن فعله كذلك في عملية الإقناع والتأثير.

بـ- مرحلة التشريع :

من منظور "ميشال لونات" يجب أن تعزز مرحلة التوعية والتغيير. مرحلة تابعة تمثل في إصدار قانون يدعم الفكرة وينبع المتلقى من مخالفتها؛ ولذا يرى أنّ التوعية وتوضيح الأشياء وبيان العواقب غير كاف للتأثير في سلوك المتلقى للإتيان بالأمر المطلوب أو الامتناع عنه، فالاقتراح والتأثير لا بد وأن يحملان في طياتهما معنى السلطة والمسؤولية والاختيار والترغيب والترحيب⁽²⁾.

ولعلّ المبرر لرأي "ميشال لونان" حول إصدار القوانين هو أنّ الإنسان يجد نفسه عاجزاً أمام سلوكه ونزواته ورغباته ودوافعه، ولذا لا بدّ من حمايته من نفسه عن طريق سنّ لا قوانين التي ترحب⁽³⁾.

1) الإعلام الاجتماعي، ص: 26.

2) الإقناع الاجتماعي، ص: 60-61.

3) المرجع نفسه - ص: 62.

ولكن سن القوانين بمفرده لا يكفي لحماية المجتمع من كل ما يحيط به من أخطار، لذا يجب أن يتلازم القانون مع الترغيب والترهيب مع تكرار ذلك باستمرار حتى الوصول بالمتلقي إلى الغرض المقصود.

ج- مرحلة التتبع:

من أجل نجاح عملية الإقناع والتأثير، لابد من المراقبة والتتابع؛ وهذا يستوجب التأكيد على ضرورة احترام القوانين أو العمل **بالمطلوب** والتنبيه والتحذير من التقاус.

وعملية التأكيد والتذكير والمتابعة هي التي تزيد من درجة مصداقية الرسالة الإقناعية لدى المتلقين، كما أنها تجذب اهتمامهم.

ويبدو أن نظرية التاءات الثلاثة هذه قد، أهملت الجانب النفسي للمتلقي، لأنّ من حقه أن يقبل أو يرفض، لذا فهي تخدم السلطة السياسية التي تستدرج المتلقين لتقبل القوانين الجديدة، وهذا بعض من فيض، لأن هناك نظريات عدّة تعرّضت للإقناع والتأثير بالدراسة والتحليل، لا يمكن حصرها كلها، لأنّ مجال البحث لا يتسع لدراستها كلّها.

II- وسائل الإقناع:

يمكن التمييز بين نوعين من وسائل الإقناع في الخطاب الإقناعي العربي، وهي الوسائل المنطقية-الدلالية، والوسائل اللغوية؛ حيث تتضاد هذه الوسائل فيما بينها لإنجاح الوظيفة الإقناعية، ويضاف إلى هذه الوسائل أدوات أخرى غير لغوية، لها دورها هي الأخرى في الإقناع والتأثير؛ كالرمز والإشارة وكذا حركة الجسد.

II-1- الوسائل المنطقية- الدلالية ضمن نظرية أنواع النحوس:

II-1-1- الحجاج:

أ- مفهومه :

يعتبر مفهوم الحجاج (الم الحاجة) من المفاهيم التي تحدث الالتباس لدى أي باحث، و مرد ذلك إلى أسباب عدّة ملخصها كالتالي:

- "تعدد مظاهر الحجاج وتنوعها (الحجاج الصريح، الحجاج الضمني، ...).

- تعدد استعمالات الحجاج و تبادل مرجعياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق، ...

- خضوع الحجاج في دلالته إلى ما يميّز ألفاظ اللغة الطبيعية من رحمة ولية تداولية، وكذلك من تأويلاً متعدد و طواعية"⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، يصعب تحديد سريع و دقيق كل الدقة لمفهوم الحجاج أو الحاجة؛ ولذلك تضفي تعيناته و سياقاته طابع النسبية، ثم إنه إذا ما حاول الباحثون إلهاق الحجاج - بالمنطق "فإن آلياته و صيغه الممكنة لا تتحمل الشكلنة الصارمة، وربما يحتاج الحجاج إلى إطار بحثي خاص به"⁽²⁾.

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، أ.أحمد عراب، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، المجلد 30، العدد 01، ص: 97 - 98

2)- المرجع نفسه، ص: 99.

هذا من جهة المنطق، أما على المستوى الإجرائي فإن الحجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة ومن خصوصية الحال التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية، ولا غرابة والظاهرة هذه، أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا) وحجاجا خطابيا (بلاغيا)، وأخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيا، ...

وبناءً على ذلك، يصبح الحجاج بعدًا جوهريًا من أبعاد الخطاب الإنساني، المتاح باللغة المنطقية أو المكتوبة، كما أنه فعالية لسانية - منطقية ضمن هذا الخطاب، وبقدر ما تختلف وتعتني أشكال ومضمونين لهذا الخطاب، بقدر ما تختلف وتتبادر فيه درجات الفعالية الحجاجية إن على مستوى الإظهار أو مستوى الإضمار وكذلك على مستوى الإنشاء والاشغال⁽¹⁾.

وأطلاقاً من هذه الاعتبارات، لابدّ من التعرّض لمفهوم الحجاج ضمن حالاته الاستعمالية الأساسية، لتبين دلالته على أوسع الآفاق، ولعلّ من المفيد العودة إلى المعنى اللّغوي لهذا المفهوم.

أ-1- المعنى اللّغوی للحجاج: الحاج و المحاجة مصدر لفعل "حجاج"

و في لسان العرب لابن منظور وجد ما يلي⁽²⁾:

- حاججته: أي غلبته بالحججة التي أدليت بها.

- **الحجّة**: هي البرهان أو ما دفع به الخصم، وتحتم الحجّة على

حجج وحجاج، ويقال: حاججته مجاجة وحجاجاً أي نازعته بالحجّة.

١) - الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: ٩٨.

2) لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، 1997، مادة (حجّ)، ص: 228.

II-1-2- الاستدلال الحجاجي:

أ- مفهومه :

إنّ مفهوم "الاستدلال الحجاجي" - إن صح اعتباره مفهوماً - هو مركب من قطبين: أحدهما هو "الاستدلال" وهو اسم معنٍ لكنه كلي. أمّا الثاني فهو "الحجاجي" وهو نعت يضمّ مفهومي "الحجّة" و"الحجاج"، لكن مفهوم "الحجاجي" بياء النسبة المشدّدة فيه هو ملحق على الاستدلال، وصفة تخصيصية له أيضاً⁽¹⁾.

ولتجنب أي لبس أو غموض لابدّ من القيام بالتوضيحات التالية:

أ-1- الجذر اللغوي-البياني الاستدلالي: إن مفهوم الاستدلال من منظور العلماء والبلغاء العرب - عدا أهل المنطق والبرهان - كان يتم استقصاء القول فيه ضمن إطار علم البلاغة بفرعيها: علم المعانٍ وعلم البيان، ذلك أنّهم ميّزوا بين الاستدلال أو القياس المبني على "الحدّ" (المنطقي) وبين الاستدلال المبني على أسس بيانية (بلاغية، فقهية، نحوية،...)⁽²⁾.

وهكذا فالاستدلال البياني هو ما يشكل دليلاً أو دلالة بمعنى البينة أو الحجّة، كمعايير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصدق الخبر، وفي النظّر العربي اللغوي البلاغي نجد أن مفهوم الاستدلال يرادف القياس، وهو لذا لا يخرج عن حظيرة التشبيه والوصف والاستعارة⁽³⁾.

1) مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 124.

2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

و كنتيجة لما تقدم ذكره فإن الاستدلال ليس عملية عقلية استنباطية محضة، ولكن عملية "خطابية" بمحبها يتم اتخاذ عالمة مادية أو معنوية لجعلها شاهداً ومثلاً على شيء أو صفة من صفاته، ومن أجل ذلك لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة⁽¹⁾.

تلك الاستعارة التي عرفها عبد القاهر الجرجاني (ت. 471هـ) بقوله: "...إِنَّهَا دَلَالَةٌ عَلَى حُكْمٍ يُثْبِتُ لِفْظَهُ، وَهُوَ نَقْلٌ عَلَى الْأَصْلِ الْلُّغَوِيِّ، وَإِجْرَاؤُهُ عَلَى مَا لَمْ يُوْضَعْ لَهُ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا النَّقْلَ يَكُونُ فِي الْغَالِبِ مِنْ شَبَهٍ بَيْنَ مَا نَقْلَ إِلَيْهِ وَمَا نَقْلَ عَنْهُ"⁽²⁾.

وانطلاقاً من فهم الجرجاني للاستعارة وللحقيقة الإستعارية فإن الاستدلال تبعاً لذلك يعتبر الكلمات والعبارات ذات المعانى الإستعارية أو التشبيهية يعتبرها دالة أو دليلاً على معانٍ أخرى غير ظاهرة.

وفي هذا السياق يضرب لنا الجرجاني مثلاً يكمن في الهيئة التي يستدل بها على الأجناس كزيّ الملوك وزيّ السوق. "فكمما لو خلعت عن الرجل أثواب السوق ونفيت عنه كلّ شيء يختصّ بالسوق وألبسته زي الملك فأبديته للناس في صورة الملك حتى يتوهّمونه ملكاً وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا باختبار واستدلال من غير الظاهر كنت قد عرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة..."⁽³⁾.

1) مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص: 124.

2) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 220.

3) مرجع نفسه، ص: 300.

ومن هذا المثال نستخلص أن الصفة الظاهرة (الزي) تتطابق مع الاستدلال الاستعاري.

ومن منظور أهل البيان أعتبر القياس الذي هو صورة من الصور الأساسية للاستدلال إلى جانب الخبر من الوسائل التي يتوصلها العقل والبيان معاً وإدراك الأمور في ظاهرها وباطنها، ولذلك فإنّ الاستدلال البياني هو نوع من "معرفة الغائب بالشاهد"، كما إنه يمثل إحدى طرق التصديق واليقين إلى جانب الخبر⁽¹⁾.

وبعد استقصاء محمد عابد الجابري "العلاقة القياس بالبيان عند ابن وهب تبين له أنّ العقل والبيان متكمالان، وذلك من خلال أوجه أربعة هي: بيان اعتبار، وبيان الاعتقاد، وبيان العبارة، وبيان الكتاب⁽²⁾.

وهكذا فعندما تكون بقصد البحث عن معرفة باطن الأشياء، وتكون الحواس عاجزة عن إفادتنا بتلك المعرفة، وتكون العقول في ذلك غير متفقة، فإن حاجتنا ستكون كبيرة إلى أن نستدل على باطن تلك الأشياء بضرورب من الاستدلال، وبوجوه من المقاييس والأشكال والطريق إلى علم باطن الأشياء في ذاتها والوقوف على أحکامها ومعانيها من جنس القياس والخبر⁽³⁾.

وفي نفس الاتجاه الحق محمد بن علي السكاكي الاستدلال بالمعنى التي تحدث عنها ابن وهب حيث جعله أي الاستدلال مكملا لعلم المعنى والبيان وهو

1)- مقال الحاج والاستدلال الحاجي، ص: 125.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص: 29.

لذا يقول: "من تكملة علم المعاني في الاستدلال وهو إكساب الخبر للمبتدأ ونقيه عنه بواسطة تركيب جمل تنبئه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلاً...".⁽¹⁾

ويكون السكاكي بذلك قد اجتَّ الاستدلال من صرح المنطق الصوري، لأنَّه جعل الاستدلال ضابطاً للجمل الخبرية مع العلم أن المصطلحات الموظفة من قبل "السقاكي" منطقية لا نحوية كالمخد، والاستدلال والدليل والحكم والاستقراء والاستلزم... في حين أنَّ حديثه يدور حول الجمل الخبرية أو الشرطية أو المنفية.

وإذا كان السقاكي قد تناول الاستدلال تناولاً جافاً، فإنَّ "عبد القاهر الجرجاني" سلك في تحليله للقول مسلكاً إبداعياً حيث أعطى للمقولات النحوية أبعاداً تداولية ومعاني جديدة ووظائف تأثيرية أو مؤثرة غير ذلك التي كررها وأطرب فيها كثيراً من النحاة القدامى والجدد على حد سواء⁽²⁾. وعلى ضوء ما سبق نلاحظ أنَّ مفهوم الاستدلال وظُفَّ توظيف عقلياً ولكنه في أرضية معنوية استعارية أو معنوية تركيبية. وهو لذلك صار حجَّة ودلالة عقلية بيانية مما جعله لا يخرج عن دائرة اللسانية-النحوية.

أ-2- الخذر العقلي- المنطقي للاستدلال: إنَّ أول من أرسى قواعد المنطق الصوري في تحليلاته هو "أرسطو" لذا جرت العادة أن يحصر مفهوم الاستدلال في مجال المنطق، ولهذا فالاستدلال عند "أرسطو" هو تفكير عقلي

1) - مفتاح العلوم، ص: 438.

2) - إشكالات التواصل والمحاجج، ص: 92.

بواسطته يتم إنتاج العلم، ولكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الفراغ، بل من معارف سابقة أهمها المبادئ والتعريفات أو حتى مسلمات شائعة⁽¹⁾. وبهذا الصدد أرجع "أرسطو" العاملتين الأساسيةين في العلوم: الاستقراء والاستنباط إلى الخطوات القياسية التي أنتجت البرهان وأتاحت بطريقة معكوسة الاستقراء⁽²⁾؟ ومن هنا كان المشغلون اليونان في الحقل العلمي يتحدثون عن البرهان لا عن القياس؛ لأن البرهان هو قياس **الضرورة** والاستقراء عكس ذلك⁽³⁾.

ولكن ما لبث أن تم الاعتراف بالقياس خارج الميدان العلمي، في الاستدلال الجدلية والاستكشافي حيث استعيرت صورة القياس من البرهان لكي تكون أدلة استدلال بواسطة عناصر اللغة الطبيعية، وذلك لأن القواسم المشتركة بينهما جلية يمكن أن يفهمها الجميع⁽⁴⁾.

ومن ثم يصح الحديث عن الاستدلال القياسي الذي يعرف عند "أرسطو" بأنه قول مؤلف من أقوال إذا سلم بها لزم عنها بالضرورة قول آخر⁽⁵⁾. ذلك لأن طبيعة البرهنة القياسية تقوم على الكلي والكللي هو نقطة البدء.

1)- مقال **الحجاج والاستدلال الحجاجي**، ص: 126.

2)- Le raisonnement Robert Blanché, P: 137.

3)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 114.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5)- مقال **الحجاج والاستدلال الحجاجي**، ص: 126.

الذي تنتقل منه إلى الجزئي، وهو ما يعطي لهذه البرهنة القياسية السهولة واليسر والقوة⁽¹⁾.

وعموماً، يمكن القول إن "العلاقة جدّ وطيدة بين الاستدلال والقياس والاستقراء ولعلّ هذا ما يؤكّده محمد عابد الجابري بقوله: "وال فعل العقلي الذي ينبع "العلم" بالاستناد إلى معارف سابقة هو الاستدلال (Raisonnement) وعلى الرغم من أن الاستقراء نوع من أنواع الاستدلال فإنّ الاستدلال الأمثل عند "أرسطو" هو "السلوجسموس" أي القياس الجامع"⁽²⁾.

وكنموذج عن سلوجسموس أرسطي مايلي:

- كل البشر فانون.

- كل الإغريق بشر.

- إذن كل الإغريق فانون.

والملاحظ لهذا النموذج يستنتج أنّ هذا الاستدلال تشكّل من مقدمتين؛ الثانية مستتبطة من الأولى ثم من نتيجة لازمة وضرورية، ولكن هناك من المناطقة من يرى أنّ هذا النمط من الاستدلال ليس أرسطياً حقيقياً وهو "جان لو كاسييفتش" (Jan Lukasiewicz) الذي يقول بهذا الصدد: "إنّ "أرسطو" لم يقم أبداً بصياغة استدلالاته العقلية في صورة استنباطات ولكن دائماً في شكل

1)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 114.

2)- نقد العقل العربي، محمد عابد الجابري، ص: 402.

تضمنات (افتضاءات) يسبقها تلازم المقدمات وترابطها وتأتي النتيجة حقيقة لذلك⁽¹⁾.

ولكن هل العلاقة بين مقدمات الاستدلال استنباطية أم تضمينية؟ يرى جان لو كاسيفتش أن مقدمات قياس "أرسطو" تقوم على علاقة تضمينية، لأنه لكي تكون العلاقات استنباطية في هذا القياس، يجب أن تكون مقدماته صادقة لا محتملة الصدق وقابلة للتمييز الصوري حقاً⁽²⁾. وعلى العكس من ذلك ما يراه أحد الاستيمولوجيين الغربيين وهو "ج. غ. غراinger" (G.G.Granger) الذي يعرض على رأي "جان لو كاسيفتش" بقوله: "بالنسبة لطابع الضرورة في الرابطة القياسية ذاتها (الضرورة الاستدلالية انطلاقاً من مقدمات) فإنها تظهر حينما يكون كل نموذج للمقدمات هو أيضاً نموذج للنتيجة، وهذا لا مجال لافتراض كونية المقدمات ولا انسامها بالضرورة"⁽³⁾.

وخلال هذه الاستقراءات والاستنباطات أن قياس "أرسطو" هو جدل لا يزال مستمراً، وهذا يجوز جذبه إلى المنطق والجبر والحساب كما يجوز جذبه أيضاً إلى حقول البلاغة والدلالة أي إلى فضاء اللغة الطبيعية.

1)- La syllogistique d'Aristote, Jan Lukasiewicz, tradition de C.Zaslawsky Armand, Collin, Paris, 1972, P: 22.

-(2) مقال الحاجج والاستدلال الحاججي، ص: 127.

3)- La théorie Aristotélicienne de la science, Gilles Gaston Granger, Aubier Montaigne, Paris, P: 120.

بـ- وظيفة الاستدلال في اللغة الطبيعية:

من الواضح أنّ بنية الاستدلال التي يستعملها متكلم اللغة ليست تماماً هي بنية القياس الصوري، ذلك أن مستعملي اللغة لا يستدلّون بالمعنى الشكلي، بل يستدلّون بمقادير يختارون إظهارها حسب ما تقتضيه مقامات القول أو عدم إظهارها اعتماداً على ذكاء المتلقي أو لاعتبارات تداولية أخرى، فقد يسخرون بعض المقدّمات أو النتائج ولا يأبهون بها إنهم يستدلّون بصفة سليمة في كثير من الأحيان دون أن يستعملوا لهذا الغرض قواعد المنطق الشكلي، لانطلاقهم مثلاً من مقدّمات احتمالية مقبولة، وذلك إما لأنّها واضحة وهو قليل أو لأنّها قبل أن تكون مقبولة كانت موضوع حجاج⁽¹⁾.

على أنّ متكلمي اللغة لا يتبعون خطوات القياس الصورية في الخطاب اليومي، فقد يتركون ذلك لبعض الحالات الخاصة التي تدعو إلى استعمال شكل القياس الكامل أو الجزئي، وكيفما كان الخطاب فليس من الضروري معرفة القياس، من أجل التفكير، كما أنه ليس من الضروري معرفة اللسانيات من أجل الكلام،... فالمتكلم حين يقول: "الإنسان فان" لا يستحضر مقدمتين وقياساً لأن ذلك مما هو معلوم كنتيجة للتجربة⁽²⁾.

وهكذا فالخطاب لا يهدف إلى الوقوف فقط على نتيجة المقدمتين، بل إنه يعرضها ويقدمها من أجل هدف تداولي حسب مقام القول الذي قد يكون وعظاً أو إرشاداً أو تنبيهاً وتحذيراً...

(1) إشكالية التواصل والحجاج، ص: 119.

(2) المرجع نفسه، ص: 120.

و خلاصة القول: إنَّ القياس الطبيعي أَغْنِي وأَكْثَر إِجْرَائِيَّةً في اللُّغَةِ مِن القياس الصوري البرهاني، وأنَّه لا وجود في الخطاب الطبيعي للاستباط المنطقي والاستقراء التجريبي بِالمعنى الذي تحدِّدُه المعرفة العلمية، ولذلك فإنَّ القياس الطبيعي يصبح إذاً أَكْثَر ملائمةً للاستدلال اللُّغُويِّ إِذْ بِهِ يَتَمَاسِكُ الخطاب و تترَكِبُ القضايا فيما بينها لِتَنْشَئَ قطعاً خطابيَّةً مُوحِّدةً.

إِذْ بِهِ يَتَمَاسِكُ الخطاب و تترَكِبُ القضايا فيما بينها لِتَنْشَئَ قطعاً خطابيَّةً مُوحِّدةً.

II-1-3- نظرية أنواع النصوص:

تَهتم نظرية أنواع النصوص بالتمييز بين أنواع النصوص؛ و تهدف هذه النظرية إلى تكشف خواص البنية اللغوية وأنماط الوظائف الاتصالية؛ غير أنَّ النص الواحد قد يشتمل على أكثر من نوع نصيٍّ واحدٍ. يعود السبب في ذلك إلى أنَّ النص موكل بصلاحية أدائه لأفعال لغوية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السياقية-الموقفية، والعلامات الوظيفية-الاتصالية، والعلامات البنائية-

النحوية والموضوعية جمِيعاً⁽¹⁾.

وبناءً على اهتمامات هذه النظرية يحدِّد "برنكر" (BRINKER) معايير ثلاثة للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللُّغَةِ النصيِّ هي كالتالي⁽²⁾:

1)- النص والخطاب والإجراء، روبرت دو بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ-1998هـ، ص: 411.

2)- مقال النص الحاجي العربي، ص: 42.

أ- الوظيفة النصية معياراً أساسها:

يقودنا هذا المعيار إلى تحديد أنواع خمسة من النصوص هي: إخبارية (الخبر والتقرير)، طلبية (القانون والطلب)، التزامية (العقد والضمان)، اتصالية (الإعراب عن شكر)، وإقرارية (الوصفية). ويمكن لهذه الأنواع أن تتوسع على شكل آخر إلى أنواع أكبر.

* المعايير السياقية:

تجري هذه المعايير على مستوى الوصف الموقفي الذي يضم مقولتي "شكل الاتصال" و"مجال الفعل" حيث يميز الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص، وعلى هذا اعتبار تم تحديد خمسة وسائل هي: الاتصال المباشر (وجهها لوجه)، الاتصال الهاتفي، الاتصال الإذاعي، الاتصال التلفزيوني، وأخيراً الاتصال المكتوب⁽¹⁾.

* المعايير البنائية:

تعتمد هذه المعايير على "موضوع النص" وكذا على "الشكل الذي يظهر فيه الموضوع" للتمييز بين أنواع النصوص:

* موضوع النص:

ويشتمل على التركيز الزمني لموضوع أو على ما يعرف باسم "التوجه الزمني" ما قبل الكلام، وزمن الكلام، وما بعد زمن الكلام: مثالنا على ذلك

(1) - مقال النص الحجاجي العربي، ص: 42.

الأنواع النصية الخبرية أو البروتوكول وما شابه ذلك، كما أن موضوع النص يشتمل على التوجه المكاني أي على تلك العلاقة التي تربط المرسل بالمتلقي⁽¹⁾.

* الشكل الذي يظهر فيه الموضوع:

يمكن التمييز هنا بين أنواع ثلاثة؛ النص الوصفي، والنّص السردي، والنص الحجاجي (ابعدلي)، حيث ترتكز النصوص الوصفية على تصورات الشيء والموقف، وترتكز النصوص السردية على تصورات الحدث والعمل، بينما تتمثل النصوص الحجاجية قضاياً كاملة تنسّب إليها قيم الصدق، كونها حقائق حسب الاعتقاد، على أنه يمكن لهذه القضايا أن تتعارض فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدق⁽²⁾. ولأنّ المجال لا يتسع لدراسة كل هذه الأنواع من النصوص فسأركز على النصوص الحجاجية موضوع البحث.

بـ- الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي :

بعد دراستنا للحجاج وعلاقته بكل من التداولية واللسانيات والبلاغة والفلسفة والقضاء والفقه، فقد تبين لنا أنّ العلاقة التي تربط بين أجزاء النص الحجاجي هي علاقة "منطقية" (Logical) أكثر من كونها علاقة تصورية (Perceptual)، كما هو الحال في النص غير الحجاجي.

ويقصد "وليام برانت" (William Brandt) بالعلاقة التصورية تلك العلاقة التي تصدر عن تجربة محددة مقيدة بزمن التصور، وبحدث التصور والعلاقة

1) مقال النص الحجاجي العربي، ص: 43.

2) النص والخطاب والإجراء، ص: 415-416.

المنطقية علاقة استنباطية (Invented) غالباً، في مقابل العلاقة التصورية المباشرة في النص غير الحجاجي⁽¹⁾.

وجوهر الحجاج عند "وليم برانت" يعني إنشاء رابطة مقنعة بين عبارتين ومن ثم يعتمد النص الحجاجي اعتماداً كبيراً على بنية أساسية عند عالم المنطق وهي بنية القياس المنطقي وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكماً على الحجج المقدمة -من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبّر عن قضايا- بأنها صالحة أو فاسدة، لا حكماً عليها بالصواب والخطأ⁽²⁾.

ويبني النص الحجاجي -في شكله الرئيس- على مكونات ستة هي: الدعوى أو (النتيجة)، المقدمات أو تقرير المعطيات، التبرير، الداعمة، مؤشر الحال، التحفظات أو الاحتياطات⁽³⁾.

فالدعوى مقوله تستهدف استمالة الآخرين وهي تذكر صراحة أو تضمن، أمّا المقدمات فهي تقرير يصنّعه المجادل عن أشخاص أو أحداث أو أحوال، على أن ترتبط هذه المقدمات بالدعوى ارتباطاً منطقياً ويتبع ذلك التبرير الذي يعدّ بياناً للمبدأ العام الذي يستدل به على صلاحية الدعوى. وفقاً لعلاقتها بالمقدمات.

1)- The rhetoric of argumentation, Williams Brandt 1 st, Printing, U.S.A, 1970, P: 07

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 44.

(2)- المرجع نفسه، ص: 22-26. نقلًا عن المرجع نفسه، ص: 44.

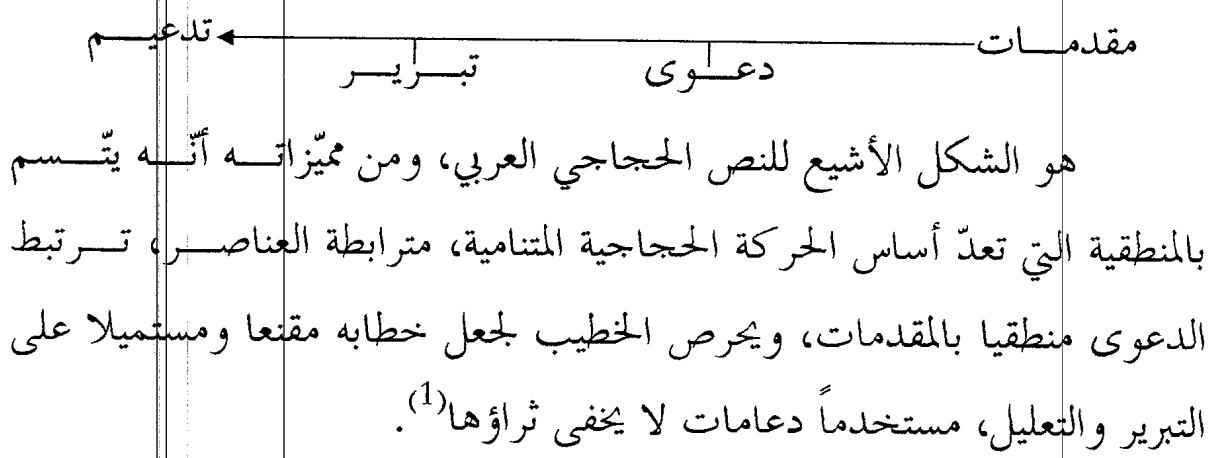
3)- Argumentation, Reik Sillars, P: 77-88.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 45.

وحتى يجعل المجادل مقدماته و تبريراته أكثر مصداقية عند المتلقى ، لابد له من التدعيم الذي يكمن فيما يقدمه هذا المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم، ...

ويلي الدعامة مؤشر الحال؛ وهو كل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعوى للتطبيق، على نحو: من الممكن، من الم Harmful، على الأرجح، ...

وأخيراً يأتي الحكم المبني على تلك التحفظات أو تلك الاحتياطات، ويمكن تمثيل هذه العناصر على الشكل الآتي:



وهكذا، فإن الخطيب لكي يثبت صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده وسليته إلى ذلك هي التدعيم، والتدعيم كما سبق الذكر -أدلة منطقية وشواهد وأمثال تدعم صحة الدعوى - وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل (Evidence)، والتدعيم بالقيمة (Value) والتدعيم بالصدقية (Credibility)⁽²⁾.

1) مقال النص الحجاجي العربي، ص: 51.

2) مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52.

* التدعيم بالدليل:

يذكر "سيلاز" و"ريك" أنّ موقف الحاج الأبسط والأشيع هو تقسم إفادة (Statement) تحظى بموالاة المخاطب، وباستطاعة المخاطب تطوير الحاج

بسؤال أو بدعوى مضادة، كما في المثال التالي:

المتكلّم: لا تخفي هنا على سيارتك!

المخاطب: ولماذا؟

المتكلّم: الجو حار اليوم!

المخاطب: لكنه ليس حاراً كالأمس⁽¹⁾.

ولكن المتكلّم يطور حجاجه بإضافة مادّة مدّعمة لدعواه؛ على نحو يجعل المستقبل مواليًا لتلك الدعوى، وهو ما يسمّى بالدليل.

- **أنماط الدليل:** في النص الحجاجي العربي، نرى للدليل أنماطاً شتى من

أهمها:

* أدلة تاريخية: يتم اقتباسها من التاريخ الأدبي.

* شواهد خاصة: تستخدم هذه الشواهد عندما تعجز الأمثلة الحقيقة

(Real examples) عن التأثير والإقناع، وهذا النوع من الشواهد يسميه كل من

"ريك وسيلاز" باسم المثال الافتراضي أو النظري (Hypothetical examples)⁽²⁾.

1)-A Mod of Argumentation from Arabic rhetoric, Insights for a theory of text types, hatim Basil, British society for middle Eastern studies, Bultin 17,1: 47,54, P: 49.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52.

2)- Argumentation and the decision making process, P: 99.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52-53.

وبحدِّ الإشارة هنا إلى التفات بعض القدماء إلى علاقة المثال بالحجاج، ومنه ابن وهب الذي يقول عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: " وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والقدماء مضمومة إلى نتائجها"⁽¹⁾ ويقول: "المثال مقررون بالحججة"⁽²⁾.

ويشرح مقوله هكذا: "ألا ترى أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لو قال لعباده: "إني لا أشرك أحداً من خلائقي في ملكي، لكان ذلك قوله محتاجاً إلى أن يدلُّ على العلة فيه، ووجه الحكمة في استعماله. فلما قال: ﴿ضُرِبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكْتُ أَيْمَانَكُمْ مِنْ شُرَكَاءِ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَإِنَّمَا فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفِتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾⁽³⁾، كانت الحجّة من تعارفهم مقرونة بما أرادوا أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه؛ لأنهم عالمون بأئتهم لا يقرون أحداً من عبادهم على أن يكون فيما ملكوه مثلكم، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه، فالله - عزَّ وجلَّ - أولى بأن يتعلى عن ذلك"⁽⁴⁾.

* التدعيم بالقيمة:

النص الحجاجي نص تقويمي، والقيمة مفهوم يستنبط مما يقوله الناس وما يفعلونه، وما تشيده الجداول والمناقشات، وكذا القيم وذلك مع الدليل

1) البرهان في وجوه البيان، ص: 16.

2) المرجع نفسه، ص: 146.

3) سورة الروم، الآية: 28.

4) البرهان في وجوه البيان، ص: 146.

ومصادر معقولة الأشياء - وهكذا تكون المادة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحاجاج الذي يستحق منهم الموالاة⁽¹⁾.

ومن منظور كلّ من "دو بوجراند" (De Beaugrande) و "درسلر" (Dresler) تعتبر القيم من أهم المفاهيم التي يبني عليها النص الحاجاجي المتمثلة في العلة، والمعارضة، وعلى هذا اعتبار يرى هذان الباحثين أن النص الحاجاجي - نصّ موظّف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار⁽²⁾.

من أجل ذلك تحدد النظرية الحاجاجية المعاصرة للقيمة نمطين اثنين: القيمة الوسيلة (Instrumental Value) والقيمة الغاية (Terminal Value). إذ الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة، والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغيّر المتكلم⁽³⁾.

وانطلاقاً من هذا، يبدو واضحاً لكل من يتأمل خطاب الحاجاج العربي، أنه يميل إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى، وهذا أمر مهم، وذلك لأنّ القيمة الغاية أقوى تأثيراً في الحصول على قدر أكبر من الموالاة (Adhérence) يجعل المستقبلين يغيّرون من سلوكهم واتجاهاتهم.

1)- Argumentation, Reik, Sillars, P: 77-78.

- نقلًا عن مقال النص العربي الحاجاجي، ص: 45.

2)- An introduction to text linguistics. De Beaugrande R, diessler, w.1981, P: 148.

- نقلًا عن مقال النص الحاجاجي العربي، ص: 45.

3)- Argumentation and the decision, Making process, P: 121.

- نقلًا عن مقال النص الحاجاجي العربي، ص: 54.

وإلى جانب هذا، يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتماداً جوهرياً على القيم التي يكون فيها تمسك الناس بها قوياً، أو التي تتسم بالشمولية بسبب موالاة كثيرة من الناس لها. مثال ذلك "قيمة التغيير" بين "القديم والجديد" أو قيمة الجمع في الإسلام بين الدين والدولة" أو "قيمة الحب" التي تكشف عن المفهوم الحقيقي للدين من وجهة نظر بعض الكتاب وكلّها قيم تكتسب موالاة نسبة كبيرة من المستقبليين⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى القوة والشمولية التي تساعد على تعين القيم السائدة في مجتمع أو حضارة في خطاب الحجاج العربي، هناك عامل آخر أكثر أهمية في الموالاة والإقناع، هو مترلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلك، فالإقناع والموالاة يعتمدان على مترلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تطالب به الناس، خاصة أنها صادقة في مطالبتها، وأنّها بريئة فيما تطلب به من أي نفع أو مصلحة خاصة⁽²⁾.

* التدعيم بالمصداقية:

المصداقية عامل مهم في الحجاج في ضوء تحديد "ريك" و"سيلارز" لأنواع المصداقية وعليه يمكن استنباط ما يلي:

1) - النص الحجاجي العربي، ص: 54.

2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- أ- قلما يلحا المؤلف إلى المصداقية؛ فهو لا يقدم عن نفسه إفادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق، وإنما يصرف همه في المقام الأول – لالتماس العلل المقنعة⁽¹⁾.
- ب- يعتمد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية الثانوية (وهي التي تأتي من ربط مصداقية شخص آخر بالحجاج) اعتماداً أقوى كثيراً من اعتماده على المصداقية المباشرة، وربما يفعل كاتب الحجاج ذلك تاركاً الأمر لنص الخطاب ولفهم المخاطب⁽²⁾.
- ج- من الطبيعي أن يكون اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية المباشرة أقوى من الاعتماد على النوعين السابقين جمياً، وذلك لأن المصداقية المباشرة تصدر عن تطوير المتكلم حجاجه بطريقه تجعله قابلاً للتصديق⁽³⁾.
- د- ومما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره، فالناس يميلون – عادة – إلى تصديق من يرونهم أهلاً للثقة والأمانة والكماءة.

II-2- الوسائل اللغوية:

الوسائل المنطقية واللغوية في كل نص إقناعي هي سداه وحمحته ولقد كانت اللغة هي الأداة اللفظية لنقل المعنى أو التسليحة في كل قياس منطقي، ولما

1)- Argumentation, Reik Sillars, P: 154-156.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 54.

(2)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 55.

(3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

كانت اللغة في الإقناع هي الوسيلة لفرض السلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعتبر عنها وإقناعهم بمقاصidتها، استدعاي الأمر البحث عن بدائل لغوية ذات صلة وثقى بالإقناع وتحليل أنماطها المختلفة.

ومن أجل ذلك يمكن أن نميز بين عدد من البنى اللغوية التي يقلب وقوعها في النص الإقناعي العربي والتي تزوده بآدوات مهمة في الإقناع والاستعمال، مما يجعله متمايزاً إلى حدّ ما عن غيره من أنواع النصوص الأخرى وهذه البني هي:

١-٢-١- بنية التكرير

بعد استقراءنا لبعض المصادر البينية يمكننا أن نزود بطاقة من المعطيات المهمة عن التكرير، بحملها فيما يلي:

١- للتكرير (ويسمى أيضاً بالتردد أو الترداد) وظائف خطابية، عبر عنها بالإفهام والإفصاح، والكشف^(١)، وتوكيد الكلام والتشديد من أمره وتقرير المعنى وإثباته^(٢).

٢- ليس التكرير محض وقوع اللفظ في الكلام أكثر من مرة، أو صياغة المعنى أكثر من مرة لكن قد يعاد لفظ الفصل الأول من الكلام مرة ثانية لأنَّ أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به^(٣) مثل هذا قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِنَ الَّذِينَ

١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الحاخامي بالقاهرة، ط٥، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م، ج ١/ ١٠٤-١٠٥.

٢) المثل السائر، ج ٣/ ٢٩-٣٠.

٣) المثل السائر، ج ٣/ ١٧.

يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا يَمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْتَسِنُهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ
الْعَذَابِ⁽¹⁾.

3- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب يقول أن الأثير (ت. 637هـ): "إذا صدر الأمر من الأمر على المأمور بلفظ التكرير مجرداً من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقفنا بوقت معين كان ذلك حثاً له على المبادرة إلى امتناع الأمر على الفور، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: "قم قم قم" فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة"⁽²⁾.

4- يعد التكرير ظاهرة مقامية؛ من أهم ما يقول على هذا المفهوم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتنصل قصداً إلى التأكيد والتقرير لما يُنفي عن المتكلم ما قصد إليه⁽³⁾.

5- ونظراً للأهمية الكبيرة للتكرير قدّمت محاولات لتصنيف أنواعه من أبرزها ما قدّمه ابن الأثير:

- التكرير في اللّفظ والمعنى.
- التكرير في المعنى دون اللّفظ.

فمن الصنف الأول بعنوانه: "أسرع أسرع"، ومن الصنف الثاني قوله: "اطعني ولا تعصي"؛ فإنّ الأمر بالطاعة هي عن المعصية⁽⁴⁾.

(1) -آل عمران، الآية: 188

(2) -المثل السائر، ج 3/03.

(3) - المرجع نفسه، ج 3/27.

(4) - المرجع نفسه، ج 3/03.

- يرى ابن الأثير أن التكرير في المعنى يدل على مفهومين: أحدهما خاص، والآخر عام، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁾; فالأمر بالمعروف خير، وليس كل ما هو خير أمر بالمعروف؛ وذلك أن الخير أنواع كثيرة، من جملتها الأمر بالمعروف⁽²⁾.
 وإلى جانب ما سبق ذكره، فقد قيد الجاحظ التكرير -ويسميه الترداد- قيده بقدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص⁽³⁾.
 أمّا في اللسانيات النصية فقد عولج التكرير من منظور دوره في السبك المعجمي، وذلك أن يحيل اللّفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف، أو مرادف قريب، يرتبط به بالإحالة المشتركة⁽⁴⁾.
 ومهما يكن من أمر، فإننا نعني هنا بتحليل بنية التكرير من منظور الوظيفة الاتصالية الإقناعية التي ألقى عليها الضوء من قبل بعض القدماء كأبي المهاذ العسكري (ت. 395هـ) الذي يقرن التكرير بتأكيد الحجة⁽⁵⁾ جاعلاً التكرير مدمّاً للقول، ومن ثم يربط بين مدّ القول وبلغة الشفاء والإقناع⁽⁶⁾.

1)- آل عمران، الآية: 104.

2)- المثل السائر، ج 3/27.

3)- البيان والتبيين، ج 1/104.

4)- Cohesion in English, M.A.K, Halliday, Ruqaiya, Hasan, Longman, Th. Impression, 1983, P: 278-282.

- نقلًا عن مقال النص الحاججي العربي، ص: 62

5)- كتاب الصناعتين، ص: 156.

6)- المرجع نفسه، ص: 157.

ولقد شغلت البنية التكريرية للخطاب الإقناعي بمال عالٍ من المستشرقين:

ترى "شيرلي أوستر" (SCHIRLY OSTLER) في دراسة تقابلية بين النثر الانجليزي والنشر العربي، أنه على عكس التطور في الانجليزية من لغة شفهية إلى لغة كتابية، تظل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بـ "Oral Traditions" (¹).

أما "باربرا جونستون كوش" (B.J.Koch) فإنها ترى أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على العرض اللغوي للداعي الحجاجية وصياغتها صياغة موازية، وإلbasها إيقاعات تغميمية إيقاعية بنائية متكررة، وترى أن هذا النوع من الحجاج هو نتيجة المركبة الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي (²).

وتسمى "باربرا" هذه الإستراتيجية البلاغية: استراتيجية الإقناع بالتركيز وبالصياغة الموازية (Rephrasing) وبالباس الدعوى وإعادة إلbasها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسمى باسم "استراتيجية العرض" (³)، أي لاستحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره.

1)- English in parallels : A comparison of English and Arabic prose, E shirly Ostler, south California uni, P: 169, 172, 185.

- نقلًا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

(2) - مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

3)- Presentation as proof : The language of Arabic rhetoric anthropological linguistic, Barbara johnstone Koch vol 25, No 1, 1983, P:47.

- نقلًا عن النص الحجاجي، ص: 63.

وعلى العموم، فإن التكرير والتوكيد عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعّمه وإنما يقتضي أن يكون وجيناً حماسياً ذا وقع في النفس⁽¹⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فإن للتكرير تأثيراً كبيراً في عقول المستنيرين، وتأثيراً أكبر في عقول الجماعات، من باب أولى، والسبب في ذلك، كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللأشورية التي تختتم فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا التكرار، وانتهى بتصديق المكرر وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيبة، يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان، فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى، وينتهي باعتقاد صحة الخبر⁽²⁾.

واستفادة من وظيفة التكرير في الإقناع، يعتمد الخطيب إلى التكرار كلما وجد أنّ المقام لا يحتاج إلى إيجاز، والسبب في ذلك؛ أنّ التكرار أولي في مقام الإطناب، وهو أولي كذلك في مقام الإيجاز، ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون التكرير بعبارات وأساليب مختلفة، وأن يكون النظر إلى المعنى من جوانب متعددة؛ وعلى هذا الأساس فإن التكرير يؤثّر ويقنع لأنّه من بواعث انتباه السامعين.

1) الخطابة العربية أصولها، تاريخها في أزهر عصورها، ص: 66.

2) المرجع نفسه، ص: 66.

وبناء على ما تقدم ذكره يمكن تصنيف أنماط التكرير إلى صنفين رئيين: تكرير الشكل، وتكرير المضمون؛ يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والعبارة أو الجملة، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون، الذي أسماه ابن الأثير تكرير المعنى.

أ- تكرير الشكل :

يرى محمد العبد أن تكرير الشكل لا صلة له بالإقناع إلا إذا لوحظ فيه قصد إلى ذلك، مدعّماً رأيه هذا، بقول العقاد: "ثم إننا لا نعرف شعراً يرويه الناس، ويقال إنه يعني قائله وحده؛ لأنّ شعر النفس يعني كلّ نفس"⁽¹⁾، فالباحث يرى أن كلمة "شعر" وكلمة "نفس" تكررتا مرتين، ولبيس في هذا التكرير قصد إلى الإقناع لأنّه لا بدليل لسبك ذلك المنطق عن مثل هذا التكرير⁽²⁾.

وبعد استقراء الباحث نفسه، لعيّنات من النصوص الحجاجية العربية القديمة والحديثة استطاع أن يميّز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل يوردها لنا كالتالي⁽³⁾:

✓ تكرير المكرر بذاته؛ سواءً أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك، في منطوق واحد، أم غير ذلك.

(1)- مقال الأدب العصري، من كتاب الفصول، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1986م، ص: 105.

(2)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

(3)- المرجع نفسه، ص: 64.

✓ التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة.

✓ التكرير بإعادة الصياغة.

ففي (النوع الأول)، وهو تكرير المكرر بذاته لفظاً مفرداً أو غير ذلك، يريده صاحبه بالتكرير ثبيت تبريره ودعواه، حيث يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض دعوى خصميه.

وفي حالات أخرى، يكون المكرر بذاته، وسيلة لغوية للوصول إلى الهراء

بالخصم وفضح جهله، كقول الشاعر:

قُلْ لِمَنْ يَدْعُ فِي الْعِلْمِ فَلْسَةً عَلِمْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءٌ

ففي هذا البيت سخرية وفضح لجهل المدعى.

وببناء على هذه الحالات، يمكن اتخاذ التكرير وسيلة لإيقاع الخصم عن طريق دحض زعمه، وكشف حقيقته، خاصة إذا قصد الكاتب بتكرير اللفظ تهيج خصميه.

أما من ناحية تكرير المكرر بذاته عبارة أو جملة، فقد يقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات، كما يقع في التبريرات والدعوى جمعاً، فتكرير الجملة من شأنه أن يلفت الانتباه إلى الدعوى؛ كما من شأنه ثبيت المضمون، أو ثبيت الرغبة الملحة في البرهنة على صلاحية المعتقد؛ أو رجوع الخصم عما ادعى.

وعلى الجملة، فإن تكرير المكرر بذاته، يهدف إلى جعل محتوى الجدال

مفهوماً أكثر، بل إنه يزيد الفهم، بمحاذب انتباه المستقبل وامتلاكه⁽¹⁾.

(1) - مقال النص الحجاجي العربي، ص: 65.

أما (النوع الثاني)، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة؛ فإنه يعكس حالة من الحالات في تأثير سلوك الخصم في منازعة مختدمة، باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس، حتى أن هذا النوع من التكرير، قد يصير آلية لغوية مهمة من آليات دفع دعوى الخصم وإيقاعه بالإفلات عنها⁽¹⁾، مثالنا على ذلك مكاتبة الأخشيد مخاطباً أرمانوس: "وإن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدّمك، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدّمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا، ولا أغنى غنائنا، ولا ساس في الأمور سياستنا"⁽²⁾.

أما النوع (الثالث)، وهو التكرير بتغيير التركيب، فهو جمع بين الشكلين السابقين (الأول والثاني)، وذلك أن الكاتب يبرهن على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكرّراً العبارة السابقة بتغيير التركيب، كقول المازني في سياق البرهنة على فوز المذهب الجديد في الأدب: " ولو شئنا، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب وتحريره لباهينا بالمذهب الجديد وبفوزه على صندوف الاستبداد"⁽³⁾ إلى أن يقول: "فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من

1) مقال النص الحجاجي العربي، ص: 65.

2) كتاب الأخشيد إلى أرمانوس، جمهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفوتوت شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي، 1356هـ-1937م، ج 4/421.

3) مقال: الأدب ينهض في عصور المشادة، من كتاب: حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، المبة المصرية للكتاب، 1999م، ص: 47.

صنوف العت و ضروب الاستبداد⁽¹⁾ والترجيع في هذه الحال تشيد للمعنى ووجهة النظر⁽²⁾.

بـ- تكرير المضمون:

يبني تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية متراوفة أو مشتركة في جزء من المعنى، ولذلك يمكن تصنيف تكرير المضمون إلى أربعة أنواع هي⁽³⁾:

1- تكرير مفردتين متواлиتين أو أكثر، في جملة واحدة أو

منطوق واحد.

2- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواлиين.

3- تكرير مفردتين في ثنائية.

4- تكرير المضمون بين جملتين متواлиتين.

بـ-1- مميزات النوع الأول:

1- إن الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى واحد يعد آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملاً، فحيثما تقصر المفردة الواحدة عن أداء وظيفتها الإقناعية، تنوب عنها مرادفتها.

2- ارتباط الثاني بالأول ارتباط السبب بالمسبب.

3- ارتباط اللاحق بالسابق، ارتباط التدرج من هيئة الحدث إلى هيئة أخرى.

(1) مقال: الأدب ينهض في عصور المشادة، ص: 48.

(2) مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 66.

(3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- أن تتضمن الكلمة الثانية الكلمة الأولى؛ بمعنى أن علاقة الكلمة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص، كقول العقاد: "ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام، وينعقد الصوت ألفاظ وحروف. فيتدفق الغزل من النفس المختدمة تدفقاً قوياً عارماً"⁽¹⁾، فالعام هنا يتضمن القوي بالضرورة، وهو تضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى، وهذا الشكل كثير الوقع في النص الإقناعي العربي⁽²⁾.

5- هذا الشكل هو عكس الشكل السابق، حيث إنَّ الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثانية؛ ومن ذلك قول الإخشيد في سياق احتجاجه لحسن سياسة مالكه ورعايته: "وسياستنا لهذه المالك قريبها وبعدها، على عظمها وسعتها، بفضل الله علينا، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعاية"⁽³⁾. فالسعة مضمنة في العظم، والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العام إلى الخاص⁽⁴⁾.

ب-2- مميزات النوع الثاني: يرى محمد العبد بعد استقراءه لبعض النصوص الحجاجية العربية أنَّ هذا النوع قليل الوقع؛ مدعماً رأيه بهذا بقول الكندي في سياق احتجاجه لحرصه على دراهمه تجنبًا للفقر وال الحاجة: "فكيف

(1) مقال: الغزل الطبيعي من كتاب الفصول للعقاد، ص: 96.

(2) مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

(3) كتاب الإخشيد، من كتاب: جمهرة رسائل العرب، ج 4/419.

(4) مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

تأمروني أن أوثر أنفسكم على نفسي، وأقدم عيالكم على عيالي⁽¹⁾. ففي هذا المثال نلاحظ أن الكندي قد رادف بين (أوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى، أي أن المترادفين وقعا بصدر الجملتين⁽²⁾ وقد يقع الترادف بعجز الجملة كذلك.

بـ-3- مميزات النوع الثالث: بعد إطلاعنا على نتائج عينات الدراسة التي قام بها محمد العبد تبين لنا أن هذا النوع كثير الوقع نسبياً في التصوص الحجاجية العربية القديمة، من أمثلة هذا النوع؛ قول الكندي في دفع دعوى خصومه: "وزعمتم أنما سينا البخل إصلاحاً، والشح اقتصاداً، كما سئى قوم الهزيمة انحيازاً، والبداء عارضة"⁽³⁾. فالملاحظ هنا أن الشح أقوى من البخل، وأن البداء أعم وأقوى من الهزيمة أيضاً.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا أن تكرير المضمون من هذا النوع، يبدو آلية من آليات تشديد المعنى وإقناع المتقبل على وجه خاص حيث ترتبط الثنائيات اللفظية بإستراتيجية التوازن⁽⁴⁾.

بـ-4- مميزات النوع الرابع: من أمثلة هذا النوع قول الكندي: "فمال من حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو إتلافه، وإذا حستموه بهذا"

1) - البخلاء، عثمان أبو عمرو بن بحر الجاحظ، حقق نصه وعلق عليه: طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948، ص: 80.

2) - مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

3) - البخلاء، ص: 79.

4) - مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

الاسم، وزينتموه بهذا اللقب"⁽¹⁾، فالملاحظ أن الجملتين الأخيرتين استخدمنا لمضمون واحد، والأمثلة على هذا النوع كثيرة لا يتسع البحث لتدوينها كلّها، ولعلّ من الملائم هنا، الإشارة إلى ما لاحظه "والتراؤنچ" (Walter Ong). في قوله: "ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي – حتى عندما لا يكون في شكل شعري – إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ؛ لأن الإيقاع – حتى من الناحية الفيزيولوجية – يساعد على التذكر"⁽²⁾.

ومهما يكن، فإن المتأمل لحالات هذا النوع، يكتشف أن الجملة الثانية تميل غالباً إلى أن تكون أعم وأقوى هي الأخرى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشتراك معها في الدلالة العامة، مما يجعل لهذا النوع أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالته⁽³⁾.

وبعد تفصيل الأنواع الأربع لتكريير المضمون، والتمثيل لكل نوع، حسبما جادت له دراسة محمد العبد من نتائج، نخلص في النهاية، إلى أن تكريير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في نصوص الخطاب الإقناعي العربي، وهو لذلك أبلغ أثراً في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم أو دعواه أو مصداقية أو دحض دعوى الخصم.

1) - البخلاء، ص: 78.

2) - الشفاهية والكتابية، والتراؤنچ، ترجمة: د. حسن البنا عزالدين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1414-1994، ص: 94.

3) - مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 68.

١١-٢-٢- بنية التوازي:

أ- التوازي عند هاليداي:

قدم "هاليداي" (M.A.Halliday) في كتابه "مدخل إلى النحو الوظيفي" (An introduction to functional grammar) منهجاً لدراسة التوازي، وهذا المنهج من منظور الباحث "محمد العيد" منهجه يصلح تطبيقه على العربية^(١) على نحو ما سنرى في المتن الخطابي الخاص بخطاب الحجاج بن يوسف الثقفي.

وتبعاً لما جاء في كتاب هاليداي، نجد أن التوازي (Parataxis) عنده هو ربط بين عناصر متساوية في الحال (Equal statues)، فهناك عنصر سابق (Initiating) وعنصر آخر متصل به أو لاحق (Continuing) على أن كلّ من هذين العنصرين حر؛ بمعنى أن لكل عنصر كيانه الوظيفي الكامل وإلى جانب هذا، فهو يميّز بين التوازي على النحو السابق وبين التركيب، إذ التركيب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة؛ فهناك العنصر المتحكم وهو العنصر الحرّ، وهناك العنصر المتحكم فيه، وهو غير حرّ، وكل منطوق خليط من السلسل المتوازية والمترابطة مثل ذلك^(٢):

سأفعل إذا استطعت ولكنني لن أستطع.

2 1 ب 1 أ

١)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 71.

٢)- المرجع نفسه، ص 71.

ففي هذا المثال نرى علاقة توازي بين: "سأفعل إن استطعت" و "لكني لن أستطيع" و تبيّن هذه العلاقة هكذا: 1 2، وفي الآن ذاته نرى علاقة تراكب بين: "سأفعل" و "إن استطعت" و تبيّن هذه العلاقة هكذا: أ ب. وبالإضافة إلى ذلك، يحدّدها ليداي العلاقات الدلالية -المنطقية بين العنصرين السابق، واللاحق في بنية التوازي - في علاقتين رئيسيتين هما⁽¹⁾:

1- علاقة التمدد (Expansion): وتعني تمديد الجملة الثانية للجملة

الأولى بإحدى الطرق الثلاث التالية⁽²⁾:

* طريقة الإحكام (مساو): فالجملة الثانية تحكم الأولى كليّة أو تحكم جزءاً منها، وذلك بأن تقررها بعبارة أخرى أو بأن تحدّدها على نحو أكثر تفصيلاً، أو بأن تعقب عليها، أو بأن توضّحها نحو المثال الآتي:

فلان لم ينتظِر، جرى بعيداً

2 = 1

فالجملة الثانية تشخّص بالفعل عنصراً مذكوراً تشخّصياً أكثر توضيحاً.

* طريقة الإطالة+ (يضاف إلى): وذلك بأن تمدّ الجملة الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد، أو بأن تستثنى منها شيئاً، أو بأن تعرّض بديلاً (الواو، أو) على نحو:

فلان جرى بعيداً، واحتيا فلان وراءه.

2 + 1

(1)- مقال: النص الحاجي العربي - ص: 71.

(2)- المرجع نفسه، ص: 71.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي - وسائله ومجالاته

* طريقة التعظيم × (تكاثر بواسطه): وذلك بأن تمد الجملة الثانية الجملة الأولى بتنميتها بواسطه تكييفها مع ظرف زماني أو مكانى أو علة لا شرط (هكذا، كذلك، لهذا السبب، مع ذلك، مع أنّ، على أنّ، إذن، من ثم، حينئذ،

إذ ذاك، ...) بمثل⁽¹⁾:

كان فلان مذعوراً، ولهذا حرى بعيداً.

2 × 1

- علاقه التصميم (Projection): وتعني الجملة الثانية تصمم من خلال الجملة الأولى، وللجملة المصممة حالتان⁽²⁾:

* الحالة الأولى: أن تكون ملفوظاً (يقول); أي تنصيص مزدوج، وذلك

بأن تصمم الثانية على أنها ملفوظاً (as locution) أو بناء لفظي:

قال فلان: "سأجري بعيداً".

2 1

الحالة الثانية: أن تكون فكرة (يفكر); أي تنصيص مفرد؛ وذلك بأن

تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي:

فكرة فلام في نفسه، سأجري بعيداً⁽³⁾.

2 1

(1)- راجع في تفصيل ذلك:

- An introduction to functional grammar M.A.K Halliday Edward Arnold, London, Routledge, Chapman and Hall, Inc USA 2nd Edition (1994) : 216-225. P:23-235

- نقل عن المقال النص المجاجي العربي، ص: 72.

(2)- المرجع نفسه، ص: 216-225.

(3)- المرجع نفسه، ص: 215-225.

وعلى العموم، فإن التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليدي بنيّة تركيبيّة كثيرة في خطاب الحجاج العربي، لأنها تعدّ استراتيّجية مهمّة من استراتيّجيات الإقناع بوجهة النظر، فضلاً عن تقاطع بنية التوازي هذه أحياناً مع بنية التكرير المضموني؛ ومن أجل ذلك يمكن تطبيق ما جاء به هاليدي على الخطاب الكتافي لا الخطاب الشفاهي الذي نحن بصدده تحليله، وهذا فإن نظرية التوازي في الإلقاء ت نحو نحو آخر مستعينة بالطبع بعض ما جاء به هاليدي.

بـ- نظرية التوازي في فن الإلقاء الإقناعي:

بـ-1ـ الطرح الاستمولوجي للتوازي:

* التشابه والاختلاف: تنتصر الثقافة القديمة كثيراً للتشابه؛ وذلك لأنّها ترى أن الصفة الواحدة الناقلة للمعنى هي صفة المشابهة يقول "مشال فوكو": "فحينما كانت الأشياء تتشابه، وحيثما كان هناك تشابه، كان هناك معنى" و كان بالإمكان الحفر وراءه⁽¹⁾.

أما "هوكس" فإنه يقول: "باستخدام التشابه و بتسلسلي تكرارية التساويات" في الأصوات وفي التّير وفي الصور والإيقاعات، كل ذلك يجعل اللغة مكثفة⁽²⁾.

ويعود الإيمان العميق بالتشابه إلى طبيعة العلاقات الداخليّة في مجتمعات القرن السادس عشر القائمة على الانسجام والتّوافق مما عكس طبيعة رؤيتها

(1)- جينالوجيا المعرفة، مشال فوكو، ترجمة: أحمد السلطاني و عبد السلام بنعبد العالى، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988، ص: 34.

(2)- القول الشعري، د. رجاء عيد، ص: 200.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي -وسائله و مجالاته

لأشياء وهو الأمر نفسه الذي دفع الثقافة القديمة إلى البحث عن سبل التوافق لكل المتغيرات والمتضادات⁽¹⁾.

وقد حصر "ميشال فوكو" مفاهيم اندرجت ضمن التشابه⁽²⁾، وهي:

1- مفهوم التلاؤم: ويقصد به تواافق الأدلة؛ مثل: تواافق النفس مع الجسد، أي الدال مع المدلول.

2- مفهوم التعاطف (Sympathies): وهو توحد الأعراض في جواهر مختلفة.

3- مفهوم Emulation (أي توازي الأشياء المتباعدة).

4- مفهوم الأثر: وهو صورة لخاصة لا تظهر من بين الخصائص الجلية للفرد.

5- مفهوم التجانس الذي يقصد به تناسب وحدتين متمايزتين جوهرياً.

ويبدو أن معظم هذه المفاهيم لا تقوم على ذاتها بالضرورة، وإنما تبني على ما يخالفها ضمن علاقة التفاعل بين الموجودات المتغيرة وكما هو واضح، فإن التعاطف هو توحد منبني على الاختلاف، والتوازي مبني على التباين والتجانس مبني على التمايز، الأمر الذي يحيل إلى إمكانية التشابه التي تقوم أساساً على حصول اختلاف واقع سلفاً⁽³⁾.

1) الشعرية، مقوله التوازي، ص: 105.

2) جينالوجيا المعرفة، ميشال فوكو، ص: 34-35.

3) الشعرية ومقوله التوازي، ص: 105.

* التوافق والانسجام: تميّز التراث العربي بكونه يسعى دوماً إلى اعتبار الكلام الفصيح، ما توافق فيه الدال والمدلول، وانسجم اللفظ مع المعنى في السياق كما أكّد ذلك عبد القاهر الجرجاني بنظريته الشهيرة "النغم" لهذا تكثر مصطلحات من مثل؛ المناسبة، المشابهة، المشاكلة، المحاكاة، وكلها مصطلحات لفاهيم شكلت محور النقد العربي القديم عن طريق ترتيب الكلام من خلال تثبيت علاقة الدال بالمدلول، والبحث في إمكانية مطابقة اللفظ للمعنى، وليس ذلك فحسب؛ بل إن المشابهة تسعى حتى إلى البحث أيضاً عن "المناسبة بين المبادئ" كما يرى القرطاجي⁽¹⁾.

ومن منظور جابر عصفور، فقد اقترن التناسب مع الوحدة⁽²⁾، وذلك لاعتبار أساسي، وهو أنّ العمل اللغوي يعدّ بمثابة وحدة تتفاعل فيها جميع المكونات اللسانية وما فوق اللسانية أيضاً، هذه الوحدة التي تشكل مكاناً لاستدرج التناسب والتناسق، ليليه استدرج النفس والاستماع، وبالتالي اهتمام المستقبل، وعلى حدّ تعبير القرطاجي: "كلّما وردت أنواع الشيء وضروربه متربّة على نظام متشاكل وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجّيب النفس، وإبلاغها بالاستمتاع بالشيء، ووقع منها الموضع الذي ترتاح إليه"⁽³⁾.

* الاختلاف والتضاد: إن علاقة المشابهة لا تعني بالضبط التشابه والانسجام والتوافق؛ بل يفهم منها أيضاً الاختلاف والتضاد؛ ذلك أن هذه

1) منهاج البلغاء، حازم القرطاجي، ص: 31.

2) مفهوم الشعر، جابر عصفور، ص: 273.

3) منهاج البلغاء، ص: 245.

العلاقات نفسها لا تتشابه إلا إذا كانت مختلفة في الأصل، فلا يحدث تطابق إلا إذا كان المتطابقان مختلفين في الواقع (هايدغر)، فالمتشابهات دائمًا تتشكّل من نمط خاص من الاختلافات والعكس صحيح⁽¹⁾.

وبحسبياً لفكرة "رجاء عيد" يقول كمال أبو ديب ولقد "... أصرّ الجرجاني كما أصرّ أرسطو قبله، ثم كما أصرّ كولوريidge بعدهما على أنّ (المتشابهة) هي تلك التي تكشف بين مخلفات، وأنّ التشابه المطلق بعدم التشبيه أو الاستعارة أو الرّمز، وينبع تدفق الشعرية، وقد طرح ريتشاردز فيما بعد فرضيته المعروفة في أنّ الاستعارة لا تقوم في الواقع على المتشابهة بقدر ما تقوم على المغايرة والاختلاف⁽²⁾.

ولكن يجب الانتباه إلى هذا التضاد الذي أشار إليه بعض النقاد، لأنّه لا يمكنه أن يحدث إلا داخل نقد من التمايزات، حيث يتم توزيع هذا المكونات المتمايزة نسبياً وفق ما يحيل إلى فكرة الانتظام المطرد الذي هو قدر كل العلاقات النسقية؛ ومن أجل ذلك ترى "يمن العيد" أن التضاد يعني داخل نسق منتظم ويتحقق باطنياً ضمن عوامل المتشابهة والتناسب بالأساس⁽³⁾.

يفهم مما سبق؛ أنّ علاقة المتشابهة باللغة علاقة فنية جمالية إفتاعية بالدرجة الأولى؛ لأنّها تمنح اللغة كثافة شعرية عالية، ومن ناحية أخرى، يمكننا القول إنّ علاقة المتشابهة باللغة في علاقة إقناعية كذلك، ما دامت المتشابهة تنشأ

1) - القول الشعري، رجاء عيد، ص: 194.

2) - في الشعرية، كمال أبو ديب، ص: 46.

3) - في معرفة النص، د. يمن العيد، ص: 32.

كوحدة من الأنماق المكونة للنص الأدبي في عمومه، بداية بالنسق الصوتي ثم الصرف ثم التركيبي ثم الدلالي، وهي على صعيد كل هذه الأنماق تشكل الجوهر الحقيقى للإبداع.

جـ- التوازي في اللغة العربية:

يعد التوازي في البلاغة العربية القديمة قسماً من بين ثلاثة أقسام رئيسة للسجع؛ وهي: المطرّف، المتوازن، والمتوازي؛

- فأمّا المطرّف فهو أن تختلف كلماته في عدد الحروف، وتتفق في الحرف الأخير؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكِثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر﴾⁽¹⁾.

- وأمّا المتوازن فهو أن تتفق كلماته في عدد الحروف، وتختلف في نوع الحرف الأخير كقول علي -رضي الله عنه-: "كثرة الحمد لله غير مفقود الأنعم ولا مكافأة للأفضل".

- وأمّا المتوازي⁽²⁾ فهو ما اتفقت كلماته في عدد حروفها، ونوع الحرف الأخير كقول علي -رضي الله عنه-: "كثرة الوفاق نفاق، وكثرة الخلاف شقاق".

ويمكن قياس الفرق بين المتوازي والمتوازن بحجم الاتفاق بينهما؛ فالمتوازي ينطوي على اتفاق في جميع أوصاف الوحدات، إيقاعاً وفي عدد

1) سورة المدثر، الآيات: 6-7.

2) يبدو أن التوازن أقرب إلى التوازي مفهوماً واصطلاحاً أيضاً، وهذا ما سرّاه مع بنية المزدوج باعتبارها وسيلة لغوية من وسائل الإقناع.

المحروف، وفي الحرف الأخير⁽¹⁾. أمّا التوازن، فإنه يحمل اتفاقاً فقط في عدد حروف الوحدات اللغوية، ويترع عن الاتفاق في الحرف الأخير⁽²⁾. وكأنّ التوازن مختصّ بوزن المركبات اللغوية وثقلها، وحجمها، بينما التوازي مختصّ بتحديد زمن انتهاء الجملة أو بتداعيم ذلك باتفاق المحروف الأخيرة فيما بينها. يستنتج مما سبق تحديده، أنّ سجع التوازي يحمل اتفاقاً شاملاً في أوصاف المركبين المتاليين على خلاف سجع المطرّف وسجع التوازن، ولعلّ هذا ما يضفي خصوصية الجمالية على الجمل بسعةً أكبر، وقدرٌ أوفر من النوعين الثانيين وخصوصاً، وأنّ الثقافة البلاغية القديمة تقوم على التشابه وتسعى إلى تحقيقه في جميع أنواعها وأقسامها تحقيقاً كاملاً⁽³⁾. وبطبيعة الحال، فإنّ النفس تهتزّ وتطيب لكل جميل، ومن هذا المطلق، فإنّ التوازي هو أقدر أنواع السجع على تحقيق الاتفاق والوصول إلى التشابه التام، الذي بفضلِه يمكن جمالياً ترجيح مركبات لغوية انتهت إلى هذا النوع دون غيره.

وعلى هذا الأساس، يمكن تجاوز الطرح الاستمولوجي واللغوي للتوازي، ليتمكننا الجزم بأن التوازي، ينطوي على كل مركبات أنواع البديع؛ فالتوازي في هذه الحالة مرهون باتفاق تمام لجميع أنواع البديع وألوان الكلام،

1) - أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحرياني، تحقيق: د. عبد القادر حسين، دار الشرق، د. ط، 1981، ص: 54-55.

2) المرجع نفسه، ص: 55.

(3) - مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 115.

وقد استطاع "محمد مفتاح" أن يجمع لنا بعض التعاريف المشتركة بين التراث والتعريفات الأجنبية؛ فالتواريزي هو⁽¹⁾:

1- إعادة اللفظ أو تكريره.

2- التوازن بين الأقوال.

3- التوازي شامل لكل مستويات التعبير.

4- التوازن أنواع.

وإذا كان "محمد مفتاح" قد بحث عن خصوصيات التوازي في كتاب "المترع البديع" للسجلماسي⁽²⁾؛ فإن التوازي في تعريفات القدامى خاصية غير مقصورة على الشعر؛ وإنما تتعدّاه لتشمل النثر، ذلك أن التوازي في مفهومه العام؛ اتفاق وحدات لغوية فيما بينها من حيث عدد الألفاظ، وعدد الحروف وفي الحروف الأخيرة للتراكيب اللغوية، وهذا الاتفاق ليس من حق الشعر فحسب، وإنما من حق النثر لأن يتونّه كذلك تمثلاً للإمتناع والإقناع⁽³⁾.

ويفترض مبدئياً أن تتوالي المسافة الزمنية للإلقاء لا يتوقف على تحديد مسافة زمنية وفق السجع أو الجناس، بحيث تتوالي هذه المسافة برتابة واحدة وآلية واحدة، وإنما يفترض أن تحدّد المسافات الزمنية خارج مفاهيم القصر والطول، الرتابة والفوضى.

(1) - الشابه والاختلاف، محمد مفتاح، ص: 91.

(2) - المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم السجلماسي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980، نقلًا عن كتاب الشابه والاختلاف، ص: 98.

(3) - مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 117.

حيث إن التوازي لا تحدّده التكرارات السريعة والرتيبة المحلية وإنما يمكنه أن يشكل محوراً لا يظهر في الخطاب، ولكن يمنحه جماليته المطلوبة⁽¹⁾. وهكذا، يتجلّى التوازي بشكل أعمق في التعبير الشفاهي (الإلقاء) أكثر منه في التعبير الكتائي، نظراً لكونه يساعد على الاحتفاظ بوجوده من خلال تخيّب النص الشفاهي خطر الضياع والنسيان، ولا شك أن عامل التكرار هو أكثر العوامل الشفاهية تحسيناً للتوازي⁽²⁾.

د- التوازي من المنظور الغربي:

لم يتم البحث في خصوصيات التوازي من جانب البلاغة العربية فقط، وإنما تناوله الغرب هم كذلك كما سبق الذكر مع "هاليداي" ثم مع "جيرار مانيلي هوبكنس" وذلك منذ 1865 ويعود "هوبكنس" من أشهر شعراء القرن الماضي، وحسب منظور هذا الشاعر فإن التوازي وليد الثقافة القديمة التي يمثلها الشعر العربي، والترنيمات التجاويم لموسيقى الكنيسة، ثم تلك الأشعار المعقدة للشعر اليوناني والإيطالي والإنجليزي⁽³⁾.

وبحذير بالإشارة أنّ الذي شدّ هوبكنس إلى التوازي ليس هو تساوي الصيغ وإنما السمة الزخرفية التي تُحلّق في جوّ القصيدة، وهو لذلك يقول: "إنَّ الجانب الزخرفي في الشعر، بل وقد لا ينطوي حين نقول بأنَّ كل زخرف

1)- مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 118.

2)- مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 118.

3)- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 85.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي - وسائله و مجالاته

يتلخص في مبدأ التوازي⁽¹⁾، ومن أجل ذلك فهو يعتقد أنَّ التوازي ليس مقصوراً فقط على ما يشبه القافية (ويتعلق الأمر هنا بأشكال الصوت)، وإنما أيضاً يتسع ليلامس أنماط الدلالة، وهو لهذا قسم التوازي إلى قسمين: توازي المشابهة، وتوازي المخالفة.

ومن منظور هذا الشاعر، فإن توازي المشابهة ينبع عن توافق البنى شكلاً ومضموناً، فهو إما أن يكون توازياً غرضه التحسين (الإمتناع)، أو توازياً غايته التأكيد (الإقناع). أما توازي المخالفة، فإنه ينتمي إلى التعارض الانتقالي أو التلويني كما سماه هوبكنس وعلى حد تعبيره فإنَّ "التوازي نوعان بالضرورة؛ فإذاً أن يكون التعارض موسوماً بشكل واضح، وإنما أنه بالأحرى انتقالي أو تلويني، والنوع الأول فحسب، أي نوع التوازي الموسوم، هو الذي يتعلّق ببنية البيت بالإيقاع (تكرار متواالية معينة من المقاطع) وبالوزن (تكرار متواالية إيقاعية معينة بالجناس وبالسجع وبالقافية"⁽²⁾.

ولا يكتفي هوبكنس بتحديد توازي المشابهة والمخالفة، وإنما يضيف قائلاً: "وتكمّن قوّة هذا التكرار في كونها تولد تكراراً أو توازياً مناسباً في الكلمات أو في الفكرة؛ ويمكننا القول إجمالاً ونحن نسجل أنَّ الأمر يتعلّق بترويع أكثر مما يتعلّق بنتيجة ثابتة، بأنَّ التوازي الشديد الوسم في البنية، إما التوازي الناتج عن تحسين، وإنما التوازي الناتج عن تأكيد) هو الذي يولّد التوازي الشديد الوسم في الكلمات والمعنى... وتنتمي الاستعارة التشبيه والتّمثيل الخ، إلى

1-) قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 105-106.

2-) المرجع نفسه، ص: 106.

نوع التوازي المنقطع أو الموسوم، حيث يلتمس الأثر في تشابه الأشياء، وينتمي الطّباق والتباين الح، إلى ذلك النوع الذي يلتمس فيه المغایرة⁽¹⁾.

وعلى حدّ تعبير جاكوبسون "يكتشف الباحثون باستمرار في العالم كله أنساقاً أخرى من الإبداع الشفوي القائمة على التوازي المعد... الأكثر من هذا آثنا نكتشف بفضل أبحاث الأنثروبولوجيين الذين استوّعوا مبادئ المنهاجية اللسانية مثل جيمس فوكس (...). أن الدور الذي يلعبه التوازي في التراث وفي إبداع الأسطورة يكشف عن إمكانات متجلدة باستمرار وغير متوقعة في الخصائص البنوية للتوازي"⁽²⁾.

وكمما أدرك جاكوبسون وجيمس فوكس خاصية التوازي أدركها أيضاً الباحث "بودلير" وسماها بالتأثر واعتبرها حاجة من الحاجات الأولية للذهن الإنساني⁽³⁾، أما "دي سوسيير" وضمن مفهوم النسق الذي يفترض علاقة حركية، فقد كشف في مقال له بعنوان: "الشعرية المصوّبة" أنه يمكن لنسق التناسبات الصوتية وال نحوية وبالخصوص التناسبات الثانية أن توزّع بحرّية تامة⁽⁴⁾.

ولقد استطاع جاكوبسون بدهائه أن يتخلّص من ورطة فقدان التوازي لأداته الإجرائية في تمييز الشعر عن النثر، وذلك بقوله: "ليس التوازي شيئاً خاصاً باللغة الشعرية، إنّ هناك أنماطاً من النثر الأدبي تتشكّل وفق المبدأ المنسجم

1) - قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 47-48.

2) - المرجع نفسه، ص: 107.

3) - المرجع نفسه، ص: 83.

4) - المرجع نفسه، ص: 107.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي - وسائله ومجالاته-

للتواري...⁽¹⁾، وهو لذلك رصد الاختلافات الموجودة بين الشعر والنشر، بناء على أن التوازي في الشعر قائم على البنية الصوتية؛ فوحدات الوزن، والسنم، والتكرار، والعروض، والتطریز، كلها تفرض بنية التوازي، بينما توازي النثر لا يقوم إلا على الوحدات الدلالية ذات الطاقة المختلفة التي تنظم بالأساس البنيات المتوازية⁽²⁾.

ويعتقد معظم النقاد والدارسين أن عملية التوازي تنشأ غالباً من تكرار الحالة نفسها، فهي التي تثير في الذهن ميلاً إلى نسق ينطوي على إمكانية تخصيص بني لغوية معينة بالتكرار، وهي بني لا يمكن الالتفات إليها دون عامل التكرار الذي حقّقها وعامل التوازي الذي عقبها كحالة شعرية خاصة⁽³⁾.

هـ- التوازي وشعرية الإلقاء الخطابي وأثرهما في الإقناع:

إن كل ما يطبق على إلقاء القصائد الشعرية، ينسحب على الإلقاء الخطابي، ومن أجل ذلك تتبع شعرية الإلقاء مستويين من التحليل، التحليل النصي والبحث في بنية المفهوم، والتحليل الخطابي أو البحث في بنية التلفظ.

فأمّا التحليل النصي، فهو البحث عن تفاعل العناصر التكرّرة عبر علاقات التوازي داخل النصّ والمن اللّغوي، حيث سيتم إلغاء جميع البني النصية

1) - قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 168.

2) - المرجع نفسه، ص: 108.

3) - شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 137.

الأخرى جزئياً كالبني الصرفية والتركيبية، والاكتفاء بالبنية الصوتية؛ لأنها تشكل فيما بعد محور تحليل الخطاب⁽¹⁾.

أما التحليل الخطابي؛ فهو البحث في شعرية الإلقاء أو كيف يتناول الخطيب أو الشاعر خطابه بطريقة شعرية، وهو بحث يتناول بالدراسة عوامل الشعرية المساعدة على الإلقاء المؤثر، إن على مستوى الإمتاع أو على مستوى الإقناع، على أن هذه العوامل تقوم أساساً على خاصية التلفظ التي لا يمكن بدونها أن تتجلى الشعرية جوهرياً وتتغير حسب من يؤديها⁽²⁾.

وإذا كانت الشعرية النصية تمثل في لحظة توالي السيني اللغوية والعروضية، فإنّ الشعرية الخطابية تمثل في توالي الإلقاء (الأداء).

وتحدر الإشارة إلى أن هناك نظريات غربية قد حاولت أن تدرس خصائص القراءة الشعرية، وذلك من خلال تسجيل الصوت وفق أدوات علمية حديثة، حيث أسس بعضها لنظرية الوزن الصوتي بناءً على الاعتقاد الجاد بوجود خصائص للوزن، وللأصوات في عمليات الإلقاء الشعري.

يقول "رنبيه ويليك"، و"أوستين وارين" عن نظرية الوزن الصوتي: "تحظى اليوم باحترام كبير، فهي تقوم على استقصاء موضوعي يستخدم غالباً أدوات عملية مثل راسم الذبذبات (Oscillographe) الذي يسمح بتسجيل و حتى تصوير الأحداث الفعلية خلال قراءة الشعر، وقد طبق تقنيات السير الصوتي

1)- شعرية الإلقاء و مقوله التوازي، ص: 134.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العلمي على الأوزان "سفرز" و "ساران" في ألمانيا، و "فارير" الذي استخدم في فرنسا مواداً نكizerية في معظمها⁽¹⁾.

وهناك أيضاً دعوة بدأت تتطور في الوطن العربي تدعى إلى دراسة المنطوق والمدلول دراسة تجريبية⁽²⁾. يقول "صلاح فضل في هذا الشأن: "...إن هناك نوعاً من إيحاء التشابه أو التناظر يعتمد على لون من القياس القائم بين المدلول والمنطوق، كما يحدث في حالات النبر والتضليل والتكرار مما يؤكّد وجود طاقة إيحائية كامنة ففي طبيعة البنية الصوتية المناسبة أو المتعثرة الحادة أو الرصينة؛ ومن الحكمة ترك هذه الخصائص لمزيد من الدراسات التجريبية..."⁽³⁾. إن الإيمان العميق بشعريّة الإلقاء هو الذي سيسنح الخطيب القدرة أو التفّق، وهو الذي سيعيد للشعرية البنوية اللّفظية خاصيتها المفقودة، وإذا كان الدور الخاص بالشعرية الأدبية هو مسائلة العبارة لا المحتوى كما يقول "جون كوهين"⁽⁴⁾. فإن الدور الخاص بالشعرية الإلقاء هو مساعدة تلفظ العبارة. وإذا كانت الدراسات في الشعرية التلفظية الأكوسنطيكية لم تشرع بعد، وأكتفت بالشعرية الخاضعة للسانيات الجملة؛ فإنّ معظم النقاد يتفق على أن

1) - نظرية الأدب رينيه ويليك وأوستين وارين، ترجمة: محى الدين صبحي، مراجعة د. حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص: 174.

2) - لقد قام الباحث الجزائري زروق داوود بريكسبي بتحليل مهارات القراءة على ضوء "نظرية التبليغ" وذلك في رسالة جامعية بعنوان (مساهمة التحليل الكتابي والصوتي لفهم النص: الطريقة التبليغية) بإشراف الأستاذ: س. قوفان - بجامعة الجزائر.

3) - النظرية النهاية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، ص: 471.

4) - بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص: 38.

لإلقاء دوراً بارزاً في إضفاء جمالية معينة. يقول رجاء عيد: "...لا يمكن أن ننكر أنّ فاعلية "النصّ" تكتسب حرارة عن طريق أدائه، ولا جدال في أنه يمكن أن تؤدي قصيدة ما بطريق مختلفة على لسان عدة مؤدين، حيث نجد أنّ كلاً منهم يضغط على وجه من أوجه القصيدة، فذلك يهتم بالإيقاع النغمي، وذلك يهتم بالأجزاء السيمانطيكية، وثالث يهتم أو يركز على التركيبات الشعرية، ومهما يكن للنصّ من جدل حول هذه النقطة، وبغضّ النظر عن قارئ النصّ، فسوف تظلّ بنيته غير المتغيرة وله - كذلك - خواصه السمعية التي يكمل بها كلّ"⁽¹⁾.

وبناءً على هذا التصور، فإنّ إلقاء يعتمد على عنصر هام ألا وهو حسن مخارج الأصوات، فلا يكون ثمة مرض من أمراض الكلام، مثل ثقل اللسان، أو فتحات الأسنان، مما يتولد عنه نوع من التأتأة أو الثائة، وإلى جانب ذلك لا بدّ - كما سبق الذكر - من المعرفة التامة ببلاغة اللغة والإحساس الشديد بمتطلباتها؛ لأنّ هناك لوناً من إلقاء يحتاج إلى التتابع والتلاحم، وهناك نمط يحتاج إلى التأني والضغط على بعض المقاطع، وهناك نوعاً يحتاج إلى التقرير أو الإنشاء أو الحضّ أو التمني أو الاستفهام أو التعجب،... أو القطع أو الوصل وكلّ هذا لا بدّ له من التمرّس⁽²⁾.

ولا يخفى على أحد أنّ إلقاء موهبة من الله يمنحها الله لكثير من الأشخاص، ثمّ تأتي مرحلة الصقل بالتدريب، فكم من شاعر لا يستطيع إلقاء

1) القول الشعري، د. رجاء عيد، ص: 204.

2) الخطابة العربية وفن إلقاء، ص: 98.

شعره، وكم من كاتب لا يستطيع التعبير عن حاجة نفسه في صورة كلامية، وطريقة الإلقاء تجود وتعظم كلما كان الخطيب أو الممثل قد انفعل بمحققه، وفهم حقيقة دوره وجوانب الموضوع الذي سيعالجه، وإحساسه الشديد بالنسبة الكلامية، والقدرة على التجسيد والتخيص والتصوير كلما كان أقدر على التأثير والسيطرة على متاعب المستقبلين⁽¹⁾.

هـ-1- الإيقاع الخطابي:

هـ-1-1- البنية الصوتية: يضع أسطو الصناعة الصوتية في الخطابة في متلة وسط بين النظم المطرد الوزن والنشر المرسل؛ وهو لذلك يرى أن "شكل المقالة ينبغي أن يكون غير ذي وزن ولا عدد فإن ذلك النحو غير مقنع لأنه يظنّ أنه مختلف أو يراد به التعجب... فأمّا الاسم اللاموزون (الذى بدون إيقاع) أي السُّخيف فإنه لا متناهٍ (غير محدود). وينبغي أن يكون متناهياً بشيء وليس بوزن، فإن الذي لا ينتهي شيء وهو خفي مشكل، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات⁽²⁾ وأما وزن فلا"⁽³⁾.

يفهم من كلام أسطو هذا أن النثر الخطابي ينبغي إذن، أن يكون إيقاعياً غير مطرد الوزن ولذلك يفضل أسطو العبارة المقسمة المقابلة على العبارة المسترسلة، أي يفضل العبارة التي يدرك الطرف نهايتها، "وذلك أن الكل

1)- الخطابة العربية وفن الإلقاء، ص: 98.

2)- النبرات: أي الإيقاع.

3)- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 283-284.

يسرون إذا رأوا النهاية. وقد ينبغي أن يكون للعطف وللمعنى معاً متنهى وألا يتقطعان كمثل الشعر⁽¹⁾.

ومن منظور "أدونيس" فإن النشيد (رفع الصوت) جسد مفاصله الوزن والإيقاع والنغم، وعلى أحكماته الغنى تتوقف استجابة السمع، فالنشيد فنٌ في الصوت يفترض فناً يقابلها هو فن الإصغاء، وقد تم هذا الإحكام بالتوصل شيئاً فشيئاً إلى ابتكار بني إيقاعية خاصة⁽²⁾.

وبديهي أن الثقافة الشفاهية تأسس محوريّاً على مبدأ السماع، وإذا كانت كلمة بلاغة (Rhétorike) تعني "الكلام أمام الناس" أو الخطابة⁽³⁾ فإن "الترجم أونج" رأيا آخر يتمثل في كون أنّ كلمة بلاغة "ظلت دون تأمل أو إعمال فكر في الغالب لدّة قرون - حتى في الثقافات الكتابية والطبعية - نموذجاً لكل خطاب؛ شفاهياً أو مكتوباً"⁽⁴⁾.

وإذا كان أرسطو يعتقد أن للإيقاع دوراً أساسياً في التعبير الخطابي يهز الأذن، ويحرك النفس، فإنه قد حظر سلفاً - كما سبق الذكر - على الخطيب استعمال الكلمات الموزونة تجنبًا للتکفل والتصنّع؛ ولهذا فهو ينصح الخطيب بأن تكون الجمل "ذات أجزاء لا طويلة ولا قصيرة، يسهل النطق بها في نفس واحد،

[1] - الخطابة، أرسطو، ص: 8، نقلًا عن: بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، ص: 113.

[2] - الشعرية العربية، أدونيس، ص: 09-10.

[3] - الشفاهية والكتابية، والترجم أونج، ص: 57.

[4] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لأنها لو كانت جدّ طويلة ملّها السامع، وتختلف عن متابعتها، وإذا جاءت جدّ قصيرة فاجأته فجعلته يضيق بها كأنما تعثر فكره⁽¹⁾.

وبعد كلّ هذا، فإنّ أيّ عملية إلقاء أدائية لا تتحقق إلا على مستويين: المستوى الصوتي للغة، والمستوى الدلالي؛ فال الأول يشكل البنية الأساسية التي تحدد للمستوى الدلالي طريقه إلى الأذن، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقع المستويان على نفس القدر من التعادل والمساواة، لأنّ ذلك سيتحقق للغة تواظنها الذي تتتصف به اللغة التشرية (الخطابة)، بينما تصبح اللغة الشعرية أميّل إلى الصوت بكلّ مكوناته اللسانية وغير اللسانية⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، فإن المستوى الدلالي المبني أساساً على صعيد سيكولوجي وعلى صعيد نحوي لا يمكنه أن يميّز الشعر عن التشر؛ لأنّه كثيراً ما تتميّز به اللغة التواصلية الهدافـة إلى إيصال الفكرة، بينما يشكل الصوت محور الواقعـة الشعرية.

هـ-1-1-1- تواديـي البنية الصوتـية:

* تواديـي الواقع: ينشأ تواديـي البنية الصوتـية انتـلاقاً من تكرار الوحدات المعجمـية المتماثلة بينـها، ولا ينبغي أن يشرع في تحلـيل البنية الصوتـية بـهدف التأكـد من تواديـتها إلاّ بعد تحـديد موقع معينة داخـل هذه البنية نفسها.

وعلى الجملـة، ينطلق تواديـي البنية الصوتـية ابتداءً من المكان الذي يمكن أن تـتوـلـد فيه الـبدـائل؛ لأنـّ هذه الـبدـائل لا تنطـوي إلاّ على دلـالة بنـوية جـمـالية أو

1) النقد الأدبي الحديث، د.غيني هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973، ص: 99.

2) مقولـة التوازي وـشعرـية الإلـقاء، ص: 137.

معنوية في داخلها أو كما يقول "صمويل-ر-ليفني": "لا يتولد البديل صدفة في أيّ مكان"⁽¹⁾، وهذا هو ما يسمى بالموقع؛ ولا يسمى موقعاً إلا إذا ضمن الاستبدال في السلسلة اللغوية، مما يتحقق ذلك التجانس والانسجام والحرس الموسيقي أو ما يسمى بالتماثل⁽²⁾.

*** توادي الصوت:** من الناس من يسمع الإنسان صوته محدثاً أو قارئاً أو خطيباً، فيشعر بنغماته تثير ارتياحه، وبرنينه يهزّ إحساسه، وبعمقه يصل إلى أبعد غور في نفسه، وبتشكيله بأشكال مختلفة؛ يتضح المعنى، وينكشف المبهم. ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني، فترى العبارات، قد فقدت جزءاً كبيراً من هجتها، وذهب من المعاني أكثر روعتها؛ مما يدلّ على أن للأصوات أثراً كبيراً في وقع الكلام أو قبحه⁽³⁾.

ويبدو واضحاً أن المرجع في تأثير هذه العبارات لا يعود إلى جمالها أو قبحها، ولكن إلى ركوزها وعمقها، ورياضتها على تصوير المعانٍ، وجودة نقل الخواطر؛ لأن الأصوات والألفاظ تتآزر في الدلالة على المعاني النفسية، ولا شيء كالصوت يعطي للألفاظ قوّة وحياة، وحسن استخدامه يخلق جوّاً عاطفياً يضل السامعين، ويستولي على قلوبهم وعقوّلهم⁽⁴⁾.

لذلك يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعانٍ، وأن يجعل من نغمات صوته، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ،

1) - البنيات اللسانية في الشعر، صمويل-ر-ليفن، ص: 27.

2) - مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 142.

3) - الخطابة العربية في أزهر عصورها، ص: 120.

4) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فلا يخفي صوته حتى يصير همسا في آذان المستقبلين ولا يرفع صوته حتى يصبح صياحاً، بل يكون بين هذا وذاك وبين المرتبتين متسع لفنون القول، ودرجات الكلام، وأنواعه وغاياته⁽¹⁾.

هذا عن الصوت المؤدى، أمّا توازيه، فإنه ينشأ بناءً على تكراره المتدقق في سياق النص، وهو التكرار الذي يضفي على الصوت رمزية معينة تشير إلى دلالة خاصة، فالنص مهما كان ليس -في الواقع- إلا ركاماً وتكراراً لنواة معنوية موجودة قبل⁽²⁾، وهذا الركام يمنع انتباها مهما ودقيقاً ومركزاً على الصوت المقصود بالتكرار.

ومهما يكن، فإن للأصوات قيمتها التعبيرية التي ترجع إلى طبيعة تلك الأصوات؛ فالصوت المهموس يتصرف بالرفاهة والهمس، وهو صفتان تبعثان على التأمل والتقصي العميق لجوانية اللغة، وفي حالة طغيان أصوات الهمس يزداد تأثير الصوت على حاسة البصر، بمعنى أن الأصوات المجهورة تصلح لرفع الصوت، أمّا الأصوات المهموسة فالتعامل الأمثل معها يتم عن طريق القراءة.

وعلى هذا الاعتبار، يبدو أن توازي النص قائم على الأصوات المهموسة، أمّا توازي الخطاب فهو قائم على الأصوات المجهورة نسبياً، ولهذا وسّع "غرامون" من مفهوم القيمة التعبيرية للأصوات بقوله: "تحدد القيمة التعبيرية للأصوات باعتبارات خارجة عن الأشعار التي تستعمل فيها تلك

1) الخطابة العربية في أزهر عصورها، ص: 120.

2) تحليل الخطاب، د. محمد مفتاح، ص: 65.

الأصوات، فقيمتها التعبيرية ترجع إلى طبيعة تلك الأصوات نفسها، وإن الأشعار تأتي فيما بعد إلا شبيهة بأمثلة مخصصة للبرهنة على النظرية⁽¹⁾.

وهكذا يمكن للأصوات أن تعمل على تكشف المعنى من خلال معانيها الذاتية⁽²⁾ وبفضل التراكم يصبح لرمذية الصوت مكان تتجسد فيه الدلالات والمعنى على أن هذا التراكم -على حد تعبير محمد مفتاح- هو أحد مؤشرات التأويل للرمذية الصوتية إلى جانب السياق الملائم⁽³⁾. ومن هذا المنطلق بشكل التراكم الصوتي للنواة ظاهرة التوازي المستمر.

* توازي المعجم الصوتي: لم يعد تكرار الصوت مقتصرًا على ذاته بفرادتها، وإنما على ذاته ضمن الكلمة نفسها، فالتكرار المعجمي ليس في الواقع إلا تكراراً للصوت، وتكرار الوحدة الصوتية الدالة يخلق نوعاً من توازي الأصوات من خلال تراتبية نغمها، ومعنى الخطاب يشيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يشيره بناء الكلمات كمعان، وما ذلك التكشف الذي نشعر به في أي خطاب إلا نتيجة لبناء الأصوات⁽⁴⁾.

* توازي القلب: أصبح الجناس عملاً مقصوداً في بعض الأعمال النثرية، لا يخلق توازٍ فقط، وإنما بناءً لرمذية معينة، رمذية تتجاوز حدوداً الفونيمات

1)- Introduction à l'analyse linguistique de la poésie, J. Molino et J. Tamine, P.U.F, Paris, 1982- P58-59.

- نقلًا عن تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 34.

(2)- الشعرية والتجربة، أرشيدالدمكليش، ص: 68-67.

(3)- تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 36.

(4)- الشعر والتجربة، أرشيدالدمكليش، ص: 23.

إلى المستوى التركيبي لها؛ كما ينبع التوازي أيضاً من الاستبدالات الواقعية على المخور النسقي لا على المخور التراصفي⁽¹⁾.

وعلى العموم ينعم رفع الصوت بكثافة المعنى وشحنة الدلالة، إذ يرتبط بالبنية الصوتية بمحظوظ مختلف مستوياتها؛ الموقعة والرمزية والصفاتية مما يزيد شعرية الخطاب. يقول أرشيبالد مكليش: "...إن الكلمات كأصوات هي مطاوعة مرنة، وأن معانيها قد تتضاعف بتكييف أشكالها وحركتها في الأذن...".⁽²⁾

فالباحث "مكليش" بحث هنا عن أهمية الإصغاء الجيد إبان الاستماع إلى نص أو خطاب، مستنتاجاً أن هناك ما هو مفهوم للأذن أكثر مثلاً هو مفهوم للعين، وذلك أن طريقة ترتيب الأصوات هي التي تعمل على تحريف المعانٍ أو مضاعفتها فيها.⁽³⁾

*** المقطع:** يعتبر المقطع بمثابة الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم ضمنها وظيفة⁽⁴⁾ وهو أيضاً الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر أو نغمة واحدة⁽⁵⁾، كما يعرفها "روبنس" بقوله: "وقد تأسس مفهوم المقطع بناءً على الإسماع"⁽⁶⁾ الذي ينطوي ضمنياً على خاصية الزمان.

1) - مقوله التوازي، وشعرية الإلقاء، ص: 148.

2) - الشعر والتجربة، ص: 27.

3) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4)- Barres of phonology, steton R.H.Ohio, 1945, P17.

- نقلًا عن كتاب دراسة علم الأصوات، للدكتور أحمد مختار عمر، ص: 243.

5)- General linguistics, Robins R.H.GB, 1966, P138.

- نقلًا عن د.أحمد مختار عمر، ص: 242-243.

6)- دروس في الألسنة العامة، فيرديناند دي سوسيير، ص: 28.

ومن موقع الإلقاء يمكن تفصيل المقطع بحسب القصر، والتواتر، والطول، وهي مقاييس ترتبط غالباً بالمستوى التلفظي أكثر بكثير من المستوى الملفوظي⁽¹⁾.

ويعد المقطع في الرتبة الثانية بعد الفونيم، إذا ما تم ترتيبه وفق السلم الهرمي المتوسط الذي جاء به محمد مفتاح حسب ما هو شائع في العربية⁽²⁾، بينما يأتي النبر والتنغيم في المرتبتين الأخيرتين.

* توازي المقاطع: إذا كان المقطع يتحدد من الصوت القائم على الإسماع كما عرفه "جسبرسن" فإن الإلقاء لا ينبغي على الاحتفاظ بأنواع المقاطع وبتحديداتها، بقدر ما يسمح للصوت بالبحث عن التنويع في التموجات التعبيرية⁽³⁾.

هـ-2- شعرية الخطاب:

هـ-2-1- النبر: يرتبط النبر بشكل دقيق بالتلفظ، فهو يتحدد وفق المقطع الذي يشمل على جهد عضلي زائد، بالمقارنة مع المقاطع الأخرى في الكلمة أو الجملة ويحتوي النبر على تعرifات عدّة منها:

* النبر: "إضافة كمية من الطاقة الفيزيولوجية لنظام إنتاج الكلام... موزعة على القنوات الرئوية والتصوittية والنطقية"⁽⁴⁾.

1) شعرية الإلقاء و مقوله التوازي، ص: 151.

2) تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 46.

3) شعرية الإلقاء و مقوله التوازي، ص: 152.

4)- Preliminaries of linguistics phonetics, Peter la Defozed, U.S.A, 1971, P:82.

- نقل عن دراسة الصوت اللغوي، د.أحمد مختار عمر، ص: 187.

* النبر هو: "انطباع من طاقة زائدة في النطق للمقطع المنبور ينتج عنها نطق المقطع أعلى وأطول من المقاطع الأخرى في نفس الكلمة"⁽¹⁾.

* النبر هو: "اسم يعطي الجهد العضلي الأقوى الذي يمكن أن نشعر به متصلة بعض المقاطع في مقابل مقاطع أخرى"⁽²⁾.

* النبر: "هو البروز المعطى لمقطع واحد، داخل ما يشكل الوحدة التي تطابق في معظم اللغات ما يسمى بالكلمة"⁽³⁾.

ولهذا تم تقسيم النبر إلى أقسام ثلاثة هي⁽⁴⁾:

- النبر القوي.
- النبر المتوسط.
- النبر الضعيف.

ويرتبط النبر بالدلالة الإضافية التي يتم اكتسابها من خلال التسديد الذي يعني التأكيد أو الانفعال، وكذا من خلال التخفيف الذي يعني الرغبة في الهدوء⁽⁵⁾ يقول الدكتور "زوبير دراقي": "...إن النبرة المقطعة ماهي إلا ارتفاع

1)- An introduction to general linguistics, F.P.Dinneen, U.S.A, 1967, P41.

- نقلًا عن دراسة الصوت اللغوي، د.أحمد مختار عمر، ص 187.

2)- Phonetics Gummer O.J.D, penguin books, 1973, P : 94.

- نقلًا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

3)- Elément of general linguistics, André Martinet, London, 1964, P: 100.

- نقلًا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

(4)- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص: 150.

5)- Introduction, to phonetics, Bromahah, L.F and dalriduction, cambridge, 1970, P: 157.

- نقلًا عن: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص: 190.

في الصوت، ومثل هذا الأمر لا يحدث بالمصادفة في اللغة؛ لأنّ المتكلّم مجبر على استعمال النّظام اللّغوي بكل ما فيه، أي دونما زيادة ولا نقصان"⁽¹⁾. يستتّج من هذا الرأي أنّ الوظيفة الإدغامية في إحدى وظائف النّبر، ومفادها أنّ النّبرة تساهُم في إظهار القيمة التعبيرية لبعض أجزاء الجمل التي تلحق بها"⁽²⁾.

ويرتّبط النّبر بالمدّة ومن خلالها يتمتع الكلام بإيقاع حافل بالامتدادات الصوتية⁽³⁾ يقول "دانيل ديلا": "إنّ إيقاع الكلام يستحق إدراك المقاطع المسجلة موضوعياً من خلال الشدة، المدّة، والارتفاع؛ إنّ إدراك المدّ يتّظم حول عامل مسيطر، ولكن هذا العامل صعب عزله..."⁽⁴⁾.

ومن منظور "دانيل ديلا" يفهم أنّ النّبر يتحدد من حلال عامل المدّة أو عامل الشدة أو عامل الارتفاع، ومعنى هذا أنّ النّبر ماهو إلا استخدام إشارة لتمثيل قوّة أكبر⁽⁵⁾.

وبفضل التقسيمات الثلاثة للنّبر، يمكن أن تتشكل سياقات تغيمية معينة، تأتي وفق ترتيب وسيطرة أحد الأنواع الثلاثة (الضعف، المتوسط، القوي).

1) محاضرات في اللسانيات العامة، د. زوبير دراقي، ص: 93.

2) المرجع نفسه، ص: 94.

3) مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 160.

4)- Linguistique et poétique, Daniel delas, jacques filliolet, librairie larousse, 1973, P140.

- نقلًا عن شعرية الإلقاء ومقوله التوازي، ص: 160.

5)- شعرية الإلقاء ومقوله التوازي، ص: 160.

هـ-2-2- التنغيم: بعد رأي أرسسطو في: "أن الدافع الأساسي للشعر يرجع إلى علتين: أو هما غريرة المحاكاة أو التقليد، والثانية غريرة الموسيقى أو الإحساس باللغم"⁽¹⁾ تطرق التراث العربي إلى دراسة هذه الخاصية وأدرك قيمتها ابن جني في خصائصه بقوله: "...وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملته وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً فتزيد في قوّة اللّفظ بـ"الله" هذه الكلمة، وتتمكن من تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتتمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك"⁽²⁾.

ويبدو واضحاً من خلال كلام ابن جني أنّ ما نادى به هو نفسه الشيء الذي نادى به "هاليدي" في علاقة التمديد بالإطالة (يضاف إلى) أو بالتعظيم.

أما الدكتور تمام حسان فقد عرّف التنغيم بقوله: "...التنغيم هو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق، فالجملة العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هيكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة، فاهيكل التنغيم هي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض، غير الهيكل التنغيمي التي يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة، فلكلّ جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة، فأوها وعینها ولامها وزوايدها وملحقاتها نغمات معينة

(1) - موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، ص: 14.

(2) - الخصائص، ابن جني، ج 2/ 371.

بعضها مرتفع وبعضها منخفض، وبعضها صاعد من مستوى أسفل وبعضها هابط من مستوى أعلى⁽¹⁾.

وللتنغيم دور دلالي؛ فهو كخاصية أدائية يمنح الكلام معناه الحقيقى والذى تحرّدت منه أثناء الكتابة، وهو بذلك يكتتر طاقة دلالية تحفظ للكلام المؤدى شحنته وكثافته، غير أنه لا يخضع للقطع، لذا رأى بعض اللسانين أنه طبيعة فيزيائية خارجة عن الدراسة اللسانية⁽²⁾.

وه هنا يصعب تحديد تو azi الم نطق، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالتنغيم، لكن شعريته ت نحو منحى آخر في تعاملها مع التوازى؛ إذ يصبح التنغيم تكراراً لما في الذات من إيقاع ونغم، وما فيها من شعور متزايد بالاهتمام الموسيقى، ثم يوازيه لذلك فإن "...الكلام الموزون (ذا) النغم الموسيقى يثير فينا انتباها عجياً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تسجم مع ما نسمع..."⁽³⁾.

وهكذا، فإن تحقيق التنغيم للتوقع الإيقاعي، هو الذي يزيد فيه كثافته وينحه توازياً لا يرتبط بالمكتوب بقدر ما يرتبط بالمنطق، خصوصاً وأن الأذن أصبحت المتلقى الحالى بعد أن كانت العين تستحوذ على شعرية النص بمفردها⁽⁴⁾.

ولهذا فإن الأعمال الأخيرة لـ "ب. ديلاتر" حول قانون المصوّرات (Consontisme) وحول الجوهر (Vocalisme)

1) - اللغة العربية معناها وبناؤها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية، 1989، ص: 227.

2) - محاضرات في اللسانيات العامة، ص: 95.

3) - موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص: 13.

4) - مقوله التوازى وشعرية الإلقاء، ص 162.

الأكoustيكي للسمات المميزة تضمن أكبر حفاظا داخل المقاربة المعنية ببناء المواد التنغيمية⁽¹⁾ وعلى حد تعبير "هوبكنس" فإن التوازي النغمي ماهو إلا عبارة عن تطابق موسيقي⁽²⁾ ولعل هذا الذي يجعلنا نعتقد بأن توازي التنغيم ينشأ من تكرارات الأسماء والأفعال والبني اللغوية عموما، وأن الصيغة التنغيمية تحى منحى نغميا خاصا بالجملة، مما يعين على الكشف عن معناها النحوي⁽³⁾.
وخلاله القول، إن البحث عن توازيات النغم أثناء إلقاء يعتمد على الحدس والحس الفنيين، ولكنه يبقى أن تكرار النغم هو الذي يمنح للخطاب صفاءه وجماله.

هـ-2-3- الوقف: نشأ مفهوم الوقف عند العرب من خلال علم القراءات للقرآن الكريم، ودرسوها هذه الخاصية من كل الجوانب اللغوية⁽⁴⁾، وكان الوقف حينذاك ميزة الرجل الفصيح المبين، الذي إذا تكلم التفت إلى مقاطع كلامه بالوقف⁽⁵⁾. فالنحاة القدامى حينما طرقوا علم قراءات القرآن استخدمو الوقفة وسموها بالوقف، وطلبوها من هذه المعرفة أهدافا لغوية ونحوية ودينية؛ لأن الوقفة تروم تصويب اللحن، وتحدد مقاطع الكلام، وتحقق الإصابة في المعنى، وهذا يقول أبو بكر محمد الأنباري: "ومن تمام إعراب القرآن ومعانيه

1)- Linguistique française, D. Manguenau, Tome2, P120-121.

2)- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 88.

3)- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ص، 226.

4)- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، ص: 46-47.

5)- نفس المرجع، ص: 47.

وغربيه معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف الأتم⁽¹⁾.
والوقت الكافي الذي ليس بتمام، والوقف القبيح الذي ليس بتمام ولا كاف⁽²⁾.
وبعيداً عن المعرفة الدينية بالوقف، أورَدَ أبو هلال العسكري أن
الأحنف بن قيس قال: "ما رأيت رجلاً تكلم فأفصح، ولا عرف حدوده إلا
عمرو بن العاص - رضي الله عنه - كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام وأعطى حقّ
المقام، وغاص في استخراج المعنى بألفاظ مخرج حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً
يمحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ"⁽³⁾. ويصطلاح بعض الدارسين على الوقف
بمصطلح "المفصل" ويقصدون به سكتة خفيفة بين كلمات أو مقاطع في حديث
كلامي، بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ ما أو مقطع ما وبداية آخر⁽⁴⁾.
هذا عن بعض الدارسين العرب، أمّا الدارسين الغرب فإننا نجد أن جون
كوهين يحدد الوقف بقوله: "إن الوقف في الأصل هي حبس ضروري للصوت
حتى يسترجع المتكلم نفسه، فهي في حد ذاته لا تعدو أن تكون ظاهرة
فيزيولوجية (...) محمّلة بدلالـة لغوية"⁽⁵⁾ ولكن "لوري تينيانوف" يرى بأنّ
الوقفة تصبح عنصراً متجانساً للخطاب، يتم التعبير عنها سماعياً، كما يتم التعبير
عنها بصرياً.

1)- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، ص: 47.

2)- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 315.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4)- بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص 55.

5)- Le vers lui-même, Louni Tynianov, P : 58.

- نقلاً عن الشعر العربي الحديث، محمد بنّيس، ج 1/139.

ونظراً لتعلق الوقفة بما تفرضه ضرورة الخطاب التي يتحانس فيها الوقف مع المعنى العام، ربط جون كوهين الوقف بالتنغيم، فاما أن يكون التنغيم صاعداً بالصوت كنهاية جملة الاستفهام، وإما أن يكون منحدراً كنهاية جملة النفي، ولكنه ينتهي دائماً إلى الوقف، كما أن علامات التنغيم هي في الوقت نفسه علامات تدلّ دائماً على الوقف⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، عمل جون كوهين على إطباق الوقفة الصوتية مع الوقفة الدلالية؛ لأنّ فهم الخطاب يعني تقسيمه على حسب معناه إلى فصول وفقرات وجمل وكلمات، كما أنّ وقفه المعنى لا شكّ في أنه تصاحبها وقفه صوتية تمنحها طابع الاستقلال الدلالي أو الانفصال المعنوي للكلام⁽²⁾.

وبعد دراسته لخاصية الوقفة، يخلص جون كوهين إلى أنّ الوقفات الإيقاعية مع الوقفات الدلالية؛ هي من سمات التشر لا الشعر؛ والمرجع في ذلك هو أنّ الشعر غالباً ما يتميّز بالوقفات التي لا علاقة لها بنهاية الدلالة⁽³⁾.

وهكذا، تتفاعل الوقفة مع باقي العناصر المكونة للخطاب؛ كالوزن، والتنغيم، مما يضفي على الخطاب شعرية معينة على المستوى التلفظي؛ ولأنّ الوقفة سمعية في جوهرها فإنها ترتبط بوجه الخطاب أكثر من ارتباطها ببنية النص؛ وهي لذلك تتبع مجالاً للإدراك السمعي بدلاً من الإدراك البصري.

(1) بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص: 70.

(2) المرجع نفسه، ص: 55-56.

(3) المرجع نفسه، ص: 56.

١١-٣- بنية الازدواج:

من المعروف أن "المزدوج" من أقسام الشعر وهو ما أتى على قافيةتين قافيتين إلى آخر القصيدة، ولكن يمكن النظر إلى "المزدوج" في النثر على أنه من باب حكايته بنية إيقاعية جوهرية في الشعر ذات تأثير سمعي وعاطفي في المستمع وهذا للوهلة الأولى فقط، ولكننا نحسبه أصيلاً في نثر لغة ذات أصول شفاهية^(١). ومن منظور البيانيين، عوّل المزدوج مظهراً من مظاهر الجودة في صناعة الكلام، ومن جملة ما ذكره القدماء عن الازدواج وما اختروا له من خاتمة من كلام العرب^(٢):

- ١- أن الازدواج تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحدتها اللغوية وهيئات ترتيبها وفواصلها.
- ٢- أن الازدواج يقع أيضاً، على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات الثلاثة السابقة بل في اعتبارين أثنتين منها أحياناً.
- ٣- إذا لم يقع التوازن بين الأجزاء في الطول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير الأطول، وإن كان ورد في كلام العرب الفصحاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر.
- ٤- توازن الأجزاء توازناً كلّياً أو جملاً وجوه التوازن.
- ٥- فضلاً عمّا للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام فإنّ له علاقته بتمكين معناه.

(١) النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 78.

(٢) البيان والتبيين، ج 2/ 116، كتاب الصناعتين، ص: 260-265. المثل السائر، ج 1/ 291.

فمن الناحية الدلالية، تتقاطع حالات التوازن مع حالات ينطظمها تكرير المضمن - كما سبق الذكر - كما ينطظمها التقابل والخلاف؛ فقد تجمع الجملتان معاً بين التوازن والتكرير المضمن، أو يجمع جزان في جملتين، وقد يجمع بين التوازن والمقابلة، أو بين التوازن والمخالفة في المعنى⁽¹⁾.

ومن منظور محمد العبد، تمثل حالات تتقاطع التوازن بالتكرير المضمني ما يقارب ثلاثة أرباع حالات تتقاطعه مع الحالات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة، وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضمني، وذلك أن قدرًا من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والمتراصفة أو شبه المتراصفة على مستوى المضمن تعدّ المنطقية المركزية الأهم التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشغلان معاً في النص الإقناعي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجية المختلفة قصداً إلى تثبيت التبرير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الحجاج⁽²⁾.

وإذا كان التوازي بمفهومه الاصطلاحي - كما رأينا آنفاً مع "هاليدي" - بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات **دلالية منطقية**، فإن التوازن على نحو ما يرى محمد العيد بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات **سمعية** من طول وزينه وفاصلته تعكس فكراً متزناً مقنعاً⁽³⁾.

(1) - النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 80.

(2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

والحق، إن بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلط خلطا ذريعاً بين التوازي والتوازن، وبين التوازن والإيقاع؛ فمن الخلط بين التوازي والتوازن ما ذكره "عدنان جبوري" و"باريرا جونسون كوتشر" من حالات للتوازي تعدد من حالات التوازن⁽¹⁾. فقد حلّ "عدنان جبوري" نصاً حجاجياً لمصطفى أمين في عموده الذي لقب بعنوان -"فكرة"- ومن أمثلة هذا الباحث على التوازي في هذا النص قول مصطفى أمين: "وكم من أحزاب حكمت ثم حوكمت، وتولت ثم اندثرت، وارتقت ثم سقطت"⁽²⁾.

أما "باريرا جونسون"، فقد حللت نصوصاً حجاجية يعود زمانها إلى النصف الثاني من القرن العشرين ومن أمثلتها على التوازي النصان التاليان:

(1) - "ظلّ الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدوليات المستقلة،

وظلّ الظليان موزّعين على ثانوي وحدات سياسية، والبولنديون مقسومين بين ثلاثة دول قوية، واليوغسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين"⁽³⁾.

(2) - "فكان من الطبيعي أن تنشأ الفكرة القومية، وتترعرع وتقوى بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالت عليها خلال تلك الحروب، وكان من الطبيعي أن ينتشر فيها الإيمان بوحدة الأمة الألمانية وكان

1)- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 80.

2)- The role of repetition in Arabic argumentative discourse : Al-Jubouri, A.J.R: in swoales.j and H.Mustafa (eds): English for specific purposes in the Arabic would Birmingham, Languages cervices unit Aston uni, 1984, P:99-117, P102.

- نقاً عن النص الحجاجي العربي، ص: 80.

3)- Presentation as proof 7 the language of Arabic Rhetoric: Barbara koch, P:50.

- نقاً عن مثال النص الحجاجي العربي، ص: 80.

من الطبيعي أن يدفع هذا الإيمان مفكري ألمانيا و ساستها إلى مكافحة التزعات الإقليمية بكل قوّة و حماسة⁽¹⁾.

وبعد تحليلها للنصين؛ ترى الباحثة "باربرا جونسون" أن النوع الأول من التوازي يسمى "بالتوازي الكاشف" (Listing parallelism)؛ وعلى حد تعبيرها؛ هو نوع من التوازي الضيق المحكم بين عبارات كاملة، تتميز بأنها أجزاء من النص، تكشف عن أمثلة وتفاصيل⁽²⁾.

وفي حين آخر؛ تسمى توازي عبارات النص الثاني "بالتوازن التراكمي" (Cumulative parallelism)، و تعرفه بأنه نوع من التوازي غير التام؛ وهو تراكمي لأن العناصر الثلاثة "كان من الطبيعي" من نوع التأثير التراكمي، وذلك أن كل عنصر يبني على العنصر الذي يسبقه⁽³⁾.

وبعد إطلاع "محمد العبد" على ما قدمه كل من "علدنان جبوري" و "باربرا جونسون" فيما يخص مسألة التوازي، يكشف لنا أن حالات التوازي عند هذين الباحثين، ينبغي لها أن تدرج في حالات التوازن؛ فهي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحى في شيء، وعلى عكس هذين الباحثين ما وصلت إليه "شيرلي أوستر" التي فهمت التوازن على حقيقته⁽⁴⁾.

1)- Presentation as proof 7 the language of Arabic Rhetoric: Barbara koch, P:50.

- نقلًا عن مثال النص الحجاجي العربي، ص: 80.

(2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلًا عن نفس المرجع، ص: 81.

(3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلًا عن نفس المرجع، الصفحة نفسها.

(4)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 81.

فمن الناحية النحوية، تبدو العربية حسب "شيرلي أوستلر" مجاهة من أجل تحقيق التوازن (Balance) على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر متراطبة على أن يكون هذا التوافق أو (السيميترية) على مستوى نظم الجملة، وفي تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات⁽¹⁾.

أما فيما يخصّ الخلط بين الإيقاع والوزن، فقد وقع خلط بين المفهومين كاد يدمج أحدهما في الآخر، ليصيرا كتلة بمفهوم واحد، ولكن القدامى والمحدثين تقطنوا إلى هذه الصيّلة وإلى إمكانات الخلط واحتمالات الوقوع في الخطأ من خلال التفريق بين الإيقاع والوزن⁽²⁾.

فمن وجهة نظر ابن فارس فإنه "... لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلاّ أنّ صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة"⁽³⁾.

وبالمقابل يرى الشكلانيون الروس أن الإيقاع مفهوم اتسع ليشمل سلسلة من العناصر اللسانية تساهم في البناء الشعري⁽⁴⁾.

يفهم من هذا، أن الإيقاع مرتبط بالجوهر اللساني للشعر أي الجملة، في حين أنّ الوزن لا يمكنه الامتثال للخصائص اللسانية لبيئة اللغة الشعرية، وفي

1)- English in parallels, Schriley ostler, P: 173-175.

- نقلًا عن مقال النص الحاجي العربي، ص: 81.

(2)- مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 171.

(3)- الصاحي ابن فارسي، ص: 230.

(4)- مشكلة الإيقاع الشعري، توما شفسكي، الفكر الأدبي كراسة، 2-1922. نقلًا عن نظرية المنهج الشكلي، مجموعة من الكتاب الشكلانيين، ص: 55.

مقابل ذلك يرى أحد الدارسين أن "...الوزن هو الفعل الإيقاعي المحسّد في صورة متكاملة باعتباره حصيلة تناغم بين الوحدات الصوتية، بينما الإيقاع هو ذلك الكل المجرد التي يتساوى فيه جميع العوامل التنغيمية والتنفسية والدلالية وسواها"⁽¹⁾.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الازدواج والتوازن والترصيع وغيرهما من المصطلحات الصوتية مراتب حسب توافق طرفي الفاصلتين (القريتين) في عدد الحروف والحركات والسكنات مع توافق الأعجاز أو تقاربها⁽²⁾.

وعلى الرغم من أنَّ البلاغيين العرب قد رفضوا اطراد السجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية، لما ينمُّ عنه ذلك من تكلف يعيق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، لأنَّ ظهور التكلف منافٍ لغرض الإقناع الذي تستهدفه الخطابة فإنه "لا يحسن متثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ولا تكاد تجد لليغ كلاماً يخلو من الازدواج"⁽³⁾.

ومن الوظائف الأساسية للإيقاع التي لا يجب نسيانها الوظيفة التذكيرية التي كان خطباء العصر على وعي بها، فقد سُئل الفضل بن عيسى الرفاعي - وهو من أسرة فارسية من القصاص - عن إيهاره للسجع الموزون، فأجاب: "إنَّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافٍ عليك، ولكنني أريد

1) النبر والتنغيم، حكيم والي دادة، مخطوطة رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات، 1998-1999، جامعة تلمسان، ص: 57.

2) بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، ط2، ص: 113-114.

3) المرجع نفسه، ط2، ص: 113.

الغائب والماضي، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان إليه أنشط، وهو أحق بالتقليد وقلة التفلت⁽¹⁾.

ومن خلال هذا الكلام البليغ، يبدو واضحاً أنَّ الفضل كان واعياً بالوظيفة الإقناعية للصنعة الصوتية.

ومن أجل إبراز الوظيفة الإقناعية في الخطاب التواصلي؛ وبخاصة ما تعلق بالإلقاء الخطابي سعينا إلى توضيح كل ما ارتبط بالصنعة الصوتية عند كل من القدامى والمحدثين، وذلك لأنَّ توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجَّة على صدقته، وهذا ملحوظ في الأمثال والحكم التي ينظر أن تكون غير مسجونة موزونة.

وبعد هذا القدر القليل؛ مما عرضنا له عن وظيفة الوسائل المنطقية الدلالية، والوسائل اللغوية في الإقناع، نعرّج إلى الوسائل غير اللغوية، لنرى مدى تأثيرها في إقناع المخاطب.

3-II- وظيفة الآليات السيمائية في الإقناع:

1-II-تعريف السيمائي:

هي العلم الذي يدرس حياة العلامات أيَّاً كان مصدرها في إطار الحياة الإنسانية، ولقد جعل "دي سوسيير" هذا العلم مقتضاً على دراسة العلامات في

1) - البيان والتبيين، الجاحظ، ج 1/ 287.

دلائلها الاجتماعية مما يفهم به البشر بعضهم بعضاً، باعتبار اللغة نظاماً من العلامات⁽¹⁾.

و جدير بالذكر أن مصطلح (La sémiologie) تداخل مع مصطلح (La sémiotique)، فلابسه في معناه فالأوروبيون يستعملون مصطلح "السيميولوجيا" بينما يستعمل الأميركيون مصطلح "السيميويтика" أمّا العرب فيصلحون على هذا العلم "بالسيمياء" و "السيميائية" و "علم العلامات" ويقصدون بذلك عالمة، أو ملمحاً؛ وهذا وجدت علامية الأدب، وهي تسعى إلى تأسيس نظرية في كيفيات الخطاب باعتباره حدثاً عالمياً أي سيميائياً، يتتألف من نظام من العلامات الجمالية وكذا الإقناعية⁽²⁾.

يستخلص من هذا أن "علم العلامات" علم عام وليس خاصاً، فهو عام لأنّه يشمل جميع أنظمة التواصل على اختلاف حقوقها المعرفية من طب ورياضيات، وفيزياء، وأدب وما إلى ذلك، وهذا ما ذهب إليه العالم الأميركي "بيرس" (C.Pierce) (1839-1914) بالقول: "ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في الكون - كالرياضيات والأخلاق، والميتافيزياء والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن، وعلم الفلك وعلم النفس وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم،... وعلم القياس والموازين إلا على أنه نظام سيميولوجي"⁽³⁾.

1)- مقال: السيميائية و تبليغ النص الأدبي، أ. بشير إبرير، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وأدابها، جامعة عنابة، 17 ماي 1995، ص: 09.

2)- المرجع نفسه، ص: 10.

3)- Dictionnaire en cyclopédique des sciences du langage, P : 113.

واستفادة من هذا القول، أريد أن أوضح ما لبعض الآليات **السيميائية** من دور في إقناع المخاطب؛ لأن أهم ما يهدف إليه "علم العلامات" هو دراسة وسائل التبليغ وإثرائها وتحقيقها، ومنح إمكانية فهم البيئة والمحيط بصورة دقيقة وجيدة من خلال نشاط وسلوك الإنسان.

ولا أحد يختلف مع الآخر في أنَّ لكل مجتمع خصوصيات في وسائل تعبيره، وأدوات يتواصل بها، وتتوحد له بما لا يختلف فيه، فالتراث له منطق وصامت، ولكل منها دوره ووظيفته ودلالته؛ لهذا لا يمكن الاهتمام بالمنطق والعزوف عن غيره لأنَّ كل خطاب أو نص أدبي تصاحبه -لا محالة- وسائل تبليغية بالإضافة إلى اللغة المستعملة لإلقاءه أو كتابته.

||-3- الأدوات والوسائل الخطابية الـ**التـاريـة**:

أ- العـلـامـة:

ت تكون العـلـامـة من صورة حـسـيـة يتم إدراكها بـواسـطـة حـاسـة من الحـواسـ الخـمـسـة: السـمـع أو البـصـر أو الـلـمـس أو الشـم أو الذـوق؛ على أنَّ هذه الصـورـة الحـسـيـة تتأسـس على ما يتواضع عليه مـتـخـاطـبـان اثـنـان أو جـمـاعـة من المـتـخـاطـبـين⁽¹⁾. وبـارـتـباطـ الشـكـلـ الحـسـيـ مع ما يتواضع عليه المـتـخـاطـبـون تـفـصـحـ العـلـامـة⁽²⁾ عنـ

1) - اللسانيات وأسسها المعرفية، د. عبد السلام المـسـدـيـ، الدـارـ التـونـسـيـ للـنـشـرـ، المؤـسـسـةـ الـوطـنـيـةـ لـلـكـتابـ، الجزـائـرـ، 1986ـ، صـ: 32ـ33ـ.

2) - مـقـاـلـ العـلـامـةـ فيـ التـرـاثـ، أـحمدـ حـسـانـيـ، مجلـةـ تـجـلـيـاتـ الـحـدـاثـةـ، العـدـدـ 02ـ، 1993ـ، معـهـدـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـآـدـابـهاـ، جـامـعـةـ وـهـرـانـ، صـ: 27ـ.

مكتونها، تبوج بمعانٍها ودلائلها، ويتحقق الاتفاق على الوضع مع كل قناة يمكن استعمالها في إيجاد لغة ما⁽¹⁾.

وتأسيساً على ما سبق ذكره؛ تعد العلامة معطى نفسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً، أصله الوضع والعرف والاصطلاح، ومن خلالها يمكننا معرفة العلاقة بين سعة أي نظام تبليغي وطبيعة مكوناته الدلالية، فهناك تناسب طردي بين اعتباطية أي نظام علامي وسعة إبلاغه، الأمر الذي يفضي بنا إلى القول بأنّ مقبولية العلاقة بين الدال والمدلول كل نظام تواصلي على أساس الاقتران الطبيعي أو الاقتران المنطقي تناسب عكسياً مع طاقة ذلك النظام المعتمد في الإبلاغ⁽²⁾.

يستنتج من هذا أن المكون الاعتباطي الذي تشمله العلامة في كل عملية تبليغية هو الذي يكشف لنا عن سعة القدرة على التبليغ، وعلى هذا الاعتبار فإن المتلقى للخطاب لا بدّ أن يكون على معرفة بنظام رسالة الخطاب لكي يتمكن من فهمها وتحليلها وبالتالي معرفة مختلف وظائفها وأغراضها.

بـ- الإشارة:

هي نتاج عمل إنساني يهدف إلى غاية معينة ووجهة، الغرض منها إقرار واقع خارجي وإبلاغه لآخرين⁽³⁾، وهي وسيلة لنقل المعنى من ميدان التخاطب باللغة إلى ميدان التخاطب بالإشارة أو بالإيماء، أي التخاطب

1) مقال: السيميائية وتبلیغ النص الأدبي، ص: 12.

2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3) تأملات في اللغو واللغة، د. عبد العزيز الحبابي، الدار العربية لل الكتاب، ليبيا، تونس، 1980، ص: 65.

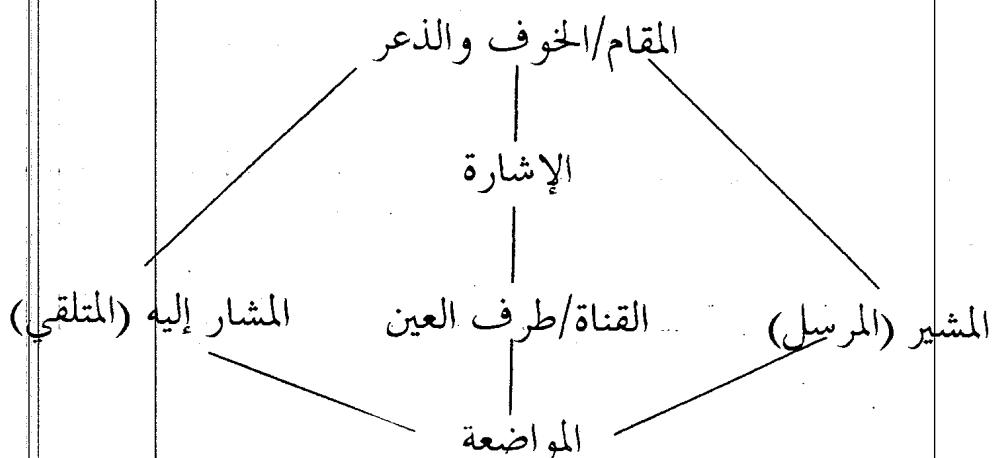
بالصمت، ويمكن أن تترجم الإيماءات وحركة اليد فكرة أو كلمة أو مفهوماً أو حالة نفسية أو روحية مرةً أو ترجم مجموعة معقدة من الأفكار مرةً أخرى⁽¹⁾.

وكثيراً ما يعبر الإنسان بعينيه عن كثير من المعاني؛ ومن أجل ذلك، شكلت لغة العيون معيناً ثرياً للأدباء والفنانين عبر العصور كمثل قول عمر بن

أبي ربيعة:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةً أَهْلَهَا
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا
إِشَارَةً مَذْعُورَ وَلَمْ تَكُلُّ
وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَبِيبِ الْمُتَّيَّمِ

ويمكن تمثيل هذه الحالة على الشكل التالي:



جــ حركة الجسد:

إن إشكالية التواصل واردة مع تراثنا ومع ثقافتنا ومع مجتمعنا على جميع المستويات، من هنا فإن حركة الجسد ونبرة الصوت، وتقسيم الوجه تعد من أهم الوسائل في التبليغ والإقناع إلى جانب اللغة. وقديما قيل: "رب إشارة أبلغ من عبارة".

(1)ـ مقال: السيميائية والنص الأدبي، ص: 19.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي -وسائله و مجالاته-

ولقد عبر الجاحظ عن حركة الجسد بـ "الإشارة" فقال: "أصناف الدلالات على المعاني خمسة"⁽¹⁾ وأورد منها "الإشارة" إذ قال: "فأمّا الإشارة فياليد وبالرأس، وبالعين وبالحاجب والمنكب إذا تبعد الشخصان وبالثوب والسيف، وقد يتهدّد رافع السيف فيكون ذلك زاجراً ويكون بعيداً"⁽²⁾. ومهما يكن من أمر، فإن الحركة أو الإشارة مصدرها الجسد، بعيداً عن استعمال الكلام، وهي لغة الإنسان عندما تعوزه الكلمات، كما يقول السيوطي⁽³⁾.

وعلى هذا يوجد أثر الحركة الجسدية بعمق في فهم دلالاتها ووظائفها؛ لأنها حاضرة في التراث وفي تجاوب هذا التراث مع المطوروّرات والتغييرات الحضارية في مختلف المستويات والبيئات وخاصة البيئات الشعبية؛ ولكن لا بدّ لهذه الحركة من سياق لتكون دلالتها أعمق، وأثرها أبلغ وخطابها أوّلٌ واضح، وهذا السياق تحديداً الملبوسات بألوانها وأشكالها وطريقة لبسها، إضافة إلى طريقة الوقوف والجلوس والصفوف والأدوات المحمولة، والعلامات والشارات مما يوحى بالشعريّة أي لحظة تخاطبية⁽⁴⁾.

(1) - الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969، ج1/49.

(2) - البيان والتبيين، ج1/77.

(3) - مقال: من سيميولوجيا الاتصال حرفة الجسد، د. محمد عيلان، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وأدابها جامعة عنابة، الجزائر، 17/ماي 1995، ص: 252.

(4) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبحمل القول، إن الحركة الجسدية أداة تعبير تنقل الوعي من فضاء إلى فضاء في لحظة تختصر فيها كثيراً من الكلم الصوتي واللغوي، ولا تتجاوز حدود استخراج الصور من ذهن "المتلقى" وإعادة النظر في هذه الصور، لأنّ الإشارة أو الحركة الجسدية وسيلة من الوسائل السريعة التي تسمح للمتلقى من أن يتجوّل في مخزونه الثقافي وفق شحنات الخطاب لتفجر مكامن ذاكرته⁽¹⁾.

وهكذا، تستطيع الحركة الجسدية أن تمنّع المتلقى إمكانات هائلة في الاستجابة السريعة للفهم، وذلك أنها تدفعه لتشغيل ذاكرته بقوة لاستحضار الصور، وتجاوز حدود اللغة المنطوقة التي تستهلك الزمان الحاضر، ولا تمنع القدرة على الالتقاط السريع للأحداث وفضاءاتها⁽²⁾.

إن الحركة الجسدية خطاب جماهيري وأداة اتصال، ويلحق بها الصوت الذي لا يكتب ولكنه يسمع، وهو في أغلب الأحيان يصاحب الحركة لأنّه يشير إلى معنى، وبدون أحدّها لا يبدو الغرض المقصود واضحاً.

وتلعب الحركة الجسدية دوراً مهماً في تبليغ الخطاب وخلفياته المرتبطة به مع ما يصاحبها من ملامح وانفعالات، وأنّها تتموضع في مقدمة الأدوات والوسائل البيانية يستغلها الخطيب ليزيح الفارق ويسوّي في درجة الفهم فالحركة التي تصدر من الخطيب ماهي إلا مجموعة من الأوضاع المتفق عليها تلقائياً، لأنّها

(1) - مقال: من سيميولوجيا الاتصال (حركة الجسد)، ص: 253.

(2) - المرجع نفسه، ص: 252.

حركة تدخل في ثقافة المحيط ولغته، وهي معروفة لدى الجميع، وإنّا تعذر الاتصال بين المتلقي والفاعل⁽¹⁾.

ونخلص في النهاية إلى أنّ حركة الجسد لا تعدو أن تكون واحدة من

اثنين:

أ- حركة تصدر عن اللاوعي الذي ينشط، فيفتح نوافذ ليطل في ثناء العرض، فيمنح إشارات لها مكان في لا وعي الجماعة كلها، ولذلك فهي تصادف هوى في نفوسهم، وتدّي دلالات يكشفون عنها، ومن ثم تتداعى عن ذكريات المتلقي، فتضفي إلى مضامين الحركة مضامين أخرى،... فالحركة لا تحتاج إلى الصوت أو اللغة لفهمها، بل هي نصٌّ لغوي إلى جانب كونها مضموناً اجتماعياً أو تاريخياً...⁽²⁾.

ب- حركة مقصودة: وتستعمل لتوضيح موقف أو عبارة، أو إشارة عاطفة ما، أو إلى جلب الانتباه لثلا تشتت أفكار المستمعين في فهم مضمون الرسالة الذي هو بقصد إلقائه⁽³⁾.

وسواء أكانت هذه الحركة إرادية (مقصودة) أو لا شعورية؛ فهي ذات أثر في تأكيد الكلام في نفس السامع، وتقويته؛ غير أنه يجب أن نلاحظ أن للإشارات قيوداً لا تحسن إلاّ بها، وتمثل هذه القيود في إلزامية ملائمة هذه الحركة للمعنى المتواضع عليه، كما يحسن أن تسبق الإشارة القول حتى يتتبّع لها

(1)- مقال: من سيميولوجيا الاتصال (حركة الجسد)، ص: 253.

(2)- المرجع نفسه، ص: 255.

(3)- البيان والتبيّن، ج 1/78.

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي - وسائله ومجالاته -

السامعون وبالإضافة إلى هذا لا يصح أن تكرر الحركة أو الإشارة؛ وذلك تجنباً للسأم والملل الذي يوهن موقف الخطيب، ويضعف تأثير قوله.

وكخلاصة لكل ما سبق ذكره، "فإن الإشارة واللفظ شركان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغبني عن الخطّ..."⁽¹⁾

وبعد هل تغدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها؟

1) - البيان والتبيين، ج 1/78.

الفصل الثالث

الخطاب الإقناعي في منتخبات من خطب الحجاج

- ١- وسائل جلب الانتباه
- ٢- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج
- ٣- صور الحجاج في منتخبات الحجاج
- ٤- الانسجام مع الخارج
- ٥- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع)
- ٦- الوسائل غير اللغوية المصاحبة للخطاب

ما لا شك فيه أن الخطاب الإقناعي هو فعالية خطابية تمتلك من الآليات والشروط التي توفر له النصية ما يجعله يكتسب الأبعاد المختلفة التي تضمن له الانسجام وشروط التواصل من خلال دورانه ضمن معايير الاتصال اللغوي العام. ولئن كان هناك نزوع نحو التفرد، فلا يظهر إلا من خلال الترتيب البنوي للوسائل الإقناعية المختلفة في علاقتها بفن الخطابة.

ولقد عبر الحجاج بن يوسف الثقفي (ت. 95هـ) باللغة التي يستطيع كل خطيب بلغ أن ينتج أو يمثل أو يجسد بها الواقع والحدث أيا كان مصدره. وهو لذا توسع في إشكال التعبير التي سمحت بها اللغة، مشكلاً نسقاً خطابياً مختلفاً المكونات والظواهر النصية من شعر وآيات، وهديات ومناجات وحكم وأخبار تنظمها مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينها قصد بلوغ هدف معين هو إقناع أهل العراق وشحذ هممهم لخوض المعارك، ومن ذلك خطبة الولاية (75هـ) التي تختلف روایتها من مصدر إلى آخر ومن مرجع إلى غيره.

جاء في كتاب الجمهرة ما يلي: حدث عبد الملك بن عمر الليثي قال (1): بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذرو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليد، إذ أتى آت. فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق، فإذا به دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً، يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض، قبح الله بني أمية

(1)- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفت، المكتبة العلمية، بيروت، د. ط، د. ت، ص: 288-291.

حيث تستعمل مثل هذا على العراق. حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه، ونفض، فقال:

أَنَا ابْنُ جَلَّ وَطَلَاجُ الشَّنَائِيَّا

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله لأحمل الشر بحمله وأخذوه بنعله، وأجزيه بعثله. وإن لأرى أبصارا طامحة، وأعناقا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإن لصحابها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترفق.

ثم قال:

هَذَا أَوَانُ الشَّدَّ فَاسْتَدِي زَيْم
لَيْسَ بِرَاعِي إِبْلٍ وَلَا غَنَمَ

ثم قال :

قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بِعَصْلَبِيٌّ
أَرْوَعُ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَيِّ
مُهَاجِرٌ لَيْسَ بِأَغْرَابِيٌّ

ثم قال:

قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا
وَجَدَتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَحِدُّوا
مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا كَبَدَ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ

إن والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاوة والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما يقع على بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء،

وافتتحت عن تجربة وجرت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نشر كنانته بين يديه، فعجم عيادها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرمأكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسنتتم سنن الغي، أما والله لأحونكم لحو العصا، ولا قرعنكم قرع المروءة، ولأعصينكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. فإنكم لـ﴿كَأَهْلٍ قَرْيَةً كَانَتْ آمِةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرُتْ بِأَنَّعُمَ اللَّهِ، فَأَدَّقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾⁽¹⁾.

وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهتم إلا مضيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياتي هذه الزرافات والجماعات وقالا وقيل، وما تقول، وفيما أنتم وذاك؟ أما والله لستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لخاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإنني أقسم بالله لا أجد رجالا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأهبت ماله، وهدمت منزله.

وبعد فعل قارئ هذه الخطبة لا يشك لحظة أن هدف الحجاج من وراء إلقاء هذا الخطاب كان إقناع أهل العراق بخوض الحرب ضد ابن الأشعث⁽²⁾، وذلك لما عرف به أهل العراق من عصيان ضد الحكماء، وهذا جائى إلى

(1) - سورة النحل، الآية: 112.

(2) - 10 ثورات في الإسلام، الدكتور: علي حسني الخربوطي، دار الآداب، بيروت، د.ط، د.ت، ص:

التهديد والوعيد، إلى لغة السيف، تلك اللغة الزاجرة التي لا يصلح غيرها لقوم أفوا التمرد والعصيان.

جاء في كتاب البيان والتبيين: "العلة في عصيان أهل العراق على الأئمّة، وطاعة أهل الشام، أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر، يكون التقريب والبحث، ومع التقريب والبحث يكون الطعن والقدح، والترجح بين الرجال، والتميّز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأئمّة. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليل وجمود على رأي واحد، لا يرددون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال وما زال العراق موصوفاً أهله بقلة الطاعة وبالشقاوة على أهل الرياسة"⁽¹⁾.

I- وسائل جلب الانتباه:

١-١- الصّمت:

إن القصد يحدد فعل الوعي وبنيته في الوقت ذاته، وهذا كان لابد للحجّاج من اكتساب الكفاءة في ذلك الصمت الذي تعمده، لأنّه يمثل لحظة اشتياق، أو شوق يتولد عنها جلب الانتباه، وذلك أن الصمت يستدعي شوقاً لما يود الإنسان أن يتفوه به حتى تزول الحيرة وطول الانتظار.

وهكذا فإن الصمت يعد وسيلة عظيمة من وسائل جلب الانتباه، وبالتالي حسن الإصغاء لكل لفظة سيتلفظ بها الحجاج، وذلك أن السماع هو

[1] - البيان والتبيين، عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: درويش جويدى، المكتبة المصرية صيدا، بيروت، د.ط، 2001، ج 1/ 229.

أول القنوات التي يصل من خلالها الصوت (الخطاب) إلى وجדן السامع وعقله. يقول المحرجاني: "...والصمت عن الإفاده أزيد للإفاده، وتجده أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن..."⁽¹⁾. ومن هنا تتجلّى الجدلية بين الصمت والكلام في العملية التواصلية، ليصبح بالإمكان تحقيق الوجود البلاغي بين المتكلم والسامع.

وفي الصمت عبر كثيرة ذكرها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" كما ذكرها غيره من الشعراء.

- فمن قول الجاحظ: "وقالوا الصمت حكم وقليل فاعله"⁽²⁾.

- كما قالوا: "استكثر من الهيبة صامت"⁽³⁾.

ومن قول أبي العتاهية⁽⁴⁾:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَنِ
مِنْ مَنْطَقِ فِي غَيْرِ حِينِهِ
كُلُّ امْرَئٍ فِي نَفْسِهِ أَعْلَى وَأَشَرَّفُ مِنْ قَرِينِهِ

وبعد هذا، يبدو وكأن الحجاج كان على اطلاع لما للصمت من قيمة ودور عظيم في جلب الانتباه وحسن الإصغاء، خاصة وأن هذا الخطاب كان وجهها لوجه، أي أنه كان موجهاً إلى متلق حاضر (أهل العراق)، وعلى حد تعبير تامر سلوم أن "ما تقع عليه الحاسة، أوضحت مما لا تقع عليه، والمشاهد

1) - دلائل الإعجاز، عبد القاهر المحرجاني، موفم للنشر، الجزائر، ص: 149.

2) - البيان والتبيين، ج 1/ 164.

3) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4) - المرجع نفسه، ص: 124.

أو يوضح من الغائب، وما يدركه الإنسان عن نفسه أو يوضح مما يعرفه عن غيره، والقريب أو يوضح من البعيد، وما قد ألف أو يوضح مما لم يؤلف⁽¹⁾.

١-٢- الأبيات الشعرية:

وبالإضافة إلى الصمت فإننا بحد الحجاج يستسنيغ الأبيات الشعرية التي ألقها أهل العراق، لأن الشعر صناعة تنجز وفقاً لمعايير مسبقة هدف بالدرجة الأولى إلى تقرير الأشياء إلى المتلقي ومن ذلك ما استهل به الحجاج خطبته حينما ولي العراق.

أَنَا أَينُ جَلَّا وَطَلَّاْعُ الشَّنَائِيْا مَتَّى أَضَعُ الْعَمَامَةَ تَعْرِفُونِي
ولقد كان التلقي يعيش وضعاً صارماً صرامة المعايير التي ينظر لها إلى الإبداع وإن تحولت الأشكال التعبيرية عنها، فإن المنحني يشير إلى هيمنة تصور له سند قوي عند ملوك الثقافة المركزية هدفه "المعنى الحقيقي وإن تعددت الأساليب لتقسيمه، فلقد تحدثت النقاد مثلاً عن الرونق الذي يضفيه المجاز على الكلام، وقيل إن الكلام متى خلا من الاستعارة، وجرى كله على الحقيقة، كان بعيداً عن الفصاحة، برياً من البلاغة"⁽²⁾.

ومن هنا كان للغة التي سلكها الحجاج بكثافتها ورمزيتها أن تتيح إمكانات ثرية للمتلقي في إنشاء المعنى وفهمه، وإن كان قد استغرق كثيراً في تهديداته إلى حد التصوير المرعب الذي ترتعش له القلوب وتشمئز له النفوس.

١) - نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، الـلـاذـقـيـةـ، طـ١ـ، ١٩٨٣ـ، صـ: 256ـ.

٢) - المرجع نفسه، صـ: 288ـ.

ولم يخرج الحجاج عن العادة، فقد ولج خطابه بما يعهده أهل ذاك الزمان (أهل العراق) وبما ألفوه، وهو لذلك تفنن في اختيار الألفاظ الملائمة، ولا نحسبه لم يوفق في اختيارها، ما دامت الألفاظ خدماً للمعاني.

ولعل المطلع على معظم خطب الحجاج، يلاحظ كيف أنه يرع في اختيار الألفاظ الجذيرة بنقل المعنى المراد، وإحداث التأثير المرغوب، وبالتالي إقناع المتلقى بكل ما يريد الحجاج منه، وهكذا فإنه سيدع عن ويستسلم دونما تردد، مقتتنا من أن إذ عانه واستسلامه هذا لا يخدم الحجاج فقط، وإنما هو ذو دلالة عن الدين والدولة معاً، وبالتالي إرضاء الخالق والمخلوق، وضمان الأمن والسلامة.

جاء في كلام الجندي: "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعناه الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أظن وأشغف"⁽¹⁾.

ومن هذا المنظور، يمكننا القول إن نفس الحجاج كانت تتوقف إلى الإعلاء من مكانته السياسية، لذا نراه قد تدرج في -خطبة الولاية- في أساليب الإقناع لإيمانه القوي، من أن انتصاره على أعداء الخليفة عبد الله بن مروان، سيجلب له ما يرجوه ومن ذلك قوله "إن أمير المؤمنين -أطال الله بقائه-. "فهذه العبارة توحى بالدعاء للأمير بطول العمر ولكنها تحفي وراءها طمعاً في

(1)- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجندي، بيروت، ط2، ص: 118.

التقريب من الأمير، وإعلاء المكانة السياسية حتى إن بعض الكتب تشير إلى أن الحجاج كان يطمح في أن يصير أميرا⁽¹⁾.

وإلى جانب فصاحة الحجاج وحسن تخلصه بالبيان والحجج، يبدو أنه كان على جانب كبير من الدرأية بعلم النفس، والإلمام بوسائل الإقناع، فقد كان يخاطب عواطف الناس، كما كان يخاطب عقولهم، وكان لا يكتفي بوسائل الإقناع المعروفة آنذاك، كالشعر والأبي القرآن، وإنما كان يلتحم كذلك إلى الحيل كحرب العصابات حتى يشغل أهل العراق بالفتوريات في الأطراف الشرقية البعيدة عن مفاسد السياسة الداخلية⁽²⁾.

ومما يلاحظ في خطبة الولاية وغيرها من منتخبات أن الحجاج يكثر من الأساليب البينانية والبلاغية التي يبدو أنه لا مفر منها، بعدها عمود الإقناع وأساسه، وكذا لأنها تجمع بين الحجة وطريقة الكلام.

وبالإضافة إلى أن البلاغة تعد عمود الإقناع وأساسه، فقد قيل عنها: "جماع البلاغة التماس حسن الموضع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التبس من المعانٍ، أو غمض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر، ثم قال: وزين ذلك كله وبهاؤه، وحلاؤته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكم كل الكمال"⁽³⁾.

(1) - 10 ثورات في الإسلام، ص: 149.

(2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - البيان والتبيين، ج 1/ 63.

فالحجاج يبدأ خطابه ببيت شعري يحاول من خلاله أن يعرف بنفسه رغم أنه معروف عند الجميع، ولكن ذلك الأفق الإيديولوجي "لأننا" الواقعية يسمح بقبول مواطن التوتر في الخطاب لأنه يتماشى مع ظاهر ذلك الأفق خاصة وأن الحجاج بقصد تحسيد صور مرعبة تنتظر كل من تخلف أو عصى أو تمرد.

ولقد سعى الحجاج إلى تدعيم أقواله مرة بالشعر والأخرى بالأي القرآني، ومرة بالوسائل البلاغية المعروفة من سجع، وتشبيه، وكنية، واستعارة، وترادف وتكرار، وغيرها، وما كل ذلك إلا من أجل أن يسقط المتكلمي المعنى الجاهز على تلك الأشعار، وتلك الشواهد ليوصل كل ما يود إيصاله. وهكذا فإن اللغة الإقناعية التي انتهجهما الحجاج بإمكانها أن سمح للمتكلمي بإنشاء المعنى.

وحتى يتجنب الحجاج أي التباس قد يثير قريحة المتكلمي، أو يذهب بفهمه بعيداً، استعان بالشعر الحماسي الذي يساهم في شحذ الهمم، والاستعداد للحرب.

ومن منظور بعض المؤرخين أن سبب قسوة الحجاج على أهل العراق عامة والموالي خاصة، راجع إلى أن أهل العراق كانوا على استعداد دائم للحرب، وحتى تظل دمشق عاصمة البلاد الإسلامية، سعى الحجاج إلى أن يثبت حكم الشام، وذلك من أجل إقرار النظام في البصرة والكوفة وفارس⁽¹⁾.

ولقد ساهمت الأبيات الحماسية التي استuan بها الحجاج وكذا استشهاده بالأيات القرآنية في إنجاح دور عملية التلقي المتمثل في الفهم والتمييز، ومن خلال خطبة الولاية وغيرها من منتخبات يبدو أن جمهور الحجاج كان

(1) - 10 ثورات في الإسلام، ص: 145.

على قدر المساواة مع صاحب الرسالة من حيث درجة الفهم لما استعمله من ألفاظ، هذه الألفاظ التي توحى في معظمها ببيئة صحراوية بدوية هي بيئة الحجاج وذهنية أهل العراق، وإنما كان خاطبهم بهذه الفصاحة، ولا جاد لهم بهاته الحجج، ولما استعان بتلك الآية وتلك الأشعار الحماسية.

ويبدو واضحًا، من خلال خطبة الولاية أن الحجاج يود إصلاح جمهوره، حيث إن كل ما ورد بعنوان تلك الخطبة، يجعلها تستجيب للمناخ العام للتلقى، وذلك أنها تلتقي مع خطب السابقين التي عهدوا سماعها من قبل الخلفاء والأمراء والولاة وكذا الحكام.

١-٣- الجمل الإيقاحية:

وتماشياً مع الذوق العربي يندفع الحجاج إلى استعمال الجمل الإيقاعية التي تحمل في طياتها دلالة رمزية ليختزل المسافة بينه وبين فهم السامع، لأن اللغة الرمزية تكشف عن رؤية جمالية مغايرة لما كان سائداً أو معهوداً لدى فئة معينة من المتلقين، على ألا تتعارض هذه اللغة الرمزية مع ما توافر لها من جماعة المتحدة اللغة.

وبالإضافة إلى الجمل الإيقاعية، فقد استعمل الحجاج أساليب إقناعية، جعلت المفاهيم تنفذ إلىوعي أهل العراق، وتحدى الأثر المرغوب والذي يتمثل فيما بعد في استجابة أهل العراق لنداء الحرب من رجل يعتقدونه لكنهم مقتنعون بمطالبه التي تخدم الدين والدولة، وتحقق لهم الأمن والسلام، ويؤكد الحجاج يتفرد في خطبه بالتهديد والوعيد، الذي يراه اللغة الأكثر إقناعاً لقوم ألغوا عصيان الولاية والتمرد على المطالب والخروج عن الدين.

وإذا ما قورنت خطب الحجاج بخطب الحكماء السابقيين، فإنها لا تكاد تختلف معها إلا من حيث استغراق الحجاج في لغة التهديد والوعيد وكونه لم يستهل بعض خطبه بالحمد والثناء، مقلداً غيره من الحكماء والخلفاء، راجع إلى نقمته وحقده على أهل العراق وأهل الكوفة الذين لو سُنحت لهم الفرصة لقتلوه كما فعلوا مع الأشتر النخعي الذي خلصهم من سعيد بن العاص، الذي لم يتم له السنة حتى ساروا إليه فقتلوه⁽¹⁾.

وهكذا فإننا لا نستغرب ذلك التعريض في الصفات لأهل العراق (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق). وهو تعريض غرضه التحقير والاستهزاء والتصرّف لأهل العراق، لما عرفوا به من شقاق ونفاق.

ولقد وفق الحجاج في اختياره لتلك الأبيات الشعرية الحماسية دون غيرها لأنها تناسب المقام انطلاقاً من أن لكل مقام مقالاً، وكذلك لأن هذه الأبيات الشعرية إمكانات إخبارية تتجاوز الإمكانيات البنوية البسيطة، بالإضافة إلى أن الكلمات هي وصف يحوم حول موضوع الخطاب. ولذلك فإن الحجاج يتنتقل في نصوصه بين الرمز الذي هو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظهر به "أهله"⁽²⁾.

1) - 10 ثورات في الإسلام، ص: 154.

2) - اللّمع، الطوسي أبو نصر السراح، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، د. ط، 1960، ص: 414.

٤-٤- الإشارة:

الإشارة هي "ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه"^(١)، كقول الحجاج مخاطباً أهل العراق: "من أعياه داؤه، فعندى دواؤه..."، فالداء هنا ليس المرض، وإنما هو رمز للعصيان والخروج عن تعاليم الدين، والدواء ليس هو العلاج، وإنما هو رمز للسيف، وكل هذا إشارة إلى التخويف.

وكما هو معلوم، فإن الإشارة تجمع بين اللفظي والمرئي، وتحتفل حالات الفكر والقلب معاً، مما يجعل المتلقين يتفاعلون مع موضوع الخطاب/الرسالة، وبالتالي ينسجمون مع مقصد الخطيب. والنص كما يقول "إيزر" لا يمكنه أن يوجد إلا من حلال الوعي الذي يتلقاه سواء في لحظة البث أو في لحظة القراءة ومسارها التاريخي؛ فالبات وهو يتحول إلى متلق يحاول أن يطابق بين الفعل الذل ينص عليه وبين طبيعة رد الفعل الذي يصدر عن المتلق، ويرغب فيه وهو بمثابة حصر لحدث الفهم^(٢).

وهكذا فإن "الإشارة" تعبير عن احتواء المعنى، وسعي لتنميته، كما أنها دعوة إلى الاختلاف وتغيير الأفق بواسطة التأويل الذي يسهم في تلقي الخطاب وإلقاءه ضمن شروطه البنوية والدلالية، أو خارج هذه الشروط^(٣).

١) - موافق في الأدب الأموي (تحليل، دراسة، مختارات)، د. عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ص: 283.

2)- L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique, ISER Wolfgang, presse mergaba, Editeur, P: 49.

- نقلًا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص: 46.

(3) - تحليل الخطاب الصوفي، ص: 50.

وبحد الإشارة هنا إلى أن نصوص الحجاج طفرة ضمن التقاليد السابقة والسائلة، وإن كان النقل المعرفي الذي تأسست عليه قد اعتبرها نصوصا سياسية دينية، فإن الانزياح الدلالي يثبت أنها نصوص سياسية مخضبة، ومرد ذلك أنها تمثل إلى الحث والتحريض، كما تمثل إلى التهديد والوعيد، وهذه ضغوط يمارسها الحجاج على أهل العراق لما يحمله لهم من حقد ونقم، لعصيائهم وقتلهم للحكام كما سبق الذكر.

ولقد ثبت أن الأوزان الشعرية وإن كانت مرتبطة بالسماع والإنشاد، إلا أنها تسهم في ثبات الفضاء النصي أو على الأقل في هيمنة الوجود السابق الذي منحوه شرعية التمتع بخصائص منفصلة عن القائل، والنص الذي يكتبه أو يشكله⁽¹⁾، وإن رأى البلاغيون والقاد لاحقا أن في دلالات الأوزان علاقة بالأغراض⁽²⁾، ولذلك نرى الحجاج يدعم ما يدعوه إليه بتلك الأشعار الحماسية لأنها تلائم الغرض المقصود، وهو إقناع أهل العراق بخوض المعركة. وكما هو معروف، فإن توليف الشعر يقوم على تخيير لفظي وزني محكم بتلك القواعد والمقتضيات التي تقوم على تخيير قالبي، وإذا صح التعبير فإن هذا التخيير اللفظي يسعى إلى التلاؤم مع معنى سابق، له بغية تزيينه؛ أي إظهاره في حالة جديدة⁽³⁾، وهذه الحلة الجديدة هي ذلك الفضاء الصوري من استعارات وتنبيهات.

(1) - شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، جودة فخر الدين، دار الآداب بيروت، ط1، 1984، ص 144.

(2) - تحليل الخطاب الصوفي، ص: 52.

(3) - موافق في الأدب الأموي، ص: 283

ولقد وجد العرب في المنطق مقياساً للانتظام والتناسب الوزني للشعر، حتى أئمهم كانوا إذا أرادوا أن يخطبوا صاغوا جملهم على شكل من التناسب والانتظام الذي يشبه الشعر ومن ذلك خطبة الحجاج بعد معركة دير الحماجم، وكذلك خطبته في البصرة التي جاء فيها مايلي:

"يا أيها الناس، من أعياه داؤه فعندى دواؤه، ومن استطال أجله فعلى
أن أجعله، ومن ثقل عليه رأسه وضعط عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره،
فصرت عليه باقيه، إن للشيطان طيفاً، وللسلطان سيفاً، فمن سقطت سريرته،
صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صليبه، ومن لم تتبعه العافية، لم تضق
عليه الأهلكة...".⁽¹⁾

ويبدو جلياً أن شكل التناسب والانتظام هو الذي أدى إلى استصاغة خط معين من الشكل التنازلي المبني على الإيقاع الريتيب المتساوي تفعيلاً⁽²⁾ كما في خطبة الولاية "نشر، عجم، وجد" وعلى هذا الأساس سمى المنطق بالشفاهية الأولى والمكتوب بالشفاهية الثانية.

ومهما يكن من أمر، فلقد نجح الحجاج في تبليغ رسالته إلى أهل العراق، وما قيام الحرب وخروج أهل العراق إلا دليل على أنهم اقتنعوا طوعاً أو كرها بما جاء في خطبة الولاية، وإن كان بعض النقاد يرى بأن هدف الحجاج

1) العقد لفريد، ج 4/ ص: 16.

2) تحليل الخطاب الصوفي، ص: 44-55.

من وراء خطبته هذه لم يكن إيقاع الجمهر، وإنما هدف إلى فكرة أساسية هي إخضاع أهل الكوفة وإذلاهم وحملهم على الالتحاق بالجيش⁽¹⁾. وبعد عرضه لموقف الحجاج من خطبة الولاية يرى "عمر فاروق الطباع" أن العناصر الثانوية التي جأ إليها الحجاج لتحقيق هدفه، تجتمع تحت شعار "الإرهاب" الذي اتخذت وسيلة للوصول إلى الغاية التي توخاه، وهي تشتمل على وصف نفسه ببعد النظر ومضاء العزيمة "أنا ابن جلى وطلاع الثنایا" و"إلي والله يا أهل العراق، ما يقعق لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التین". فالحجاج جأ إلى هذه الوسيلة لئلا يتورّه السامعون رجلاً ضعيفاً، وخائفاً مترددًا، وغبياً لا ينفذ نظره إلى دخائلهم وإلى أساليبهم الملتوية⁽²⁾. ولكي لا يتورّهم أهل الكوفة أن الحجاج رجل عادي، فيستخفّوا به وبوعيده، كشف النقاب عن مكانه وكفایته ومقامه من سائر قواد بني أمية قائلاً: " وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كناته بين يديه، فعجز عيادها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي".

وفي سبيل التعریض بالصفات فلقد وجه الحجاج إلى أهل العراق سيلاً من التهم التي تدينهم، وتوّجب عقابهم "يا أهل العراق، يا أهل الشقاوة والنفاق ومساوئ الأخلاق" قوله: "لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال" قوله كذلك "وكانكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها

1) مواقف في الأدب اللغوي، ص: 277.

2) المرجع نفسه، الصحة نفسها.

رغمدا من أكل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

أما باقي الخطبة فانفجارات غضبية، وتهديد لا اعتدال فيه وتحقير لا حدود له، "إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإن لصاحبها"، قوله: "والله لأحرز منكم حزم السلمة، وأضر بنكم ضرب غرائب الإبل" قوله: "وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمامات واللحى".

وعندما تيقن الحجاج من الأهيام أعصاب ساميته بذلك الوابل من التهديدات التي أمطرهم بها، ولما تيقن أيضا من عجزهم عن المقاومة، كشف عن مطالبه التي لابد في حالة الرعب والذعر التي خلقها في نفوسهم من أن يستجاب لها، لأنها وليدة الخوف لا وليدة الاقتناع، "وإن أمير المؤمنين أمرني بيعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لخاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة؛ وإن أقسم بالله لا أجدر رجلا تختلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله".

ولكن على الرغم من ذلك، فإن معظم منتخبات الحجاج تقلل نمودجا للخطبة العربية الإقناعية.

II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج:

II-1- التحاور:

هو فعالية خطابية تقوم على المشاركة والتعارض كآلية أساسية، وقد عرفه "طه عبد الرحمن" بقوله: "هو أن يتقلب المتحاور بين العرض والاعتراض

منشأً لمعرفة تنازيرية وفق مسالك معينة⁽¹⁾، وهذا فإن التحاور هو أعلى مراتب الحوارية بعد المخاورة والمحوار الذي يعتبر أدنى مراتبها، لأنه يقوم على عرض الخبر، ومحاولة إلزام المعروض عليه بتصديقه وإقامة الأدلة عليه، والتيقن بصدق قضایا دليله، شأن الحوار السياسي والإيديولوجي والفلسفی⁽²⁾.

١١-٢- الفاعل:

أسلم طريقة لرصد وعي هذا العالم، هي الوقوف عند الممارسة الخطابية التي يخترقها الفاعل، وعناصر هذه الممارسة في تفاعಲها من أجل إحداث الأثر. وهذا يعني أن القائم بفعل التحاور ينشق إلى ذات عارضة (قائلة) وأخرى معتبرضة (مقول لها)، فال الأولى تعرض، والثانية تعترض، وما إن يشرع المتكلم في النطق حتى يقادمه الخطاب مخاطب، كما لو كان المتكلم يسمع كلامه بأذن غيره، وأن غيره ينطق بلسانه. ويتجلی التعارض من خلال العلاقة التخاطبية التي تقام في نص الخطاب بين متكلم ومخاطب حقيقي أو مفترض⁽³⁾.

ومن هنا، لابد في التشكيل التحاوري من أن يبلغ المتحاور درجة من التفاعل يكون فيها قادرا على منازعة نفسه، والنهوض بعواقب خطابية متفاوتة مع مواقف الذات، والاعتراض عليها ومعارضتها⁽⁴⁾.

١)- في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، د.ط، 1987، ص: 43.

٢)- المرجع نفسه، ص: 47-31.

٣)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

٤)- في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 46.

الفصل الثالث: الخطاب الإقناعي في منتخبات من خطب الحجاج

ويتم التشكيل التحاوري بأساليب مختلفة هي بمثابة الإستراتيجية التي يتم بها التحاور، وت تكون حسب الخطابات من آليات للتوجيه والتأثير، كتعدد أفعال الكلام، واختلاف ذوات المتكلمين والمخاطبين باختلافها، وغيرها من أساليب التفاعل والتبادل كالمحاجة وغيرها مما يسهم في التواصل الخطابي وإحداث التأثير⁽¹⁾.

ولهذا عمدنا إلى استغلال الأدوات الإجرائية للدرس التداوili نظرا لما يمنحه للباحث من إمكانات في وصف ظاهرة التواصل داخل الخطاب، والتي قد لا نستطيع في بعض الأحيان أن نتلقاها ونتفاعل معه إلا من خلال هذه الإمكانيات.

وتلخص الباحثة "أوز كيوتي" (Orecchioni) منحى أصحاب الاتجاه التداوili في تحليل الخطاب بقولها: "إن كل تحليل للخطاب يجب أن يبدأ بالتعريف بما نسميه أحياناً "الجهاز الشكلي لل الحديث" أي وضع مختلف الفاعلين في الحديث داخل النص"⁽²⁾.

وانطلاقاً من هذا، لا شك في أن تضمين الآخر في الخطاب هو المعطى الأساس الذي يتطلبه كل حديث؛ إن المتحدث بمجرد الإعلان عن نفسه كمتكلم، يكون قد وضع شخصا آخر أمامه، وحدد لنفسه المقام الخطابي بين (أنا) و(أنت) وإن كان (أنا) و(أنت) "لا يضمran مفهوما ولا شخصا معيناً، لكنهما يسمحان للمتكلم من احتلال متولة الفاعل في الخطاب مع علاقة توفر

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

2)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Catherine Kerbrat Orecchioné, Armand colin, Paris, 1980, P : 158.

بينه وبين المرسل إليه⁽¹⁾، ليبدو التحاور والتشكيل التعارضي بعد ذلك الشكل الطبيعي لكل خطاب بدرجات متفاوتة⁽²⁾.

١١-٣- بنية الدعاء:

الدعاء هو فعل الكلام الذي تجتمع فيه أفعال جزئية كالطلب بالأمر والنهي، والنداء وكذا الشرط، وهي وسائل تمتلك الكفاءة اللازمـة التي يتم بها تحقيق النشاط الخطابي، وضمان المشاركة، وإحداث التأثير لما تحمله بنية الدعاء من قوة كلامية (force illocutoire) تريح المتكلـظ بها، لأنـها فعل الكلام الذي لا يتحقق إلا بها⁽³⁾. لذلك قال "أبو علي الدقاق": "الدعاء مفتاح الحاجة وهو متروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطـرين، ومتنفس ذوي المآرب"⁽⁴⁾. أما "كاترين كارير" فإنـها ترى: "أنـ المشروعـية الخطابـية لقول ما تقاس بمدى فائدـته، وليس بقدرـته على الإـخبار"⁽⁵⁾، وهذا فإنـ الدعـاء سلطة أدـمية يتـركـعـ عليها المـتكلـم ليـمارـس خطـابـه مع الآـخـرـ، سواءـ من حيثـ تلكـ الأوـامرـ والنـواـهيـ، أوـ تلكـ العـروـضـ التيـ يـقدمـهاـ لهـ؛ ويـقرـنـ مـحتـواـهاـ بـالـغـرـضـ أوـ القـائـدةـ التيـ يـرجـوـهاـ، علىـ أنـ يـحيـطـ هـذـهـ الفـائـدةـ هـكـاـلةـ مـنـ الصـدـقـ، وإنـ كانـ "ماـنقـينـوـدـوـمـينـيكـ" يـرىـ

1)- مبادئ في قضايا اللسانـيات المـعاـصرـةـ، كـ. فـوكـ، بـ. لـوفـومـيكـ، تـرـجمـةـ: مـنـصـفـ عـاشـورـ، دـيوـانـ المـطـبـوعـاتـ الجـامـعـيـةـ، الجـازـائـرـ، 1984ـ، صـ: 135ـ.

2)- تـحلـيلـ الخطـابـ الصـوـفيـ، صـ: 93ـ94ـ.

3)- المرـجـعـ نـفـسـهـ، صـ: 96ـ.

4)- المرـجـعـ نـفـسـهـ، الصـفـحةـ نـفـسـهـاـ.

5)- l'impliciteـ، Catherine Kerbrat Orecchionéـ، Edition Armand Colinـ، Parisـ، 1986ـ، P:200ـ.

أنه: "على المستوى الخطابي ليس هناك صدق أو عدم صدق، بل هناك ذوات تقول ما يجب قوله من أجل أن تكون أكثر اندماجا"⁽¹⁾.

يستنتج مما سبق، أن الدعاء (أمر، نداء، شرط) بنية مؤطرة تسهم في فرض شروط التخاطب، ومن ثم ضمان استمراره لأنه كفعل كلام يدار به الحديث، وينحه بعض هذه القوة الكلامية التي يمتلكها، والتي لا تتمثل في مدى صدقه، بقدر ما تتمثل في بناجه عندما ينتهي فعل الدعاء، لذلك - غالباً - ما يأتي الدعاء ليعكس إعلان المتكلم عن حصول الأثر المتمثل في ذلك الوفاق الذي يتم بينه وبين المتلقي⁽²⁾.

وهكذا تتجلّى وظيفة الدعاء بعده الدعامة الأساسية التي يتحقق بها الخطيب إستراتيجية التحاور والإقناع، والخطيب البارع هو الذي يعرف كيف يستغل الدعاء كوحدة مؤطرة تدعيمية أحياناً داخل الخطاب، وأحياناً أخرى كرقيب يظهر ويختفي كلما اقتضى المسار التخاطبي.

وإلى جانب أن للدعاء وظيفة تدعيمية توجيهية لمسار المخاطبة، فإنه يأتي ليؤدي وظيفة تعويضية لأنعدام رد الفعل من قبل السامع، أو بعد خفوت التبادل، إذ يكسر من أحدادية الخطاب، وخاصة ذلك المرتبط بالنصائح والأوامر والنواهي، والتي قد تطول لارتباطها بمعارف معينة، وقد تفتح مساراً للخطاب مخالف لما كان، كأن تؤدي إلى استمالة واسترضاء بعد تأنيب وزجر (كما في

1)- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Bordes, Paris, 1990, P : 105.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 97.

خطبة الولاية)، وهنا يأتي الدعاء كمبرر باعتباره كوحدة تدخل (intervention) ضمن بنية التبادل التخاطعي⁽¹⁾.

وبعد هذا العرض لتلك الأدوات الإجرائية ييدو جلياً أن ما استعمله الحجاج في منتخباته من أساليب بيانية استخدمه مراعياً في ذلك قدر الجمهوّر المستقبل الذي يوجه إليه الخطاب لأنّه كما يقول أبو هلال العسكري "ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقتسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات"⁽²⁾.

ولاشك أن الدعاء الذي يتضمن النداء، والأوامر والنواهي يعد من بين الآليات التي تسمح للخطيب بالنفذ إلى نفسية المتلقى وإلى قلبه وعقله معاً، وبالتالي تحقيق القصد من وراء تلك الأقوال التي يوردها الخطيب. "يا أهل الكوفة، يا أهل العراق" في خطبة الولاية، وكقوله "يا أيها الناس" في خطبة البصرة.

وبالإضافة إلى وظيفة الدعاء، فقد أكد النقاد القدامى أن لحسن الاستهلال وحسن التخلص، وموافق استعطاف السامع واستمالته، ودفعه إلى أشياء وقبضه عن أخرى هي طريقة تقوم وراءها غاية أو سياسة، ولذلك يجب أن يتتوفر في عدته حتى يبلغ غايتها مهما تنوّعت، وتنجح عملية التخاطب الأدبي

1) تحليل الخطاب الصوفي، ص: 99.

2) الصناعتين، أبو الهلال العسكري، ص: 153.

وهي سياسة محورها الخطاب، ومعيارها المتقبل الضمني، وإن كان مرامها المتقبل الصريح⁽¹⁾.

ولأن الدعاء المتضمن للنداء والأمر والنهي، مرتبط في الكتابة العربية بالخطبة، وبين الخطبة والرسالة صلة وثيق، والخطبة لها حظ وافر من أمر الدين؛ فإن ذلك ينسحب على وحدة الدعاء ووظيفة الأثر الذي تحدثه عند سماعها أو تلقيها، لذلك نجد الحجاج، يكرر في التهديد والوعيد بعض المعاني التي يرجو من خلالها تحقيق تلك الأقوال وضرورة تحقق تلك المعانى المرجوة في النفوس والعمل بها في الواقع ومن ثم تحقيق القصد.

ومن ذلك قوله: إن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- الدعاء للأمير بطول العمر، هذا الدعاء الذي يؤثر -لا محالة- في نفسية الأمير الذي بيده أن يرفع من شأن الحجاج ويحط من قدر غيره، وخاصة وأن عبد الملك بن مروان يرى أن الحجاج هو سيفه الذي لا ينبو، ويده التي تبطش بكل عدو للأمير.

وبالإضافة إلى ذلك فإن فعل الدعاء بنية تتدخل في تفعيل الدور الخطابي وتمكينه من نفسية المخاطب، وتأثيره وظيفة نفسية تدخل ضمن استعماله السامع، واستدراجه للحديث، كما تعكس ضمنيا الرغبة من قبل المستكلم في المحظوظة ونيل الاحترام من أجل الانصياع لكلامه الذي غالباً ما يكون مشعلاً

1)- جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكم، تونس، 1993، ص: 21.

معارف ومفاهيم هي خلاصة ما خرج به الحجاج من نقمته وحقده على أهل العراق.

ونجد هذا حينما تفرغ بنية الدعاء من محتواها لتخترل في جملة النداء "يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، أيها الناس" ويكون ما بعدها عرضاً لتلك الأفكار والمعارف التي يود إيصال معانيها إلى جمهوره، وكأن النداء في منتخبات الحجاج هو فعل الكلام الذي يشير الكلام.

وإذا ما اعتبرنا المخاطبة حديث بين متكلم ومخاطب، فإن التبادل واستمراريته، يبدو وكأنه ينشأ بقوة ذلك النداء وتلك الأوامر والنواهي، بل إن إدراك الذات والآخر والعالم لا يتم إلا بواسطة الكلام، إضافة إلى ذلك النفوذ الطبيعي، وتلك السلطة التي يمتلكها الحجاج⁽¹⁾.

يقول أبو حيان التوحيدي: "يا هذا خذ من التصريح ما يكون بياناً لك في التعرض، وحصل من التعرض ما يكون زيادة لك في التصريح، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة، ولا سمة، ولا علامة، ولا اسم، ولا ألف ولا باء إلا وفي مضمونه آية تدل على سر منطوي وعلانية منتورة، وقدرة بادية، وحكمة مخبورة، وإلهية لائقة، وعبودية شائقة وخافية مشوقة، وبادية معوقة، فاصرف زمانك كله في فلي هذه الأنباء واستنباط هذه الأنباء"⁽²⁾.

فاللغة هي التي تمكن المتكلم من الإحالـة إلى نفسه في كل مرة، كما قد توحـي بذلك من خلال السلطة التي يمارسها على الآخر، فبمجرد ما يوجدـه

1) تحليل الخطاب الصوفي، ص: 101.

2) المرجع نفسه، ص: 102.

المبادرة إلى الأنت يحوله إلى أنا، ويتحول إلى أنت وهكذا⁽¹⁾. فـ"كون أنا يحيل إلى نفسه فذلك استجابة لخاصية الانعكاسية (réflexivité)" ولكنـ"هـيـ يـتـحـولـ إـلـىـ أـنـتـ بـمـجـرـدـ مـاـ يـرـجـعـ الآـخـرـ (ـالـأـنـتـ)ـ هـذـهـ الـلـفـظـةـ لـنـفـسـهـ،ـ وـهـوـ بـذـلـكـ يـدـخـلـ ضـمـنـ خـاصـيـةـ التـنـاظـرـيـةـ (symétrie)ـ وـهـيـ خـاصـيـةـ تـواـصـلـيـةـ إـلـىـ جـانـبـ الـانـعـكـاسـيـةـ،ـ حـيـثـ يـكـونـ مـرـسـلـ الرـسـالـةـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ،ـ هـوـ نـفـسـهـ أـوـلـ مـسـتـقـبـلـ لـهـ"⁽²⁾.

وذلك يعود إلى المكانة التي تحملها المكانة المرسلة للخطاب الأدبي منه على وجه الخصوص، حيث يتجلّى حضوره بدرجات متعددة، تبعاً للممارسة الخطابية ذاتها من مقاصد وقدرة على التشكيل من خلال حضوره المباشر الذي تدل عليه لفظة (أنا) في قوله (أنا ابن جلا، إني أرى، وإن لصاحبه،...) أو معادلاتها (وطلاع الشنايا، متى أضع العمامة تعرفوني، لا يغمر جنبي، لا يقعقعني لي، أحذو، أحزمي،...). وحضور غير مباشر من خلال التعبيرات العاطفية والتأنويلية والتوجيهية التي يوضحها السياق وتتبين من خلاله، ثم هناك الحضور الذي يتجلّى من خلال محمل الخيارات الأسلوبية وتنظيم الخطاب⁽³⁾.

وبالإضافة إلى ما لبنية الدعاء (نداء، أوامر، نواهي) من وظائف، يظل النداء بمثابة العقد الذي يقيم الخطاب في كل مرة يحس فيها بالهيمنة، وبحاجة ما توجه بالنداء إلى الآخر، فإننا نسمح له بمشاركة، ولأنفسنا بالتنازل بطريقة ما

1)- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 5، نقلًا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 102.

2)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P : 21.

3)- Ibid, P : 159.

وطرح أسئلة يفترض فهما ورداً يتطابق وفق الجهاز العاطفي والفكري الذي ينشئه المتكلم للتأثير على المخاطب⁽¹⁾.

وهكذا فإنه لا يمكننا أن ننكر الكفاءة التي يكتسبها فعل الدعاء للخطيب، ولقد بينا بأنها المؤشر الأول للتواصل، وتمثل تلك الكفاءة في حصول المعاني المرجوة من قبل الخطيب، ومن هنا فإن التحول في إنتاج الملفوظات والبحث عن الأكثر فائدة في تحصيل التفاعل لدلالة على حضور المخاطب وضمان التعاون مع المتكلم خطابياً، وتلك "سمة كل خطاب تعاوري حيث يضطر القائمون بفعل التبادل الخطابي إلى إيقافه ليكون استئنافه أنشط بعد ذلك"⁽²⁾.

وبعد، فإن الخطبة إذا ختمت بدعاء، فإن هذا الدعاء الختامي يجسد الوفاق بين المتكلم والمخاطب، ويعلن عن نجاح فعل التحاور الذي يتحقق الخطيب بواسطة الاستدراج، تلك البنية التي يشتغل من خلالها على أفعال الكلام تقلب بها الخطاب، وإن كان الحجاج قد ختم خطبة الولاية بالتهديد والوعيد الذي يستدعي القيام بالفعل على وجه الإلزام.

1)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P : 159.

2)- Pragmatique pour le discours littéraire, P : 102.

١١-٤- بنية الاستدراجم:

إن التحاور لا يفترض فقط تبادل الكلام بين مخاطبين حقيقيين معاً أو بين مخاطب حقيقي وآخر مفترض "ولكنه أيضاً علاقة داخلية موضوعية وقصدية بين مشاركة متكلم وآخر يستحسنها ويقدرها"^(١).

وتتأسس بنية الاستدراجم من خلال النداء، وهو فعل طلب إقبال المخاطب ودعوته للمشاركة في الحديث أو السماع للخطاب، ولقد عبر الحجاج عن هذه البنية بالمخاطب والتحاور والنداء (يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق).

ويبدو فعل النداء في خطبة الولاية أو غيرها من خطب الحجاج مطلباً طبيعياً لكل فعل إبلاغي، لأن الإنسان ما يتكلم إلا ليشارك معه مخاطبها حتى وإن انشق ذلك المخاطب عنه، عندما يحاول أن يجد نفسه فيما يغایرها^(٢)، وينشق المتحاور على حد تعبير طه عبد الرحمن "إلى ذات عارضة ثبت منطوق القول، وإلى أخرى معتبرة تصل المنطوق بالمفهوم المخالف"^(٣).

ولعل الحجاج يكون قد أدرك بحكم أنه عايش الانتقال من السلطة الشفاهية إلى سلطة الكتابة أن السماع هو بمكانة القانون الأول الذي تبني عليه المشاركة في الخطاب، لذا نراه بعد النداء يشرع في التهديد والوعيد يعود من جديد إلى النداء ليعرض صفات أهل العراق، لأنه بفعل حصول الإقبال بعد

1)- Stratégies discursives, actes du colloque du centre de recherches linguistiques de Lyon, presse universitaire de Lyon, 1977, P : 166.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 105.

3)- في أصول الحوار وتجديده علم الكلام، ص: 44.

النداء يحصل فعل السماع، ومن ثم فعل التخاطب "وذلك أن السماع وبال على السامع متى لم يؤكده بما يشهد الواقع به"⁽¹⁾.

وهكذا فإن السماع لا يؤدي فقط دور طلب المشاركة في الحديث، ولكن يحل ما قد يحصل أثناء المخاطبة من إشكال كعدم التجاوب من قبل المتلقي، وكذا خشية من توقف الفعل التواصلي بعد خفوته.

يبدأ الحجاج في استدراجه المخاطب بتقديمه صورة عن نفسه مخالفة لغيره، بها يعرفه أهل العراق، وهي ارتداوه للعمامة بشكل مغاير، وبعد الافتخار بالنفس، وبأنه كالأمر الظاهر، ينادي أهل الكوفة ليخبرهم بأنه يحمل الشر ويجزي بمثله كل من سولت له نفسه عصياناً، مشبها إياهم بالشمار التي نضجت، وحان قطافها، وسيكون بلا منازع هو القاطف لهذه الشمار التي ما هي إلا رؤوسهم التي ستقطع، ودماؤهم التي ستراق، وستجري كالسيل العارم.

والملاحظ أن الحجاج يوظف أبياتاً من النظم مراعاة لللذوق العربي، وإن لم يكن قد استهل الخطبة بالتحميد والثناء كما جرت العادة، فذلك راجع إلى نقمته على أهل العراق، وهو لذلك ينتقل بعد الافتخار بنفسه إلى عرض تلك الصور المرعبة التي - لا محالة - تحمل في طياتها توقع قابلية حصول التفاعل نظراً لمعرفة أهل العراق بشخص الحجاج وبمدى صدقه في أقواله وجديته في الإنماز.

ومن هنا، فإن الهيئة الإخبارية التي وردت بها الأفعال الكلامية في خطبة الولاية، تستدعي مطلوباً، فعل حصوله ثابت بتلقيه، وهو طلب القيام بأمر، وهنا نلمس الدور العظيم الذي يعطيه الحجاج للكلمة، والفعل الذي يمكن أن

(1) - الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 349، نقلًا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 107.

يمدحه في النفس، لذلك لا نستغرب تلك الكفة الزاجرة التي يخاطب بها الحجاج قوماً أفسدوا العصيان والتخاذل، أن أداء الواجبات الدينية.

وبتعدد الإشارة هنا إلى أن أفعال خطبة الولاية لا تتضمن زمان الأمر ولكنها تمثل أوامراً ونواهي، لابد لأهل العراق من القيام بها أو الكف عنها، وإلا عوقبوا. وتشكل الأفعال التي استعملها الحجاج إفاده جمهوره الحكم الذي تتضمنه الجملة أو لازم الفائدة، إلى غرض الاستimulation والإغراء وخاصة إذا علمنا أن ردود أفعال جمهوره تنعدم، ومن ذلك قوله: "إنكم لطالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسنتتم سنت الغي" ففي هذه العبارات إشارات ولكنها يتضمن الكف عن هذه المعااصي، وقوله: "إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإنني أقسم بالله لا أجد رجلاً تختلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأهبت ماله، وهدمت منزله" ففي هذه العبارات إشارات كذلك ولكنها يتضمن القيام بالفعل.

و واضح أن عبارات الحجاج في معظم منتخباته هي أقرب إلى الحكمة لما تتضمنه من معانٍ أما استشهاده فإنه يخلق جواً للقبول لأنّه يحمل بداخله عنصر الاستدراج وذلك لما يتتوفر عليه من قوة الحجة، بحد ذاته آية من كلام الله؛ صيغت بطريقة تصور المشهد، مشهد أهل القرية الذين عصوا الله بعد أن أطعهم من الجوع، وأمنهم من الخوف، ومشهد أهل العراق الذين سارعوا إلى الفتنة وتخاذلوا في الدفاع عن إعلاء كلمة الحق، ووضعوا سنت تختلف ما شرعاً

الله. فإذا كان عقاب أهل القرية هو الجوع والخوف، فإن عقاب أهل العراق بالمثل، "من تخلف سفكت دمه، وأنفست ماله، وهدمت منزله".

ومعلوم أن الخطيب عندما يشعر بفقدان التوازن التبادلي، فإنه يلتجأ إلى الدعاء أو النداء أو الاستشهاد، أو الإيهام بتدخلات الآخر، وافتراض ردود أفعاله (قصة آدم وقتل ابن الزبير) وما ذلك إلا ليعيد التوازن ويحافظ على الاستمرارية الخطابية، كأن يقول: "إني والله يا أهل العراق ومعاكم الشناق والنفاق"، " وإنكم لكاهل قرية...".

والذي نسجله هنا هو أن الرغبة الجامحة في الإقناع هي التي قد تدفع بالمتكلم إلى فرض التحاور بالقوة، مما يؤدي إلى التنافس وإثارة الغلة، وقد يسبق الخطيب هذه "المهاترة" بتبرير كما يمكنه أن يتقييد بموافقت فرض عليه السكوت عن بعض الجمل، يقول ابن حيان التوحيدى: "لعلك تقول بغلتك وقلة تجربتك، وقصور نظرك، فلو سكت في الجملة كان أصلح من هذه الاستغاثة المكررة، ومن هذا العويل الطويل، ومن هذه البدائيات المغرضة، ومن هذه الطرق المختلفة...".⁽¹⁾

ولعل المعمول عليه في السكوت عن بعض الجمل أو التقييد ببعض المواقف هو دعوة المتلقى للوقوف على المقاصد، وعلى مدى اختلاف المواقف الخطابية التي يختلفها اختلاف الحال، وإشارة إلى أن تشكيل خطاب ما، يفترض مجموعة من الخيارات التي قد يصعب تبريرها أو الإفصاح عنها من قبل المتكلم، وربما يفتح المجال كذلك للمتلقى كي يتحرك بكل حرية للقبض على غرض الخطيب،

1) - الإشارات، أبو حيان التوحيدى ص: 105، نقلًا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص: 110.

وكذا على تجربة أو خلفية أو محددات تاريخية أو سياسية أو اجتماعية تحكمت في إنشاء المعنى، وذلك أن النص الظاهر ليس في حقيقة الأمر سوى مزاحم لنص آخر يسري بين سطوره، وأن النص الخطابي الإقناعي في بحثه يحمل مجموعات من الأدلة لتحليل إلى مضامين أو تصورات بالإضافة إلى أنه ممارسة يتكون من خلاها الاتصال مع الآخر⁽¹⁾.

ومن هنا قد يكون الموضوع ذاته هو الذي يخلق تقبلاً في المواقف، ولما كان الموضوع ذاته تجربة في حركة مستمرة، نرى الحجاج في كل مقطوعة يزهو بنرجسية مفتخرًا بشجاعته وكفاءته واستحقاقه للمنصب الجليل الذي ولاه إياه الخليفة (نشر كناته بين يديه، فعجم عيادها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسرًا، فرماكم بي).

وإلى جانب كل ما سبق ذكره، تسمح بنية الاستدراج للمتكلم والمتلقي بتنوع المواقف الخطابية، وكذلك تعدد ذواههم وتدخلها، وذلك نظراً لتنوع أفعال الكلام من صريحة مباشرة، أو غير مباشرة، كأن يكون القول متضمناً أمراً يفيد طلب حصول شيء، كما قد يحوي الأمر فعل كلام مقدر فيه، حين يخرج الأمر عن غرضه الأصلي ليدل على الدعاء أو النداء أو التمني أو الاسترحام أو التوبخ وغيرها، كقول الحجاج (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والفاق ومساوئ الأخلاق)، (...فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي)، (من تخلف بعد ثلاثة أيام بعد أخذ عطائه سفك دمه، وأنجبت ماله، وهدمت منزله).

(1) - تحليل الخطاب الصوفي، ص: 110.

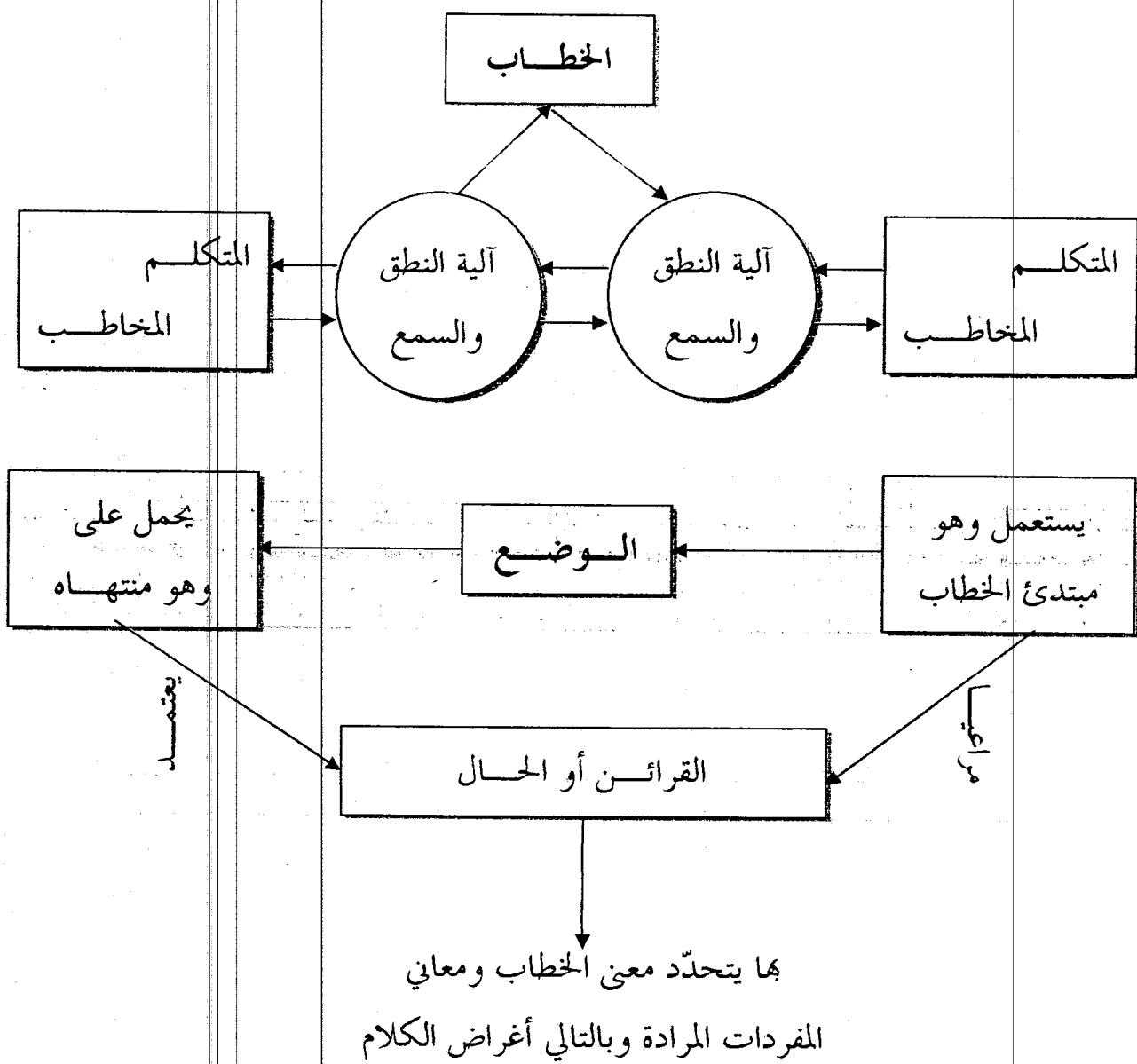
الفصل الثالث: الخطاب الإقناعي في منتخبات من خطب الحجاج

وانطلاقاً من هذه العبارات نلاحظ أن الذات المتكلمة تنسق إلى أكثر من ذات تبعاً لتنوع أفعال الكلام، كما أن أفعال الكلام ذاتها قد تفرض على المتكلم أن يكون ملزماً بها أو مجرد مؤول لها (إن أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع المهلب بن أبي صفرة)، ولا غرو أن نجد هذا التنوع والتغاير في المقامات الخطابية مجالاً للمتحاور للانتقال بينها⁽¹⁾.

ويمكّنا أن نشير هنا إلى أن هذا التغاير لا بد أن يكون نابعاً من تفهم الخطيب العميق لدوره التخاطب التي يجسدها عبد الرحمن حاج صالح في الترسيمة الآتية⁽²⁾.

1) - تحليل الخطاب الصوفي، ص: 112.

2) - التحليل العلمي للنصوص، عبد الرحمن حاج صالح، ضمن بحوث في علم اللسان جمع وتصنيف وتقديم صالح بلعيد، مخطوط تحت الطبع، ج 1/234.



واعتماداً على هذه الترسينة، نلاحظ كيف أن أفعال الكلام - في خطبة الولاية - تتعدد مما يفرض تعددًا في الذات المسئولة عن فعل الكلام، وذلك باختلاف الوظيفة الخطابية لها، فتبدو ذاتاً كثيرة حين الإخبار، وتارة ذاتاً مفتخرة، وأخرى حاقدة، ثائرة، مهددة. ويسطير في هذه الخطبة ضمير المتكلم، وكذا ضمير المخاطب (كم)، إلى جانب العبارات الإخبارية على اعتبار الذات المتكلمة فيها هي صاحبة السلطة في الكلام.

ومن ظواهر بنية الاستدراج في خطبة الولاية اعتماد الحجاج على مبدأ المهاجمة عليه يحمل المخاطب على الاعتراض فيتهمه بالشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، كما يتهمه بالعصيان بقوله: "لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مرافق الضلال، وسنتكم سنن الغي"، ثم لا يلبث أن يعود إلى التهديد والوعيد موظفاً القسم "أما والله لأخونكم لحو العصا...". ليبين لهم الأسباب التي جعلته يحقد عليهم ويجمعهم ليلقى عليهم هذه الخطبة، وبعد أن يرهبهم ويرعبهم، يذكرهم بأنهم كأهل القرية التي عصت الخالق ونالت عقابها.

ولعل المتلقي لخطب الحجاج، يدرك أن الحجاج كان على وعيٍ من أن مبدأ المهاجمة هو مبدأ التوابل، لذلك توسيع بالاشغال به، سواء باستدعاء حجج جاهزة في هيئة خبرية كالشعر والقرآن الكريم، أو افتراضها مسبقاً في فعل طلي (هذا أو ان الشد فاشتدي زيم)، أو اعتماد القياس والبرهان في عرضها، والشرح والتعليق وغيرها من الأساليب الإقناعية التي وظفها الاستدراج.

وهكذا فإن الإقناع بالحججة في خطب الحجاج يبدو بمثابة القانون الإلزامي الذي يحدث التفاعل به، وهو هنا يرتبط بالإكراء والإحراج كما في خطبة الولاية وفي معظم خطبه.

وبحمل القول، أن الوعي المنهجي للتخطاب لا شك أنه يجسّد تلك الصورة التي درج عليها كل خطيب بلieve من خطباء الجاهلية (قس بن ساعدة) إلى خطباء الصدر الأول للإسلام (خطبة الرسول ﷺ وخطب علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب-رضي الله عنهما-) إلى العصر الأموي، ولا شك أن الحجاج قد تأثر بأساليب الاستغلال المنهجي عند المعتزلة الذين يمزجون في المخاطبات بين القلب والعقل معاً.

وهكذا فإن "كل نظرية للفعل التواصلي تخفي وراءها نظرية في البرهنة، هي عبارة عن صياغة شكل عقلاً في اللغة. وبالطبع فيإن النظرية البرهانية لا تنفصل عن محتوى معرفي"⁽¹⁾. وعلى هذا الاعتبار يمكننا القول؛ إن خطب الحجاج تمثل نظرية للفعل التواصلي.

ولقد لاحظنا منذ البداية أن الممارسة الخطابية في الدعاء المتضمن للنداء، يحدّدها قصد خطابي يتجلّى من خلال ذلك النداء كبنية مؤطرة تقترب بجلب مبدأ الفائدة للمتكلّم والمخاطب على السواء، وهكذا فإن المظهر القصدي ووظيفته، والاعتراف به من قبل المتكلّم في النداء، يعتبر الأثر السابق لفعل النشاط الحجاجي الذي يُشري بنية الاستدراج والمحاورة بصفة عامة، حيث إن المفهومات الحجاجية بينها "مؤداة من قبل الفاعل أو بواسطة أداة أو رابط غير

(1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 116.

أن المتكلم هو الذي يعطي التعليمات بطريقة توجيه الخطاب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة⁽¹⁾.

وبهذا نرى الحجاج في معظم منتخبات متلزما بالحججة البليغة قولا وإنحازا يطالب بها الطرف الآخر، باعتبارها قانونا للممارسة الخطابية التي تحفظ فيها حقوق المخاطبين وواجباتهم التي لا تخرج عن المعيار المنطقي والخلقي في الوقت ذاته؛ الذي أساسه الصدق في القول، وجلب المنفعة للأخر، كأن يكون أثرا يحدث في النفس ويؤدي إلى فعل ما.

وبديهي أن الخطيب لا يقدم الحجوة من أجل إلحاق الضرر بآخرين، وإنما من أجل تقديم النصيحة وقبوها، ولعل هذا ما يعكسه قول الحجاج: " وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لحربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإن أقسم بالله لا أجد رجلا تختلف بعد أخذ عطائه بشلاة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله" على أن هذا التهديد الأخير الذي يختتم به الحجاج خطبة الولاية، يخلق فرضية للقبول في خضم الوضع التحاوري.

III- صور الدجاج في منتخبات الحجاج:

مرّ المنطق في علاقته باللغة بمرحلتين؛ تمثلت الأولى في المنطق الأرسطي الذي له علاقة مسبقة ومتوازية بين المنطق واللغة مبنية على أساس التعريفات ذاتها، وهكذا لم يكن المنطق سوى تحليل للفكر القائم على اللغة، أما المرحلة

1)- Argumentation, et Conversation, J.MŒSCLER, Hatier, 1985, P : 65.

الثانية فقد أسفرت عن القطيعة بين الجانبين (المنطق واللغة) حيث بنى كل من "بول" (Boole) و"مورجان" (Morgan) نموذج المنطق كلغة صناعية تهدف إلى تفادي وجود القصور في اللغة الطبيعية، كاللبس وعدم التماسك⁽¹⁾.

أما التعريفات التي تقدم اليوم عن اللغة، فإنها تتأسس على منطلقات وظيفية تأخذ في حسبانها لغة الحياة بمساويها المختلفة باعتبارها ظاهرة شرية، وبعد الكلام هو الإطار الشرعي للظاهرة اللسانية، ثم يأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة "مقتضى الحال" التي أنتشت المقوله الشهيرة "لكل مقام مقال".

وإن كنا نعثر على سابقتها الواضحة في عبارات "شيشرون" (Ciceron) الروماني الذي يقول: "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائماً بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح كل شيء، عليه إذن لكي يكون بلি�غاً أن يكون جديراً بأن يجعل لكل مقام مقلاً"⁽²⁾.

وانطلاقاً من هذه المفاتيح التي يسلمنا إليها "شيشرون" يمكننا الولوج إلى عالم خطب الحجاج "لنكشف الأدوات الإقناعية التي استعان بها، حتى يكون جديراً بلقب الرجل البليغ.

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 12.

2)- La Ciencia del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984, P: 79.

١-٣- القياس الخطابي:

يتسع القياس الخطابي ليشمل كل صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع، وأوّلها: التعارض والتضاد، وثانيها التقسيم المستقصي.

١-١-٣- التعارض والتضاد:

ومن أمثلة ذلك مايلي:

١- قال الحجاج في إحدى خطبه: "زعمتم أني ساحر، وقد قال تعالى:

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾، وقد أفلحت^(١)

وتخريج هذا المقتطف هكذا:

- لا يفلح الساحر.

- أفلح الحجاج

- الحجاج ليس ساحراً.

- هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم، إذن: لا مفر من أن ينكسر الأصغر.

٢- "زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمو؟"^(٢).

وتخريجه:

- من يعلم الاسم الأكبر لا يغلب.

(١)- العقد الفريد، ج 4/140.

(٢)- المرجع نفسه، ج 5/46.

- تفترضون أني أعلم الاسم الأكبر.

- إذن: أنتم مخطئون في مقاتلتي.

3- وقال أيضاً: "يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك على عشر رقاب من المسلمين، جيء به يوم القيمة مغلولة يدها إلى عنقه، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجحود، وألم الله، إني لأحب إلى أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولاً من أن أحشر معكم مطلقاً"⁽¹⁾.

وترجمة:

- أبو بكر وعمر حكماً.

- الحكم لم يوبق أبا بكر وعمر.

- الحكم لا يوبق أحداً.

وفي هذا المقتطف الأخير، نلمس استشهاداً بالمثل الرفيع الذي لا يجرؤ المستمع على الطعن فيه؛ كما فيه تحcir للأهل العراق وكما هو معلوم فإن للمثل قوة القياس المضمر، كما أن الحكمة إذا أضيف إليها تفسير صارت قياساً⁽²⁾.

وقد يرى ما نود توضيحه، أن منتخبات الحجاج لم تخال من الأقىسة العقلية المتنوعة، التي يدخل معظمها فيما أحصاه "أرسطو" وذلك أنها تعود إلى طبيعة العقل الإنساني وإلى مبادئه، ولكن لا يجب الاتجاه إلى المنطق المكثف ولا إلى الحجة العقلية الصريحة، لأن مجال ذلك هو المناظرات بين المكلمين وأصحاب

(1) - العقد الفريد، ج 5/46.

(2) - بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط 2، ص: 76.

المذاهب الدينية، لا الخطابة التي توجه إلى متلق ليس في مقدوره إلا التنفيذ والاستجابة.

ولقد سبق الذكر أن القياس الخطابي يقوم على الاحتمال والترجح، وبمحاله الأساس في نظرية "أرسطو" المرافعات القضائية، وإن كان موضوعنا ليس هو الخطابة القضائية، فإن الواقع يقتضي منا الاعتراف بأن كل المواقف يسعى فيها الخطيباء إلى تبرئة الذمة ودفع التهمة لفعل شنيع. كما فعل الحجاج بن يوسف عندما قتل عبد الله بن الزبير بالحرام، وحزع الناس لذلك جاء في جمهرة خطب العرب:

"إلا إن ابن الزبير كان من أحبّار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونمازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكثن بحرم الله، ولو كان شيءٌ مانعاً للعصاة لمنع أدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها، بخطيئة، وأدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة".⁽¹⁾

فلكي يهون الحجاج من شأن قتل ابن الزبير في الحرام، أتى بقصة أدم وخروجه من الجنة، وتقوم رؤية الحجاج في هذا المقتطف على مقاله تفصيلية ضمنية من ثنائياتها.

- ابن الزبير ← أدم، وأدم أكبر من ابن الزبير
- حبر هذه الأمة ← خلقه الله وأسجد له الملائكة.
- الطمع في الخلافة ← الأكل من الشجرة الخلدة.

(1) - جمهرة خطب العرب، ج 2/ 287

الخلد ← -
مكة ← الجنة، والجنة، أكبر من مكة.
الله جلّ وعلا. ← - الدولة (ال الخليفة + الحجاج)
القتل ← الطرد من الجنة.
ويكون تفصيل هذه المعطيات كالتالي:

أ- المشبه به :

- الله خلق آدم وأنعم عليه بأن أسرجه له ملائكته وأسكنه جنته
واشترط عليه ألا يأكل من شجرة الخلد.
- آدم لم يف بالشرط وأكل من الشجرة.
النتيجة: حلّ به عقاب الله وهو الطرد من الجنة.

ب- المشبه :

- اختلف ابن الزبير مع الدولة الأموية دون من منها، أو التزام منه.
- قتل ابن الزبير لهذا الاختلاف.

وعلى الرغم من أن المعطيات بين المشبه به والمشبه لا تتطابق، وعلى الرغم من أنها تقوم على الإيهام بالتشابه، فإنها مقبولة في الخطابة التي تقوم على الاحتمال والإمكان لا على اليقين⁽¹⁾.

وهكذا يتجلّى أن الحجاج يكون قد قدر ردود أفعال جمهوره، وبينها أقواله، وهو لذلك استنبط تلك الأقوال الافتراضية (زعتم أنني ساحر) حجاجاً هيأ لها أخرى (وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾) وقد أفلحت.

(1) - في بлагة الخطاب الإقناعي، ط 2/79.

و"زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم مالاً تعلمون؟" مما يسمح لنا بالوقوف على خطابين، أحدهما ضد الآخر. وما أن الخطاب الحجاجي يتموضع دائماً قياساً بخطاب ضد حقيقي أو تقديرى، فإنه يسهم في تحقيق النشاط التواصلي الذي تفرضه البنية اللغوية ذاتها أو السياق النصي. وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق الروابط الحجاجية (Connecteur Argumentatif) التي تصل المقدمة بالاستنتاج وتدخل في توجيه دلالة الحجاجة، كالقسم والاستفهام، والشرط وغيرها⁽¹⁾.

وتبدو تلك الإجابات أو الإقرار بعدم صحتها سبباً لنتائج معينة، هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في هذا الخطاب، والأساس الذي يقيم عليه المتكلم استدراجه للمخاطب، وهذا نقول إن المتكلم "يقوم بالفعل الاستنتاجي حينما يتلفظ بقول ما، وفي الوقت نفسه يرجع إلى معنى معين يقدمه على أساس أنه نقطة انطلاق لاستدلال سيؤدي إلى إصدار القول"⁽²⁾. ولذلك فإن الفعل الاستنتاجي ما هو في الحقيقة إلا خطاب حجاجي مرتبط بالوضعية التبلبغية التي يقيمهما الحجاج على التأثير والإقناع.

ولعل بنية المخاطبة على هذا الوضع التبلبغى هي التي حذت بالحجاج إلى الشرح والتعليق والتدعيم، في خطبته بعد قتل ابن الزبير في الحرم وجزع الناس لذلك كما سبق وأن رأيناها.

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 118.

2)- L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscombe, Pierre Margada, édition, Paris, P : 1983.

III-2-1- التقسيم المستقصي:

جاء في إحدى خطب الحجاج بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وشراركم لا يتوبون؟!، مالي أراكم تحرصون على ما كفيتكم، وتضيعون ما به أمرتم؟!"⁽¹⁾. فالمتلقى لهذه الخطبة، يدرك أن الحجاج يسعى إلى الإيحاء بالإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، وذلك لصرف نظر المستمع عن البحث والتقصي، ولعل الشيء الذي يسهل الإقناع في هذه الخطبة هو ذلك "العجب" وتلك "المقابلة".

III-2-2- المثل:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، ومن هنا يمكن الجزم أن المثل هو استقراء بلاغي؛ كما أنه حجة تقوم على المشاهدة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية لأحديهما وذلك بالنظر إلى ماثلتها⁽²⁾.

ولقد انتبه دارسو النص القرآني -والبلغيون العرب بالمساهمة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع، ومن هؤلاء ابن وهب الذي يقول: "وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأسكال، ويرون هذا النوع من القول أبشع مطلبا، وأقرب

1)- عقد الفريد، ج 4/113.

2)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط 2، ص: 82.

مذهبها، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾⁽¹⁾ وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾⁽²⁾، وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونه من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والقدمات مضبوطة إلى نتائجها"⁽³⁾.

ويستعمل المثل في تقدير الزركشي "لإخراج مالا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجربه العادة، وما لا قرة له من الصفة إلى ماله قوة"⁽⁴⁾ كما أن المثل "قول في شيء يشبه قوله في شيء آخر بينهما مشابهة لبين أحدهما الآخر ويصوره..."⁽⁵⁾ وهكذا فإن المثل يؤثر في النفس مثل تأثير الدليل⁽⁶⁾. وبعد هذا، فإن المثل دعامة كبرى من دعائم الخطابة، لما يحققه من تأثير وإقناع، وهو إذا أخذ بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه، والاستعارة، صار أهم دعامة من دعائم البلاغة، وهذا هو المنحى الذي سار عليه بيريلمان وأولبريشت في كتابهما المشهور (*traité de l'argumentatif*) ولا شك في أنه المنحى نفسه

(1)- سور الروم، الآية: 58 / سور الزمر، الآية: 27

(2)- سورة إبراهيم، الآية: 45.

(3)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 117-118.

(4)- الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 232.

(5)- المرجع نفسه، ص: 233.

(6)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الذي انتهجه حيث ربط بين علم البيان (وعماده: التشبيه والتمثيل والاستعارة) بعلم المعاني من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية⁽¹⁾. ويتنوع المثل من التاريخي إلى التشبيهي فمن المثل التاريخي، استغلال الحجاج قصة آدم وشجرة الخلد، لكي يبرر موقفه المخرج بعد قتله لابن الزبير - وقد سبق الحديث عن ذلك - وأما المثل التشبيهي، فيتمثل في تلك الآيات القرآنية التي يستشهد بها الحجاج في خطبه، كلما دعاه الموقف إلى ذلك.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة الولاية: **فإنكم لـ﴿كَاهْلٍ قَرْيَةٍ كَائِنُوا أَمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾**⁽²⁾.

وتحريج هذا التشبيه كمالي:

— أهل العراق ← أهل القرية

— أمير المؤمنين أمر ← الله أتى أهل القرية رغدا من كل مكان ← أهل العراق ← أهل القرية
الحجاج بعطاء أهل العراق ← أهل القرية ← أهل القرية
أعطياهم.

— أهل العراق إذا لم يستقيموا ← أهل القرية كفروا بـأنعم الله
على الحق كان عقابهم ← أهل القرية ← أهل القرية
سفك الدماء، سلب الأموال ← أهل القرية ← أهل القرية
وهدم الديار ← أهل القرية ← أهل القرية

(1) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 85.

(2) سورة النحل، الآية: 112.

والملاحظ أن هذا النوع من التمثيل يقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة (فسفك الدماء، وسلب الأموال، وتقديم الديار) رمز للخوف والجوع، و"إعطائكم أعطياتكم" رمز إلى النعمة، قوله "أن أوجهكم لمحاربة عدوكم" رمز لتحقيق الطمأنينة والسلام بعد الاستجابة للنداء والقضاء على العدو. وخلاصة القول أن غاذج الأقىسة الخطابية من تعارض وتضاد، وتقسيمات مستقصبة وتمثيل كلها تمثل ما يسمى بالانسجام الداخلي للخطاب الإقناعي.

IV- الانسجام مع الخارج.

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدر عند أرسـطـو بالحجـج أو البراهـين الجـاهـزة، أو غير الصـنـاعـية، وـتـضـمـنـ الشـهـودـ وـالـاعـتـرـافـاتـ وـالـقـوـانـينـ وـأـقـوالـ الـحـكـماءـ، وـإـنـ كـانـ هـذـاـ يـخـصـ الـخـطـابـ الـقـضـائـيـ، فـإـنـ الـخـطـابـ الـعـرـبـيـةـ تـتـضـمـنـ بـالـلـقـابـ الـآـيـاتـ الـقـرـآنـيـةـ وـالـأـحـادـيـثـ الـنـبـوـيـةـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ الـشـعـرـ وـالـأـمـثـالـ وـالـحـكـمـ، وـهـيـ أـيـضاـ بـرـاهـينـ جـاهـزةـ تـكـتـسـبـ قـوـهـاـ مـنـ مـصـدـرـهـاـ، وـمـنـ مـدـىـ مـصـدـاقـيـةـ النـاسـ عـلـيـهـاـ، وـتـداـوـلـهـاـ بـيـنـهـمـ، أـمـاـ دـورـ الـخـطـيبـ فـإـنـهـ يـنـحـصـرـ فـيـ مـدـىـ بـرـاعـتـهـ وـتـوـفـيقـهـ لـاختـيـارـ هـذـهـ بـرـاهـينـ، وـتـوجـيهـهـاـ إـلـىـ الـغـرـضـ الـمـقـصـودـةـ لـلـاستـدـلـالـ عـلـيـهـاـ.

جاء في البيان والتبيين: "وأكثر الخطباء لا يتماثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء"⁽¹⁾،

(1) البيان والتبيين، ج 1/ 118.

فالآيات الشعرية إذا ما رصدت للإرهاب والإغراق كما في معظم خطب الحجاج؛ فإنها تعد بمثابة المثل والحكمة لما لها من قوة في التأثير والإقناع. ولقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل بالشعر في خطبهم، وهي سمة في الخطابة العربية، وأكثر ما نجد التمثيل بالشعر في خطب بين أمية وولاتهم، وقل أن نجده في خطب الخوارج والشيعة⁽¹⁾. ولعل الحجاج خير نموذج لعصره، في إكثاره من الاستشهادات الشعرية، كما في خطبة الولاية، ومرد ذلك أن الآيات الشعرية تساهم بشكل كبير في بناء الخطبة إلى جانب أن تدعيم الصورة بما تشييه من إغراق وإحالات على عالم خاص يدعم الصوت والإيقاع كذلك، ومن أجل ذلك كان العرب يستحسنون أن يكون في الخطيب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن، أو كلام من النظم، لأن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقف⁽²⁾.

وهكذا فإن الاستشهاد بالأبيات القرآنية لم يكن حكراً على الخطباء الدينيين دون غيرهم، بل استفاد من تأثير النص القرآني نخبة كبيرة من الخطباء على تفاوت في ذلك؛ ومن الخطباء الذين جعلوا المادة الأساسية في خطبهم ورسائلهم آيات قرآنية؛ عثمان بن عفان، مصعب بن الزبير، زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم⁽³⁾.

1) الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 198.

2) البيان والتبيين، ج 1/ 118.

3) بлагة الخطاب الإنقاعي، ص: 56.

وبالإضافة إلى ما يؤديه المثل (قرآن، شعراً، حكمة، ...) من دور في التأثير والإقناع، فإنه يشع في الخطاب روحًا بدوياً (لا يقعق لي بالشنان، لأنّونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروءة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)، وذلك لارتباطها بالبادية، وقد اعتاد الناس قبل مضمون الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العقلاة من الأجداد والبلغاء، وهي مدعاة - في الغالب - بمحاجسات صوتية تقوى الشعور بصحّة محتواها.

وصفوة القول، أن النص القرآني وظف في خطب العرب لأغراض استدعته، باعتباره سلطة يتکئ عليها الخطيب إما في الاحتجاج لقضية مختلف فيها كما في المناظرات، وإما لتمثيل حالة مشابهة كما في خطبة الولاية " وإنكم لکأهل قرية..."، وإن كان هذا النوع غالباً في الخطب السياسية والوعظية، أما الغرض الأخير الذي وظف له النص القرآني فهو الاستئناس وذلك خلق جو ديني كما في المناسبات الدينية والاجتماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطباء بني أمية كانوا يميلون إلى التمثيل بالشعر واستغلال إمكاناته الإيقاعية والبيانية والمعجمية، وذلك خلق جو من الإغراب مهيء للمستمع كما في خطبة الولاية.

١-١- الأسلوب:

حاول "جرجیاس" أن يطبق على التشر بعض المبادئ الجمالية المستقاة من الشعر، وحينها ظهر الأسلوب ولكن أخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة عند أرسطو ولكن بعد ذلك تفتقت جوانبه عند اللاتين حتى ابتلع البلاغة كلها، مشخصة في الصور البلاغية، أما في البلاغة العربية التي لم تميز بين

الشعر والنشر إلا في بعض الجوانب، كعدم الالتزام بالوزن، أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى، فلقد احتل الأسلوب الصدارة⁽¹⁾.
ومعلوم أن عامة الناس "يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقدهم
فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن
أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن قوله كما ينبغي"⁽²⁾.
يستنتج من هذا القول أن مرئى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام
والإفحام فقط بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته،
وجعله يتغىب للقضية أو للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، فيتقىد لفدادتها
بالنفس والنفيس إذا اقتضت الضرورة، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تساق
جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولا يمكنه في أي حال الاستغناء عن
المثيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على
المراد منهم هو مخاطبة وجذبهم والتأثير في عواطفهم⁽³⁾.

وهكذا فإن الاستقراء يدلنا على أن أعاظم الخطباء يستعملون بعض قواعد المنطق، ولكنهم لا يقضون أوقاتهم في تنظيم الأدلة، وتنمية البراهين التي إن أقعت لا تؤثر في السامعين؛ بل إنهم يحرّكون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب من المؤثرات التي يتفنّنون في تنويعها، لعلمهم أن ما يوجد له أحد المحرّضات من تأثير، لا يلبي أن يهمن، وينفذ، وهم باستدرج لبق،

١) - بلاغة الخطاب الإقناعي، ط٢، ص: ٩٧.

2) - النقد الأدبي، و.ويمزت، ك.بروكس، ج 1/104.

(3) الخطابة العربية في أزهر عصورها، الإمام عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

وكلمات ساحرة، وصوت عذب، يكونون جوا عاطفيًا ملائمًا لقبول استنباطهم⁽¹⁾.

ولعل هذا ما يجعلنا ندرك أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير، لا يعول في خطبه على المنطق، بقدر ما يعول على خلق جو عاطفي مهمٍّ لقبول ما يقدمه له من أفكار ليسلم ويدعُّن لما يطلب منه القيام به، كما فعل الحاج بأسلوب التهديد والوعيد الذي يرعد النفوس ويرق القلوب.

ومن هنا فإن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجданية إن طوعاً أو كرهاً، بينما تسأم من البراهين العقلية وتضجر منها، وذلك أن الذي يصل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان أحادها من ذوي الفكر الصائب والعقل الناضج، فإن الواحد متى انضوى تحت لواء الجماعة، غالب عليه روحها العام، وسرت إليه عاطفتها، واستولت عليه مشاعرها.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد، فإن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، وهذا سعي الخطباء ذوو الملكة والحنكة والذين يعرفون كيف تتأثر، -سعوا- إلى مخاطبة شعورها، أكثر من مخاطبة العقل، ومرد ذلك أنه لا سلطان لقواعد المنطق على مشاعر الجماعة، ومن أجل إقناعها، ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها، أو بالدفاع عنها، ثم يحاول الخطيب تعديلهما بعوازنات صغيرة عادية تشخيص أمامها صوراً مؤثرة كما فعل الحاج

(1) - الخطابة العربية، عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

(وإنكم لكاهل قرية...) و(إني أنظر إلى الدماء بين العمامات واللحى تترقرق)،
(اللحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ...).

وبالإضافة إلى القدرة على التأثير في النفوس، ينبغي أن يكون الخطيب قادرًا على الرجوع القهيري متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه، كلما دعت الحاجة.

ومن هنا فإن الخطيب مطالب بتحميم الأسلوب حسب المقام، والجمهور الذي إليه الخطاب؟ سواء كان الخطاب شفهياً أو كتابياً أو حوارياً، كما يجب على الخطيب ألا ينسى أن لكل نوع خطابي أسلوباً خاصاً يليق به، فالأسلوب في الكتابة غيره في المناوشات، وهو في الجماعات غيره في المحاكم، وإذا كان أسلوب الكتابة أدق، فإنه في الحديث أشد حرارة وتنازعاً⁽¹⁾.

وتذكر الكتب أن أكثر الخطباء العرب، هم شعراء أيضاً كقسطري بين الفجاءة، والكميت وآخرون، كمن من الخطباء من كانت له ثقافة أدبية واسعة قائمة على حفظ حيد الأشعار والأمثال مع حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والحجاج خير نموذج لهذه الطائفة⁽²⁾.

وعن الحجاج يقول عمر فاروق الطباطباع: "كان الحجاج رجلاً محباً للأدب، فلم يقصر حياته على الحرب والإدارة، بل كان يعقد للشعراء مجالس، ويجزل العطاء لمن مدح منهم بني أمية، أو أثنى على أعماله، ولعل الخطابة أبرز آثره الأدبية، وفيها تبدو شخصيته القوية الحازمة، وشدة، وقوسته، وبطشه

(1) - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 67.

(2) - المرجع نفسه، ص: 100.

بأعدهائه، وقد حفظت له الكتب القديمة مجموعة ضخمة من تراثه الخطابي الذي يكشف عن كثير من جوانب العصر، وصروف البيئة في أثناء ولادته على العراق، فقد كان يخطب في كل مناسبة، ويستعمل لسانه عند كل حادثة تقع، أو أمر يجري، أو ظاهرة تتجلى، كما كان يعمل سيفه في كل حركة عصيان، أو بادرة ثرد، أو شبهة تقع على أحدهم⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج في معظم منتخبات لا يهذى بالأفكار التي تتيسر لأي شخص كان، وإنما بحده يعمد إلى نوع خاص من الأسلوب، ولئن كان أسلوب خطبة الولاية يعتمد الغلو، فقد بدا الحجاج مأخذوا بالنقطة منذ مطلعها، لأنه تجاوز "البسملة" فضلاً عن سائر الأحاديث الدينية التي دأب الولاة والخلفاء على الاستهلال بها كإحدى سنن الخطب الإسلامية نتيجة لتوحيد الدين والدولة.

وعلى الرغم من الإمام علي -رضي الله عنه- كان أشد غيضاً من زياد والحجاج إلا أنه لم يتخل عن المقدمة الدينية التي تبدو ضرورية لتخلع على كلام الخليفة صفة القداسة والتقوى، وإذا كانت خطبة زياد بن أبيه لم تبتداء بالمقدمة الدينية، فذلك يوحى بصورة غير مباشرة إلى أن الأمويين لم يأخذوا الدين في أعمق وجذورهم بالجذب والتقوى الذين كان أسلافهم قد أخذوا بهما.

ونكاد نرى فيما بعد "أن الحجاج كان في حالة شبيهة بالحالة التي شهدناها في هذه الخطبة، لأنه لم يكد يعرف بنفسه منذ أن استوى على المنبر، إلا بأنه طلاع الثناء، وهكذا فإن الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-

(1) موافق في الأدب الأموي، ص: 273-274.

بالرغم من أنه لم يكن أقل نقاوة من هذين الوالدين، ظهر أشدّ انضباطاً، وأكثر تقيداً بأحكام الدين⁽¹⁾.

ويظهر أسلوب النقاوة من خلال قوله: "يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق" فالغلوّ الذي شخص في هذه الجملة يدلّ على أن الألفاظ كانت تنبئ في الواقع عن نفس موتورة، أكلها الحقد على أولئك القوم الذين أسرفوا في خروجهم عن الأخلاق.

ونحن إذ نتعمّق في خطبة الولاية، نجد أن الحجاج يحاول أن يصلح ساميّه "بإلرهاّب" الديني، مقلّداً بذلك الإمام علي -رضي الله عنه- و زياد بن أبيه حتى قيل "تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس"⁽²⁾.

٤-٢- السلطة الخطابية:

لمن كان الحجاج قد اشتهر بالدهاء والقسوة وسفك الدماء، فقد شهد له بالفصاحة والبلاغة، شأنه في ذلك شأن الولاية والخلفاء الأمويين، ولكنه كان يجيد لغة السيف، لغة التهديد والوعيد أكثر من غيره. قال الجاحظ: "زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمر بن العلاء أنه قال: لم أرَ قروين أفضّل من الحسن والجاج"⁽³⁾. وعن مالك بن دينار أنه قال: "ربّما سمعت الحجاج يخطب،

1) - في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إلينا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5، 1986، ج2/329.

2) - الخطابة العربية وفن الإلقاء، الدكتور أشرف موسى، مكتبة الحانجبي، القاهرة، 1978، ص: 79.

3) - المرجع نفسه، ص: 56.

ويذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أفهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجّاج⁽¹⁾.

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال يوماً خالد بن سلمة المخزومي: "من أخطب الناس؟" قال: أنا، قال: ثم من؟ قال: سيد جذام، يعني "روح بن زنبع". قال: ثم من؟ قال: أخفيش ثقيف" يعني الحجاج. قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة، قال: نعم، هو ما سمعت⁽²⁾.

ويكفيانا من هذه الشهادات أن نتأكد من أن الحجاج يملك سلطة خطابية مكنته من استعمال كل وسائل الإقناع الضرورية، فقد جمع له بالفصاحة والبيان، وحسن التخلص بالحجّاج، كما جمع له بأنه من أخطب الناس، وعن براعته في العقل؛ قال: صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن الحارث: "ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجم على عقول الناس كثيراً"⁽³⁾.

أما عن اللحن، فقد جاء على لسان الأصمسي: "أربعة لم يلحنوا في جد، ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان و الحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجّاج أفصحهم"⁽⁴⁾.

(1) - البيان والتبيين، ج 1/228.

(2) - المرجع نفسه، ج 1/204.

(3) - المرجع نفسه، ج 1/70.

(4) - الخطابة وفن الإلقاء، ص: 55.

ومن هنا فإن السلطة الخطابية الطبيعية التي يمتلكها الحجاج، هي التي مكتنطه من اللجوء إلى شواهد حجاجية جاهزة كالشعر والآي القرآني، وهي لما تحتويه من قيمة علمية وتاريخية أصبحت بمثابة حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى مصادقة الناس عليها، ومن مدى توادرها بينهم كما أنسف الذكر.

وهكذا، فبعدما يشعر المتكلم بأن كفاءته اللغوية لم تعد قادرة على مواصلة المسار التواصلي، فإن تلك الحجج الجاهزة تكون بمثابة البديل، كما أنها تأتي كوظيفة تدعيمية "إنكم لكاهل قرية كانت آمنة..." ومقابلتها "من تخلف بعد ثلاثة أيام من أخذ عطائه سفك دمه..." فالملاحظ في هذا التصوير-البديع، هو أن عقاب أهل العراق هو نفسه عقاب أهل القرية (الخوف والجوع) على أنه لا يمكننا أبداً أن نطابق بين الخالق والمخلوق.

وبالإضافة إلى أن وظيفة الحجج الجاهزة تدعيمية فإنها تؤدي وظيفة أخرى، هي إعادة التوازن بين المتكلم والمحاطب حينما يعترى العملية التخاطبية نوع من الخفوت في التفاعل، أو حينما يشعر الخطيب بذلك الخفوت، بعدما يكون آخذاً في معنى "وكأنه يعترضه شك أو ظن، أن راداً يرد قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدّمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه"⁽¹⁾.

وعلى هذا الاعتبار، تبدو الإجابات عن أسئلة مفترضة (زعتم أنني ساحر) والإقرار (وقد قال تعالى: ﴿لَوْلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾) والنتيجة (قد أفلحت)

(1)- الصناعتين، ص: 439

بمثابة حجّة. وغيرها من الأسئلة التعجبية (يُزعمون أنا من بقائي ثمود!) وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾⁽¹⁾ (وزعمتم أنّي أعلم الاسم الأكبير فلم يقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟!)⁽²⁾ والشرط القائم على الإقرار بوضعياته معنية (من تخلف... سفك دمه...) هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام (الذي تمحور حوله كل المعطيات الحاججية في الخطاب الإقناعي، والأساس الذي يقيم عليه الحاج استدراجه).

وبعد، فلقد تمكّن الحاج بكل ما يمتلكه من معطيات معرفية، وقدرات لغوية تحليلية من تقديم العلل والأسباب التي جعلته يجمع أهل العراق ليسمعوا ذلك التّذوي الصارخ، فهو بعد أن يفتح ب بنفسه، ينصرف إلى عرض صفات أهل العراق الذين انصرفوا إلى الشقاوة والنفاق، معدداً معاصيهم التي تستوجب العقاب، مؤكداً عزمه، معلناً لهم أن من يعطي له أمراً كان حظه السفك، ولعل الحاج يكون قد استشعر عظم التهديد والوعيد الذي يحيط به، لذا نراه يوهمهم بالعدل واللين، ليؤكد لهم أنه يتبع عن الأحقاد الذاتية، ويدعوهم للدفاع عن بنى أمية، مؤكداً لهم في الآن ذاته أن له فيهم صرّاعي كثرين، فليحذرُوا أنه يكُونوا من صرّاعه.

ومن هنا، فإن تلك الأساليب التي انتهجها الحاج كانت قادرة على التأثير والإقناع، لأنها لوتّت خطابه بنوع من الشمولية التي أعطت للمخاطب معارف لازمة به وذلك من خلال الشرح الذي "هو زيادة عن كونه نشطا

1) - سورة الحاقة، الآية: 108.

2) - البيان والتبيين، ج 1/ 120.

معروفي، ونتائج المعرفة وموضوعاً للفكر، له قواعده ومنطقه الداخلي، فهو نشاط لا يمكن إبعاده عن النشاط اللغوي: إنه أسلوب عقلاني للحدث عن التجربة⁽¹⁾، ومن هنا فهو ذو أهمية كبيرة للمحاججة.

إذا كانت أفعال الكلام الجزئية من نداء وامر ونهي وشرط والتي زخرت بها خطبة الولاية قد مكنتنا من الكشف عن ذلك الصراع الذي كان قائماً بين الراعي والرعية، فإنها قد أدت إلى مستوى دلالي أكبر هو فعل الكلام ذو الطبيعة الشاملة أو فعل الكلام الجامع (Marco acte de langage)⁽²⁾.

ويبدو أن ظروف عصر الحاجاج السياسية والاجتماعية والدينية كانت مرجعاً استقى منه الحاجاج أفكاره. ولذلك جاءت معظم خطبه لتمثل وتعكس تلك الظروف، خاصة وأن المجتمع الإسلامي آنذاك كان مقسماً إلى كتلتين: أهل السنة وأهل الشيعة. الأمر الذي أدى إلى ذلك الخلاف والصراع الحاد ولعل هذا ما يؤكد قوله التوحيدى في كتابه "الإمتاع والمؤانسة": "فسفك الدماء، واستبيح الحريم، وشنّت الغارات، وحرّبت الديار، وكثُر الجدال، وكثُر القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيراناً...، وصار الناس أحراضاً من النحل والأديان،..."⁽³⁾.

ومن هنا، فإن خطب الحاجاج تنقل لنا أخباراً في أحد جوانبها التعبير عن قضية، و موقف معين، قضية ذلك الصراع بين أهل العراق وبين حكامهم،

1)- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981, p : 22.

2)- تحليل الخطاب الصنوفي، ص 122.

3)- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج 2/77-78.

وموقف الحجاج من ذلك. الأمر الذي يؤكد أنه هناك تفاعل أكيد بين الخطيب والمخاطب.

وعلى هذا الأساس، تكشف أقوال الحجاج عن صراع ديني سياسي يتمثل في ترد أهل العراق على الدين والدولة وذلك أنهم لم يأخذوا الدين بالجد، ولا ذادوا عن الدولة الأموية.

يتجلّى واضحًا أن خطب الحجاج تعد بمثابة البديل السيميائي الذي يظهر من خلال استراتيجية ذلك التحاور الذي أقامه الحجاج على التشكيل التعارضي بين (الأننا) المفتخرة، المهددة، و(أنت) المتمرّدة؛ الأمر الذي يكشف بدوره عن الصراع بين الراعي والرعية، بين قوة حاكمة، وقوة محكومة، بين قوة لا ترحم، وقوة لا تطيع إلا تحت ضغط الإرهاب.

ولعل شعار "الإرهاب" هو الذي أطلق الحجاج إلى اعتماده كوسيلة مساعدة على الإقناع، وكأني بالذين أصغوا إلى خطبة الولاية يرددون في أنفسهم قول الأديب الفرنسي "مونتين" إن رأسي ينحني أمام سيد خطير، أما عقلي فلا ينحني⁽¹⁾.

IV-3- سعة الاطلاع:

يبدو واضحًا، من خلال خطبة الولاية، أن الحجاج كان على اطلاع واسع على أحوال عصره وبيئته، ولعل هذا الذي يساعد له على الإقناع، وذلك أن سعة الاطلاع تمثل وسيلة أخرى للعثور على أدلة إقناعية، وإن كان "عمر

1) - مواقف في الأدب الأموي، ص 279.

"الطبع" يرى أن "الحجاج لم يكن يرمي في خطبته إلى الإقناع، إنما كان يرمي إلى الإخضاع والإذلال وتنفيذ المشيئة بواسطة الإرهاب، كان يرمي إلى تأدية الرسالة التي انتدب لها، ولا يهمه نوع الوسيلة الموصولة إلى الهدف، وكأن شعاره "الغاية تبرر الوسيلة" بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونؤكد أنه كان يفضل إرهاب الناس على استمالتهم وكرههم له على محبتهم إياه"⁽¹⁾.

وما يؤكّد قول عمر الطباع، على أن الحجاج لم يكن يكتفى بحب الناس له، هو خطبة الحجاج نفسه في أهل الكوفة وأهل الشام التي مطلعها: "يا أهل الكوفة، إن الفتنة تتلقح بالنجوى، وتنتج بالشکوى، وتحصد بالسيف. أما والله إن أبغضتمني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى موعدكم..."⁽²⁾.

ولكنا إذا كنا نتفق مع الدكتور عمر الطباع في عدم اكتتراث الحجاج ببعض أهل الكوفة ولا محبتهم له، فإننا نخالفه الرأي في كون الحجاج لم يكن يرمي إلى الإقناع في خطبة الولاية، ودليلنا على ذلك، أن هذه الخطبة تحتوي على كل مقومات الخطاب الإقناعي كل بمقدار.

1) المرجع نفسه، ص: 279-280.

2) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 134.

* البراهين الخطابية:

أ- براهين جاهزة:

- استشهاد الحجاج بآية من القرآن الكريم (الآية 111 من سورة النحل)، وكما هو معلوم عن حياة الحجاج أنه معلم قرآن وابن معلم للقرآن الكريم.

- استشهاده بأبيات شعرية في بداية الخطبة وفي وسطها، أي كلما استدعي منه الظرف التدليل على أقواله.

ب- براهين غير جاهزة:

- التقسيم والمقابلة والترادف بين المعاني لادعاء الاستقصاء والإحاطة ومن الترادف قوله: لأحمل الشرّ بحمله، وأخذوه بنعله، وأجزيه بمثله؛ ومعناه أنني أقابل الشرّ بالشرّ.

وقوله: لا أعد إلا وفيت، ولا أهن إلا مضيت، ولا أخلق إلا فريت؛ والمقصود بذلك أنه يوفي بكل ما يعد به.

د- أما الأسلوب فإنه يقوم على:

- غلبة الموازنات الصوتية-الإيقاعية؛ فقر متناظرة التركيب، ومتجانسة القافية (بحمله، نعله، مثله)، (أبصارا، أعناقا)، (طاحنة، متطاولة)، (قطافها)، صاحبها)، بالإضافة إلى ذلك التجانس في الأبيات الشعرية (زيم، حطم، غنم، وضم)، عصيلي، دوي، أغراي)، (شدّوا، جدّوا)، (عرد، أشدّ، بدّ)، (العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق) هذا التجنيس والسجع الذي يمنح الخطاب جرساً موسيقياً.

- ثم يميل إلى الاسترسال مع الآية الكريمة حتى يجنب الخطبة التكليف الذي يسيء إلى الوظيفة التواصلية الإقناعية.
- الميل إلى التصوير المرعب، "وكان أنظر إلى الدماء بين العمامات واللحى تترقرق".
- ما يقع في الشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين؛ ومعناه: لست كالإبل التي يضرب لها على قرب خاوية حتى تسرع في السير، ولست ضعيفاً كالتين.
- نشر كنانته، عجم عيادتها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلها مكسرة؛ والمقصود أن الأمير لم يختبرني ولأيا عليكم لنسبي ولماي ولا محض الصدفة، ولكن لأنني أهل لتلك المهمة التي وكلت إليّ.
- أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسنتم سنن الغي؛ ومعناه أنهم تمادوا في الكفر.
- لأحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروءة، ولأعصبنكم عصب السلامة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.
- ثم يختتم خطبته بالتهديد والوعيد كما بدأها، مراعياً في الخطبة كلها المقام والذوق العربي الميال إلى الإيجاز في مثل تلك المواقف.

هـ - السياق:

إن الكشف عن السياق لا يتم إلا فيما ينتجه التفاعل بين المستكلم والمستمع، ولذلك فإن الخطيب يقيم مخاطبته على ما يفترضه هو من تبادل وتدخلات وردود أفعال المخاطب، وهي نفسها التي تسمع للمتلقي لأن يفرض

هو بدوره ويبني المعنى على تلك الافتراضات. ومن هنا يسمح الاشتغال الواسع على الأساليب بتشكيل قابلية التلقى؛ كما يسمح بتكون شروط التأثير والإقناع.

ويظل الحجاج يفتخر بذكائه وفطنته وشجاعته وقوته، وبأشهر سيفه في معظم خطبه، دونما ملل ولأجل ذلك فإن أقواله تكشف عن صراع حاد، وتکاد خطبة الولاية تكون بمحملها بمجموعة من معانٍ الرعب مفرغة في صور مخضبة بالدماء، ومعبراً عنها بالألفاظ وتعابير مختارة من معجم السفاحين وهجاتهم. ولذلك فإننا لا نستشف من تقریعه سوى النقطة الماقدمة، والكره المتصل في أعماق نفس نيرونية مضطربة لا يعيد إليها الهدوء سوى مشهد الدماء والأشلاء⁽¹⁾.

وانطلاقاً من هذا الرأي، فما أشبه الحجاج بالطبيب الذي يعالج كل الأدواء، مهما تنوّعت وانختلفت أعراضها بدواء واحد، هو دواء الإرهاب، ذلك الإرهاب الذي يقوم عند الحجاج مقام الأدلة الدينية والعقلية والعلمية والتاريخية والقرائن⁽²⁾.

ومن هنا فإنه إذا ما تم اعتبار الخطابة فن التأثير والوصول العملي إلى الغرض المقصود، فالحجاج من أبرز خطباء الطبقة الأولى؛ وذلك أن خطبه تؤثر في القلوب حتى تحيتها وفي الإرادات حتى تسلّها، وفي النفوس حتى ترزعزعنها، وفي

(1) - موافق في الأدب الأموي، ص: 279.

(2) - المرجع نفسه، ص 280.

العزائم حتى تهدّمها، وتحقق له في الوقت ذاته من الوجهة العملية الغاية التي يرمي إليها، إذ تتحين أمامه الرؤوس، وإن تمرّدت عليه الضمائر⁽¹⁾.

ولعل الشيء الذي يوحى "بالإرهاب" في خطب الحجاج هو جوءه إلى المعاني التي ترافق الموت والقتل والتكميل، وكذا إلى الصور المرعبة المخضبة بالدماء، والعارضة للموت بأشكال وألوان مبتكرة تقشعر لها الأبدان، وإلى الألفاظ التي تشير إلى الفتوك والبطش والهلاك، يصبح كل ذلك نغمة موسيقية، يشبه تارة الموسيقى الحربية العنيفة النيرات، وطوراً موسيقى المناحات التي ترافق الميت إلى مثواه الأخير.

وما يلاحظ كذلك في خطبة الولاية، أن الحجاج لا يقيم وزناً لا للحدود الإنسانية ولا للعلاقات الاجتماعية، فأهل العراق عنده سواء، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، ...، مما يدل على نقيمة الحاقدة، وعلى تلك العصبية التي عبر عنها باكثاره من التأكيد، (إني والله، أما والله، وبأن، وقد) وغيرها من الأدوات التي تؤكد تصميمه العنيد الذي لا رجعة فيه، بالإضافة إلى سمعته الاجتماعية التي ساعدته على بث الرعب في النفوس والوصول الفوري إلى تحقيق الغايات.

وبعد، فلقد سبك الحجاج خطبه المنتخبة بأسلوب بدوي يعتمد على العبارات المقطعة الموجزة، والصور والتشابيه الحسية، يفرغها مسجوعة أحياناً، وتارة مرسلة وهي في كلتا الحالتين تتسم بعيسى جزالة التراكيب، وشدة الأسر، واختيار الألفاظ المدوية النازلة في منازلها.

(1) - مواقف في الأدب الأموي، ص: 280.

ويضاف إلى كل ما سبق ذكره، أن الحاجاج استغرق كثيراً في البلاغة، فلقد جاءت تعابير خطبة الولاية متفقة ومقتضى حال نفسيته ونفسية أهل العراق، والحالة السياسية التي كانت سائدة آنذاك، ومطابقة مقتضى الحال - كما هو معلوم - لا تقتصر على التعابير والمعاني والصور. وإنما تتجاوزها إلى موسيقى عسكرية الجرس، كثيبة الواقع في النفوس، وكأنها جاءت تدعم وسائل الخطيب في الإجهاز على الأعصاب؛ الأمر الذي يدل على أن السياسة الأموية كانت ترتأ إلى هذا الضرب من الأدب البدوي الجاهلي بعيد عن روح مكة والمدينة⁽¹⁾.

٧- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحاجاج (الدلة والواقع):

إن طبيعة الكذب والزيادات الشهية في الخطابة التي هي فن الإقناع، تمثل كل ما زاد عن متطلبات التوصيل دون أن توقع في الغموض والبعد عن التأثير والإقناع، ويمكن إرجاع جانب من ذلك إلى الصورة البيانية، ابتداءً من النعوت والأوصاف إلى التشبيه والاستعارة والمجاز والكلنائية،... كما يرجع إلى جانب منها إلى المقابلة بين المعانٍ (الطبق) واختيار الألفاظ المعتبرة⁽²⁾.

وعلى هذا الأساس، أدى تراكم الصفات والأقوال التابعة المتكررة للضمائر إلى تحسيد المفاهيم في شكل وحدات مكرّرة تحققت على مستوى

1) موافق في الأدب الأموي، ص: 281-282.

2) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 100.

الصيغ وتوازن العبارات لتنتهي إلى نوع من التجانس الصوتي الذي سماه شوقي ضيف "بالتوقع" الذي نلمسه "من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهي إلى السجع، ولكنها تنتهي إلى التوازن الصوتي الدقيق"⁽¹⁾.

ومن هنا فإن الحاج كسابقيه لم يسلم من موجة "التوازن الصوتي" الذي يعدّ من المقولات البلاغية الرسمية التي تساهم بشكل كبير في التأثير والإقناع، وعليه يسهل علينا تقييم خطبة الولاية إلى جمل قصيرة، هي أشبه ما تكون بالأساليب الشعرية الحديثة:

- إِنَّ لِأَحْمَلِ الشَّرِّ بِحَمْلِهِ.

وأخذوه بنعله.

وأجزيه بثله.

وإن لاري رؤوسا طامحة.

أعناقًا متطاولة.

إني والله يا أهل العراق.

— ومعدن الشقاق والنفاق.

— ومساوئ الأخلاق. —

- ما يقع في الشنان.

- ولا يغمز جانبي كتفماز التين.

وإني والله لا أعد إلا وفيت.

[١]- الفن ومذاهيه في النشر العربي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٧، د.ت، ص: 169.

— ولا أخلق إلا فريت —

وإني أقسم بالله لا أحد رجلا تخلف إلا سفك دمه.

— وأهبت ماله. —

— وهدمت منزله. —

وبناء على موجة "التوازن الصوتي" يمكننا دراسة البني التي تساهم في الإقناع الخطابي في خطبة الولاية.

٧-١- نبيه التكرير:

لقد سبق الذكر بأن التكرير، ظاهرة لغوية مقامية تقصد إلى التأكيد والتقرير، مما يساعد على الإفهام والإفصاح والكشف؛ أي على توكيده الكلام والتشديد من أمره، وتقرير معناه. كما إن له دوره في السبك المعجمي كأن يحيل إلى لفظ مكرر أو لفظ آخر سابق مرادف، أو مرادف قريب.

وترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب، فإذا كان الخطاب من الأمر إلى المأمور، كان ذلك التكرير حثاً على المبادرة إلى امتنال الأمر على الفور ومن أجل ذلك يقرن أبو الهلال العسكري التكرير بتأكيد الحجة، كما يجعل منه مذكرة للقول، ومن ثم يربط بين مذكرة القول وبلوغه الشفاء والإقناع.

ومن منظور "باربرا جونسون" يرتبط الخطاب العربي في الإقناع على العرض اللغوي للدعاوي الحاججية، وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية متكررة، نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع الإسلامي، حيث تسمى "بابرا" هذه الإستراتيجية البلاغية بإستراتيجية الإقناع بالتكرار

و بالصياغة الموازية (rephrasing) وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها (Présentation) إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسمى بها بإستراتيجية العرض (Presentation) أي استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره. ومثالنا على ذلك قول الحجاج: وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تتررقق، وإنكم (لأهال قرية...).

٧-١-١- أنواع التكرير في خطبة الولاية:

أ- تكرير الشكل:

لقد سبق الذكر أن وظيفة التكرير هي الوصف، أي أنها وظيفة سبكية خالصة يقتضيها التركيب، لا بلاغية يقتضيها المقام؛ ولكن هذا لا يمنعنا من أن نميز ثلاثة أنواع من التكرير على مستوى الشكل والتي نعتقد أن لها ضلعاً أو فرعاً في تحقيق الإقناع، ومن هذه الأنواع:

أ-١- تكرير المكرر بذاته:

- إن لأحمل، وإن لأرى، وإن لصاحبها، وكأني أنظر، إن والله يا أهل العراق، وإن والله لا أعد، وإن أقسم بالله.

- أما والله إن لأرى، أما والله لأحوّلكم، أما والله ل تستقيمن، ومن خلال هذا النوع من التكرير يبدو أن الحجاج يريد إثبات تأكيده على العزم، ودحض مزاعم أهل العراق، وذلك أن تكرير اللفظ بذاته يعدّ وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله، وإن كان أهل العراق على ثقة بأن الحجاج منفذ لعزمهم. وتكشف سياسة السياق اللغوي مع بنية تكرير اللفظ

بذاته عن كفاءة اتصالية عالية؛ لأن تكرير اللفظ بذاته يرمي إلى تهيج الخصم. كما يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوماً أكثر، إنه يزيد من جذب انتباه المستقبل وامتلاكه.

أ-2- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة:

وهذا النوع يكاد يستحوذ على معظم خطبة الولاية ومن ذلك قول

الحجاج:

- لا يغمز، كتغماز.

- سنتنتم، سنن.

- لألحواتكم، لحو.

- لأقرعنكم، قرع.

- لأعصبنكم، عصب.

- لأضربنكم، ضرب.

- إعطائكم، أعطياتكم.

- قالا، وقيل وما تقول.

ويعد هذا النوع من التكرر آلية لغوية مهمة من آليات دفع دعوى الخصم وإيقاعه بالإقلال عنها، وهو في خطبة الولاية يؤكّد عزم الحجاج في القيام بالفعل. (وتعكس هذه الهيئة من التكرير المبنية على (فعل مبني للمجهول + اسم مجرور)، (فعل + مفعول مطلق) - تعكس - في سياقها الحجاجي عن حالة من الحالات تأثير في سلوك الخصم عن منازعة مخدمة باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس.

أ-3- التكرير يعاددة الصياغة:

وهو تكرير بتغيير التركيب هدفه تشيد المعنى ووجهة النظر، ومن ذلك ما جاء في خطبة الولاية:

- "إنكم لـأهـل قـرـيـة كـانـت آمـنـة يـأـتـيـها رـزـقـهـا رـغـدـاـ...".
- وـمـقـاـبـلـتـهـا: "إـنـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ أـمـرـيـ بـأـعـطـائـكـمـ أـعـطـيـاتـكـمـ".
- أـهـلـ الـقـرـيـةـ كـفـرـواـ بـأـنـعـمـ اللـهـ.

- أـهـلـ الـعـرـاقـ مـأـمـوـرـونـ بـالـحـرـبـ ضـدـ الـعـدـوـ دـفـاعـاـ عـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ.

- عـاقـبـ اللـهـ أـهـلـ الـقـرـيـةـ بـالـخـوفـ وـالـجـوـعـ جـزـاءـ كـفـرـهـمـ.

- أـهـلـ الـعـرـاقـ إـنـ تـخـلـفـواـ عـنـ الـحـرـبـ عـوـقـبـواـ بـالـمـثـلـ الـخـوفـ وـالـجـوـعـ.

ب- تكرير المضمن:

ويبيـنـ هـذـاـ النـوـعـ عـلـىـ مـكـوـنـاتـ لـغـوـيـةـ مـتـرـادـفـةـ أـوـ مـشـتـرـكـةـ فـيـ جـزـءـ مـنـ الـعـنـىـ.ـ وـهـوـ أـنـوـاعـ أـرـبـعـةـ:

ب-1- تكرير مفردتين أو أكثر في جملة من منقوص واحد:

وـمـذـكـورـ قـولـ الـحجـاجـ:

- وـإـنـ لـأـحـمـلـ الشـرـ بـحـمـلـهـ.

- وـأـخـذـوـهـ بـنـعـلـهـ.

- وـأـجزـيـهـ بـعـثـلـهـ.

وـالـعـنـىـ الـمـرـادـ مـنـ هـذـاـ التـكـرـيرـ هـوـ أـنـ الـحجـاجـ،ـ يـقـاـبـلـ الشـرـ بـالـمـثـلـ.

ب-2- تكرير مفردتين في ثنائية:

- معدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق.

- فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً.

ويميل هذا النوع من التكرير إلى جعل الطرف الثاني من الثنائية اللغوية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها (أمرها، أصلبها)، (الشقاق والنفاق، مساوئ الأخلاق).

بـ-3- تكرير مفردتين في منطوقين متواлиين:

- لا أعد إلا وفيت.

- لا أهم إلا أمضيت.

- فكلمتا وفيت وأمضيت توحيان بنفس المعنى الذي هو التنفيذ والقيام بالفعل.

بـ-4- تكرير المضمنون بين جملتين متواлиتين أو أكثر :

- أحمل الشر بحمله.

- وأخذوه بنعله.

- وأجزيه بمثله.

: قوله

- فررت عن ذكاء.

- فتشتت عن تجربة.

- وجريت إلى الغاية القصوى.

: قوله

- أوضعتم في الفتنة.

- اضطجعتم في مرأى الضلال.

- وسنتكم سنن الغيّ.

وقوله:

- لا أعد إلا وفيت.

- لا أهم إلا أمضيت.

- لا أخلق إلا فرّيت.

وبعد، فإن الجمع بين مفردتين، يعد آلية لشغل فضاء ذلك معنى كاملاً؛ فحيثما تقصّ المفردة الواحدة في ذلك السياق الحجاجي عن أدائها، تُنوب عنها الأخرى.

وما تحدّر الإشارة إليه هنا، هو أن تكرير المضمون يبدوا آلية أساسية من آليات تشديد المعنى وإقناع المستقبل على وجه خاص، كما تؤكّد ثنائيات تكرير المضمون على فكرة المكاثرة أو المغالبة التي يتّضضها الاحتجاج، كما ترتبط هذه الثنائيات باستراتيجية التوازن الغالبة على خطاب الحجاج مما يجعلها من النماذج المتميزة من النصوص العربية الحجاجية على الجمع بين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين التوازن.

فتكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات: (الأحمل الشر بحمله وأحنوه بنعله، وأجزيه بعثله)، يمثل أسلوباً يحتفي احتفاء خاصاً بإعادة صياغة المعنى، وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيراً مطولاً تغلب فيه السلامة والهدوء على الانتقالات المفاجئة أو السريعة، وهذا الذين ذهب إلى "والتر أونج"

من أن التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي، يميل إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ، لأن الإيقاع حتى من الناحية الفيزيولوجية يساعد على التذكر. ومهما يكن من أمر، فإن تأمل حالات تكرير المضمون يدلنا على أن الجملة الثانية تميل إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشارك معها في الدلالة العامة، كما أن تكرير المضمون بإمكانه أن يساعد في دفع المعنى إلى درجة أقوى مما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالته.

وربما بدا تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيضاح أو شرح الثانية للأولى، فعبارة (أخذوه بنعله) في توضيح للجملة (إلي لأحمل الشر بحمله)، وجملة (أجزيه بمثله) توضيح للجملتين الثانية والأولى. وهذا يعدّ هذا النوع من التكرير أوسع من غيره مدى في خطاب الحجاج، ولعله من أجل ذلك أبلغ أثراً في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم مرّة بعد أخرى.

٧-٢- بنية الأزدواج:

وضع أرسطو الصناعة الصوتية في الخطابة في متلة وسط بين النظم المطر الوزن، والنشر المرسل، وهو لذلك يرى أن شكل المقال ينبغي أن يكون غير ذي وزن ولا عدد؛ لأن ذلك النحو غير مقنع، ولذلك يجب أن يكون النشر الخطابي إيقاعياً غير مطرد الوزن، وهذا يفضل أرسطو العبارة التي يدرك الطرف الآخر نهايتها^(١).

(١)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط٢، ص: 112.

ويعد السجع في البلاغة العربية من أهم الظواهر الأسلوبية في الشّر؛ لأنّه يمنح الكلام مكانة أقرب إلى الرّجز والقصيد، وإن كان دونهما، على أن يكون السجع في بعض الكلام لا في جميعه: فالسجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنٍ عنها، والسبعين مستغنٍ عنه⁽¹⁾ وهذا الرأي إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على المترلة الوسط التي يحتلها الكلام البليغ الذي ليس شعراً.

وعلى الرغم من رفض البلاغيين القدامى لاطراد السجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية، لما ينeman عنـه من تكلف يعوق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، ولأن ظهور التكـلف مناف لغرض الإقناع الذي تغيـاه الخطابة، فإنه "لا يحسن مثـور الكلام ولا يجلـو حتـى يكون مزدوجاً، ولا تـكـد تـحدـلـلـيـغـ كـلامـاً يـخـلـوـ مـنـ الـازـدواـجـ"⁽²⁾.

ومن هنا، فإن الازدواج والتوازن، والترصيع وغيرهما من المصطلحات الصوتية، مراتب حسب توافق طرفي الفاصلتين ولقد قال بعضهم "أحسن السجع ما تساوت قرائته، ثم طالت قرينته الثانية أو الثالثة"⁽³⁾، وهناك من يجعل التوازن في مرتبتين؛ الأولى أن يراعي الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها،

1) البرهان في وجود البيان، ص: 165.

2) الصناعتين، أبو الحلال العسكري ترجمة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، د.ط، 1981، ص: 283.

3) شرح الفوائد الغياثية، الملا عصام الدين، دار الطباعة، العامرة، 1321هـ، ص: 282، نقلًا عن

بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 114.

وهو أحسنها وأعلاها مع مقابلة الكلمة بما يعادها، والمرتبة الثانية، ^{ألا}
يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين⁽¹⁾.

وعلى هذا الاعتبار، يمكننا تصنيف التوازن إلى أنواع ثانية:

1) - التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيأة

ترتيبها وفي الفاصلة:

- أحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله.

- يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق.

- أو ضعتم في الفتن واضجعتم في مراقد الضلال.

- لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فرّيت.

- أخونكم، أعصبنكم، أقرعنكم، أضربنكم.

2) - التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحداتها اتفاقاً ناقصاً فضلاً

عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة:

- بحمله، بنعله، بثله.

- العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق.

- أو ضعتم، اضطجعتم، سنتتم.

3) - التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة

الوحدات:

- سفكت دمه، أهبت ماله، هدمت منزله.

(1) - تطور الأساليب الشورية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملائين، بيروت 1968، ص:

4) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقاً ناقصاً مع الانفاق في

الفاصلة دون الترتيب:

- أبصاراً طامحة وأعنقاً متطاولة.

- حان قطافها، وإن لصالحبها.

- العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق.

- الشنان، التين.

- أحذوه، أجزيه.

- فرّت، فتشت، حرّيت.

- لستقيمن، لأدعنّ.

- سفكت، أهبت، هدمت.

5) التوازن بالاتفاق في الفاصلة دونسائر الملامح الأخرى:

- نثر كناته، بين يديه.

- عجم عيادتها فوجد أمرها عوداً وأصلبها مكسراً.

- فرمـاكـمـ بـيـ، لـأـنـ كـمـ.

- أوضـعـتـمـ، سـنـتـمـ.

- قرعـ المـروـةـ، عـصـبـ السـلـمةـ.

- إـعـطـائـكـمـ كـمـ أـعـطـيـاتـكـمـ.

- أـوـجـهـكـمـ لـحـارـبـةـ عـدـكـمـ.

- دـمـهـ، مـالـهـ، مـتـرـلـهـ.

6) التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقاً تماماً وفي الترتيب دون

الفاصلة:

- أبصاراً، أعناقاً.
- نثر، عجم، وجد، رمي.
- لحو، قرع، عصب، ضرب.

7) التوازن بالاتفاق الناقص في زنة الوحدات والاتفاق في الترتيب

دون الفاصلة:

- يقعق، يغمز.
- الفتن، الضلال، الغي.
- أعد، أهم، أخلق.

8) التوازن بالاتفاق في ترتيب الوحدات فقط:

- سفكت دمه، أهيت ماله، هدمت منزله.
- نثر كناته، عجم عيادها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً.

ونخلص في النهاية، إلى أن الجمع بين التوازن والتكرير المضمني يعد المنطقة المركزية التي تتفاعل فيها البنية والدلالة، وتشغلان معاً في النص المخاجji العربي، وذلك قصداً إلى تثبيت التبرير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الخطيب.

وتجدر بالذكر، أن معظم خطب الجاهلية كان طابعها السجع المرصع، خاصة سبع الكهان، وخطب الوعظ والتأمل في الكون والفناء. ومن أجمل ذلك

كانت خطبهم تتنفس في فضاء ديني تبني، وذلك أن الارتباط بين الدين والكهانة وبين الصناعة الصوتية، كان مطلبا ضروريا لتحقيق الوظيفة الإقناعية، ذلك أن توقيع الكلام، وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه، وهذا ملحوظ في الحكم والأمثال التي ينظر أن تكون خالية من السجع والوزن.

ولعل هذا الذي دفع إحسان النص إلى القول بأن: "السجع في الخطاب الدينية أكثر شيوعا بوجه عام، منه في الخطاب السياسية"⁽¹⁾، لما للأسلوب القرآني من تأثير على النفوس، وكذا قلة حظ الخطيب الدينية من طرافة الأفكار وجدّها، مقارنة بالخطاب السياسية؛ لذلك كان لا بدّ من اللجوء إلى الزخرف اللغطي للتغويض عن الفقر في الناحية الفكرية، لأن السجع يساعد كذلك على التذكر؛ هذه الوظيفة التي كان خطباء السلف على وعي بها⁽²⁾.

ولقد سئل الفضل بين عيسى الرقاشي، وهو من أسرة فارسية من القصاصين، عن إثارة للسجع الموزون، فأجاب: "إن كلامي لو كتبت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكنني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقليد، وقلة التفلت"⁽³⁾.

ومن هنا يتجلّى، أن خطباء السلف كانوا على وعي بالوظيفة الإقناعية للصنعة الصوتية، وإن كان خطباء بني أمية يزاوجون بين الصنعة الصوتية وغيرها

(1) - الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 222.

(2) - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 116.

(3) - البيان والتبيّن، ج1، ص: 287.

من المقومات الأخرى، مما يجعل إيقاعهم قائما على التوازن تراوح بين الأزدواج والسجع مع تفاوت بين الفواصل أحياناً، والتخلّي عن قوافي حيناً أخرى، كما سبق وأن رأينا في أصناف التوازن.

وبعد تحليلنا لتلك الأصناف، لاحظنا أن الحجاج ينصرف من حين إلى آخر إلى الفكرة موضوع الخطاب ليسترسل معها دون الاهتمام بالموازنة بين الفواصل، ولعل هذا هو المنحى الغالب في معظم منتخباته وكذلك في خطب أبي حمزة وزياد بن أبيه وغيرهم من أعلام الخطابة السياسية⁽¹⁾.

وعلى الرغم من اعتناء هؤلاء الخطباء بالإيقاع العام للخطب ظلوا حريصين على تبليغ الرسالة، والتسلسل الطبيعي للمعاني والصور، ولذلك فإن خطبهم تسير في فقرات معنوية ازدواجية أو سجعية يتلو بعضها بعض، حيث تقدم كل واحدة منها مقدمة يلتقط فيها الخطيب خيط المعنى، ثم يحوّله حياكة جديدة في فواصل جديدة، فت تكون أزواج متوازنة توازناً مقارناً، بالنسبة لعنصر مشترك تعود إليه، على نحو قول الحجاج:

1- "أيا أهل الكوفة أما والله، إني لأحمل الشر بحمله، وأخذوه بنعله، وأجزيه بعله".

2- "وإني والله لأرى أبصارا طامحة، وأعناقا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحنا قطافها، وإنني لصاحبها".

فهاتان الفقرتان تشتملان على ممهد مشترك هو: "يا أهل الكوفة، أما والله إني". أم الفقرة الثانية، فلها ممهد داخلي خاص بها:

(1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 118.

"لأرى" الذي أصبح مضمراً في القرينة التالية: "رؤوساً".

ويقوم الازدواج في هذه الفقرات على الموازاة بين التركيب النحوية المتعادلة، مع مرؤنة تتجلى في تعويض الظاهر بالضمير، وتغيير التركيب داخل الفقرة الواحدة أو الزيادة في عناصره، وذلك شأن الفاصلة: "ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها" التي يجوز شقها إلى فاصلتين: "رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها". حيث تتجاوز الأولى ازدواجاً مع "لأرى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة" والثانية مع "وإني لصاحبها" وبعد هاتين الفقرتين يتحرر الخطيب من الموازنات الصوتية لصالح عنصر بنائي من مستوى آخر هو عنصر الصورة⁽¹⁾.

3- "وأكني أنظر إلى الدماء بين العمائم وبين اللحى تترقرق".

ثم ينبع الحجاج قافية أنسجاعه من فقرة إلى أخرى كما لا يتزدّد في تنوعها حتى داخل الفقرة الواحدة إذا اقتضى الأمر كما في المثال⁽²⁾. ولا يكتفي الحجاج بالتغيير في الفواصل، بل وحتى في النموذج التركيبي ويندر أن تكون الموازنة أقوى مما سبق؛ أي أن يقع فيها ترصيع وموازاة تامة بين الفواصل: "سفكت دمه، أهبت ماله، هدمت منزله" وهذا هو الازدواج المتوازن عند "ليفين" حيث تتقابل المقولات النحوية بين القرائن.

وببناء على ما سبق، يمكن رصد ظواهر التقابل في خطبة الولاية على

النحو الآتي:

(1) - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 119.

4- "إني والله يا أهل العراق.

- (معدن الشقاق والنفاق).

- (مساوئ الأخلاق).

هذا التقابل الذي يكشف على أن هناك مؤالفة في القوافي، ومخالفة في البناء النحوي للقراءن، ومع أدلة النفي بعده، يغير الخطيب مسار المعنى والتركيب الذي لم يحتفظ منه إلا بالبناء للمجهول في قوله:

5- "ما يقع لي بالشنان، ولا يغمز جاني كتغماز التين".

على أن الملاحظ في هذا القول، أن سناد الرّدف (شنان/تين) قد قلل من تماثل القافية، وذلك تمهيداً للتخلص منها، والمرور إلى الفقرة الموالية:

6- "ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة".

7- ليتلوا هذه العبارة "تمهيد" طويلاً مرسل، متحرر من جميع الشروط الموزونة الصوتية: " وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كناته بين يديه، فعجم عيادتها،...". لتأتي الفقرات اللاحقة موزعة بين الا زدواج والسجع والاسترسال، الأمر الذي يسرّ تضمين الآية القرآنية فإنكم لـ﴿كأهل قرية كانت آمنة،...﴾ ويستّر أيضاً حكاية ما أمره به أمير المؤمنين: " وإن أمير المؤمنين، أمرني...".

8- ومن عناصر دعم الإيقاع في هذه الخطبة كون حوالي ثلثها من الرجز، والرجز -كما هو معروف- قريب من السجع، أو هو سجع مطرد (الوزن⁽¹⁾).

(1)- في بлагة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 121.

9- ويضاف إلى كل ما سبق ما لعبه الجناس الناقص في تناغم بعض الفوائل كتكرار صوت (ق) و(ش) و(ن) في قوله: "يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الخلاق، ما يقعع لي بالشنان".

٧-٣- بنية التوازي:

إذا كان التوازي بمفهومه الاصطلاحي عند (هاليداي) بنية تركيبية، أثرية في خطاب الحجاج العربي؛ ومن ثم فهو بنية استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهه النظر، فإنه في البلاغة العربية القديمة يعدّ قسماً من أقسام السجع كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ حيث إنه ينطوي على اتفاق في جميع أوصاف الوحدات إيقاعاً، وفي عدد الحروف، وفي الحرف الأخير.

أ- المتوازي في خطبة الولاية:

- حمله، نعله.

- العراق، الشقاق، النفاق.

- فررت، فتشت.

- لأحوّلكم، لأقرعّلكم، لأعصبّلكم، لأضربّلكم.

- وفريت، أمضيت، فرّيت.

- الزرافات، الجماعات.

- أنهيت، هدمت.

وبحذير بالذكر، مرّة أخرى أن التوازن مختص بوزن المركبات اللغوية، وثقلها، وحجمها، بينما يختص التوازي بتحديد زمن انتهاء الجملة أو بتدعم

ذلك باتفاق الحروف الأخيرة فيما بينها، مما يضفي خصوصية الجمالية على الجمل المستعملة، خاصة وأن الثقافة البلاغية القديمة تقوم على التشابه، وتسعى إلى تحقيقه في جميع أنواعها وأقسامها تحقيقاً كاملاً؛ وبطبيعة الحال، فإن النفس تهتز وتضرب لكل جميل.

ويتجلى التوازن بشكل أعمق في الإلقاء، لكونه يساعد على الاحتفاظ بوجوده من خلال تخييب النص الشفاهي خطر الضياع والنسيان، ولا شك في أن عامل التكرير هو أكثر العوامل الشفاهية تحسيناً للتوازي.

ويعتقد "هوبكنس" أن التوازي ليس مقصوراً على الجانب الخرافي فقط، وإنما يتسع ليلامس الدلالة، وهو لهذا قسم التوازي إلى قسمين: توازي المشابهة، وتوازي المخالفة، لينتهي إلى أن التوازي الموسوم هو الذي يتعلق ببنية البيت بالإيقاع (تكرار متواالية معينة من المقاطع) وبالوزن (تكرار متواالية إيقاعية معينة بالجناس والسجع وبالقافية)، ليصل إلى أن هذا النوع من التوازي الشديد الوسم في البنية يكون إما ناتجاً عن تحسين وإما ناتجاً عن تأكيد، حيث تنتهي الاستعارة والتشبيه والتمثيل... إلى نوع التوازي الموسوم حيث يمكن الآثر في تشابه الأشياء، بينما ينتمي الطيّاق والتباين إلى التوازي غير الموسوم الذي نلتمس فيه الآثر من المغايرة⁽¹⁾.

ومن هنا فإن الدور الذي يلعبه التوازي في التراث يكشف عن إمكانات متقدمة باستمرار وغير متوقعة في الخصائص البنوية للتوازي.

(1)- قضايا شعرية، رومان جاكوبسون، ص: 47-48.

بـ- البنية الصوتية:

إن أي عملية إلقاء أدائية لا تتحقق إلا على مستوىين؛ المستوى الصوتي للغة، والمستوى الدلالي؛ فالمستوى الصوتي يشكل البنية الأساسية التي تحدد للمستوى الدلالي طريقه إلى الأذن، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقع المستويان على نفس القدر من التعادل والمساواة، لأن ذلك سيتحقق للغة توازيها الذي تتصف به اللغة التثوية (الخطابة)، بينما تصبح اللغة الشعرية أميل إلى الصوت بكل مكوناته اللسانية وغير اللسانية.

ومن هنا فإنه إذا كان المستوى الصوتي يميز بين اللغة التثوية وبين اللغة الشعرية؛ فإن المستوى الدلالي لا يمكنه ذلك، لأنه كثيراً ما تتميز به اللغة التواصلية الهدافة إلى إيصال الفكرة.

وهكذا فإن التكرار على مستوى التخاطب أو الحوار يخلق جواً تناغمياً بين "الأنا" و"الآخر"، وليس ذلك فحسب، وإنما يتحقق التناغم كذلك من تبادل الوحدات المعجمية مع صيغها بأصوات التخاطب المتمثلة في "كم" التي تتكرر بشكل كبير في معظم خطبة الولاية، وكذلك ضمير "تم" وذلك في قوله: (رمأكم، لأنكم، أوضعتم، اضطجعتم، سنتكم، أخونكم، أقرعنكم، أعصبنكم، أضربنكم، فإنكم، أنتم، منكم، اعطائكم، أو جهوكم، عدوكم).

إن هذا الاستبدال الموقعي يتسع داخل توازي الحوار المتمثل في التهديد والوعيد، فالحجاج يعطي الجواب ويوضح ثم يهدد ويتوعّد "إن أمير المؤمنين، نشر كناته، فعجم عيدها،...، فرمأكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة،... السنن، الغي".

* **توازي الواقع:** يتحقق استبدال الواقع بجانساً وانسجاماً وجرساً موسيقياً؛ وإلى جانب هذه الدلالة البنوية الجمالية، ينطوي استبدال الواقع كذلك على دلالة معنوية ومن البذائل التي تحمل استعدادات للتماثيل في خطبة الولاية ما يلي:

- "يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق".

فموقع التماثيل هنا متركزة - كما هو ملاحظ - على الفونيمات التي تحمل استعدادات نحو التبدل وفق هذه الوحدات المعجمية، وذلك لإحداث التوازي المبني على الاختلاف الفونيقي، وهو ما تجلى في كل من (العراق، الشقاق، النفاق)، فموقع "الراء والكاف والفاء" هي متماثلة كونها مجهرة، وكذلك صوت العين (ع) في كلمة العراق فهو صوت مجهر، وحركة الصوت المجهر، تقرع الأذن بشدة، وتوقظ الأعصاب بصخبتها، وبذلك يكون له بعد الإثارة المجهرية⁽¹⁾.

ولقد ذكرنا، أن الأصوات المهموسة تتصرف بالرهافة والهمس، وهما صفتان تبعثان على التأمل والتقصي العميق لجوانية اللغة، وفي حالة طغيان أصوات الهمس يزداد تأثير الصوت على حاسة البصر، بينما تصلح الأصوات المجهرة لرفع الصوت، ومن هنا يتم التعامل مع الأصوات المهموسة عن طريق القراءة، وعلى هذا الأساس، ييدوا أن توازي النص قائم على الأصوات المهموسة، أما توازي الخطاب فهو قائم على الأصوات المجهرة.

1) - الألسنية العربية، ريمون طحان، ص: 51.

ولقد تميز الحجاج بجهازه الصوت، بناء على ما جاء في كتاب العقد الفريد: "يقال: إن الحجاج كان إذا استغرب ضحكا والى بين الاستغفار، وكان إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه، ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع، ثم يتزيد في الكلام، فيخرج يده من مطرفه، ثم يزجر الزجرة، فيقرع بها أقصى من في المسجد"⁽¹⁾. فالذى نستشفه من هذا القول، هو أن الحجاج في خطبه، كان يبدأ بصوت خافت يتدرج منه إلى رفع الصوت؛ كما نلاحظ أن معظم خطبه كانت تلقى في المسجد، وربما يرجع سبب ذلك إلى أن الخطابة السياسية كانت في أول أمرها أميل إلى الخطابة الدينية، وذلك لطبيعة الدعوة الإسلامية.

* **توازى الصوت:** ينشأ توازى الصوت بناء على تكراره المتدايق في سياق الخطاب وهو التكرار الذي يضفي على الصوت رمزية معنية تشير إلى دلالة خاصة، فالنص مهما كان ليس في الواقع - سوى ركاماً وتكرار لنواة معنوية موجودة من قبل؛ وبفضل ذلك التراكم يصبح لرمزية الصوت مكاناً تتجسد فيه المعانى والدلالات، هذا التراكم الذي يراه محمد مفتاح أحد مؤشرات التأويل للرمزية الصوتية إلى جانب السياق الملائم⁽²⁾ ومن ذلك قول الحجاج:

- وإن لأرى الدماء بين العمائم واللحى تتررقق: فتماثل (القفاف والراء) في الكلمة (تتررقق) يحمل دلالتين؛ الأولى صوت الدماء التي تتدايق

(1)- العقد الفريد، ج 5، ص: 31.

(2)- تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 36.

كالسيول، والثانية أن تماثل (القاف والراء) يوحى بصوت سيف الحجاج، ذلك المهنـد البـار الذي لا يتـوانـى صـاحـيـه لـحظـة إـذـا مـا عـصـيـه لـهـ شـخـصـ ماـ أمرـاـ. وبالإضافة إلى ما سبق فإن تكرار صوت (القاف والراء والعين) في كلمتين (الشقـاقـ والعـرـاقـ) يـوحـي بـصـوـتـ السـيـوـفـ المتـضـارـبةـ، والأـمـرـ نـفـسـهـ فيـ كـلـمـتيـ (أـلـقـرـعـنـكـمـ قـرـعـ)، وـكـذـلـكـ (أـعـصـبـنـكـمـ عـصـبـ، وأـضـرـبـنـكـمـ ضـربـ)ـ التيـ توـحـيـ بـالـمنـازـعـةـ وـالـخـصـامـ، وـالـعـقـابـ.

وانطلاقاً من تكرار الصوت، ومن عامل التماثل تنشأ لحظة تواز لسانية، وظيفتها أنها تزيد من درجة انتباـهـ المستـقـبـلـ إلىـ تـبـعـ الخطـابـ.

* النبر يرتبط النبر بالدلالة الإضافية التي يتم اكتسابها من خلال التشديد، إما للدلالة على التأكيد أو للدلالة على الانفعال ومن بين وظائف النبر الوظيفة الإدغامية، وذلك أن النبرة تساهم في إظهار القيمة التعبيرية لبعض أجزاء القول التي تلحق بها، ويرتبط النبر - غالباً - بالمدة، لأنـهـ منـ خـلاـلـهاـ يـتـمـعـ الكلـامـ بإيقـاعـ حـافـلـ بـالـامـتدـادـاتـ الصـوتـيـةـ كـقـوـلـ الحـجاجـ:ـ (ـلـأـحـونـكـمـ،ـ لـأـعـصـبـنـكـمـ،ـ لـأـضـرـبـنـكـمـ،ـ لـأـقـرـعـنـكـمـ)ـ التيـ تـدلـ عـلـىـ تـأـكـيدـ العـزـمـ؛ـ كـمـاـ تـدلـ عـلـىـ انـفـعـالـ الحـجاجـ منـ جـحـودـ أـهـلـ العـرـاقـ.

ولقد سجّلنا بأن إيقـاعـ الكلـامـ يستحقـ إـدـراكـ المقـاطـعـ المسـجـلـةـ موضوعـياـ منـ خـلاـلـ الشـدـةـ،ـ أوـ المـدـةـ،ـ أوـ الـارـتفـاعـ.ـ وـمـنـ هـنـاـ،ـ فـإـنـ النـبـرـ ماـ هوـ إـلـاـ استـخدـامـ إـشـارـةـ لـتـمـثـيلـ قـوـةـ أـكـبـرـ،ـ وـلـذـلـكـ يـعـودـ توـازـيـهـ إـلـىـ سـيـطـرـةـ أحدـ أنـوـاعـهـ التـلـاثـةـ (ـالـنـبـرـ الضـعـيفـ،ـ الـمـتوـسـطـ،ـ الـقـويـ)،ـ مـاـ يـشـكـلـ سـيـاقـاتـ تـغـيـيمـيـةـ معـيـنةـ كـقـوـلـهـ:ـ (ـلـتـسـتـقـيمـنـ،ـ أـوـ لـأـدـعـنـ).ـ

* **التنفيذ**: لقد أنف الذكر أن التنعيم هو الإطار الصوتي الذي تتحقق به الجملة في السياق، والجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنعيمية هي هيكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة، فما تأتي به الجملة الإستههامية وجملة العرض ليس هو نفسه ما تأتي به جملة الإثبات، ولا الجملة المؤكدة، وذلك لأن لكل جملة منها صيغة تنعيمية خاصة.

وللتنتعيم وظيفة دلالية، فهو كخاصية أدائية يمنع الكلام معناه الحقيقي، لأنه يحفظ للكلام الملقى شحنته وكثافته، ولكنه لا يخضع للتقطيع، لذلك فإن تواليه صعب تحديده، ولكنّ شعريته تسمح للكلام الموزون ذي النغم الموسيقي بأن يثير فينا انتباها عجيبة، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع.

ولقد سمح لنا تحليل خطبة الولاية، بأن نكتشف أن معظم الجمل المستعملة في متن هذه الخطبة، هي إما جمل مثبتة أو جمل مؤكدة؛ وإن كنا نعثر على استفهام واحد، ذلك الوارد بقوله: "...وفيم أنتم وذاك؟"؛ والذي نعتقد أنه استفهام استكاري؛ لأن الحجاج لا يريد جواباً، وإنما هو مستنكر لاهتمام أهل العراق بهمّ الأمور، وإهمال عظيمها.

ففي قول الحجاج: "يا أهل العراق، ومعدن الشقاوة والنفاق ومساوي الأخلاق، ما يقع في بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين" نلمس إيقاعاً أو تنعيمياً إيقاعياً؛ أما قوله: "لا أعد إلا وفيت، ولا أهتم إلا مضيت، ولا أخلق إلا فرّيت" فإنه يتضمن جملة مؤكدة، ولكن فيها من التنعيم، والإيقاع الموسيقي كل ما يجلب انتباها أهل العراق، ويدركهم مرّة أخرى، بما يتتظرون إن هم تختلفوا عن

الحرب. ولعل الذي زاد من شحنة المعنة وكثفه لدى المتلقى هو استعمال الحجاج لصيغة (لا، وإلا) وكذلك لكلمة (وعد) التي تستوجب الوفاء، (أهمُّ) التي تتوجب التنفيذ، و(أخلق) التي تستدعي القدرة.

* **الوقف:** واضح جداً أن الحجاج كان يدرك قوانين لغته، ودليلنا على ذلك، هو انتقاله من المنظوم إلى المنشور، ومن المنشور إلى المنظوم، في ترتيب منطقي، ولا نعتقد أبداً أنه لم يقف في كلامه، ولم يلتفت إلى مقاطع ما كان يقوله. وجود مقاطع تنぎمية في خطاب الحجاج يوحي بذلك بأنه كان يتفقد مقاطع كلامه، وذلك أن الجمل المؤكدة، أو الاستفاهية، أو المنفية (لا يغمز، لا يقعق) تنتهي بالضرورة إلى الوقف.

وهكذا فإن إبطاق الوقافية الصوتية مع الوقفة الدلالية يؤدي إلى فهم معنى الخطاب، ثم إن الوقفة الصوتية إذا ما تم لها أن تفاعلت مع باقي العناصر المكونة للخطاب من وزن، وتنغيم، فإنها تضفي شعرية معينة على المنطوق.

* **الوقفية البيضاء:** أو كما يصطلح عليها وقفه البياض، وهي وقفه بصرية تؤدي إلى وقفه سمعية، مما يعلن عن تفاعل الصمت مع الكلام، ولتفاعل البصري مع السمعي فعله في إحداث التأثير المرغوب فيه.

كما فعل الحجاج؛ عندما صعد المنبر، ومكث ساعة صامتاً لا يكلم أحداً، الأمر الذي استغرب له الجمهور، وكان لهذا السلوك أثره، حيث جلب انتباه الجميع إليه، فالصمت صوت خاص، غايته التأثير فنياً في المستمعين المشاهدين؛ ومن أجل ذلك فهو يمنحك إيقاعاً خاصاً، وتثيراً مرغوباً.

* الإيقاع: هو موسيقى ناتجة عن وسائل متعددة أهمها التكرار؛ تكرار كلمات معينة أو متشابهة، أو حروف معينة محددة المخرج، أو متقاربة، أو ذات صفات جرسية واحدة، وهذا النوع هو الموسيقى الداخلية، وقد يكون الإيقاع من وسائل غير صوتية، وهي عبارة عن أفكار تتفاعل عن طريق التضاد أو التشابه أو التوازي، أو غير ذلك من علاقات الازدواجية. والجدول يوضح تكراراً الكلمات المتشدة الوزن وعدد الحروف:

العدد	الحروف	3	4	5	6	7	8
ـ شر	-	-	-	- بحمله	- أبصارا	-	- ألونكم
ـ عجم	-	-	-	- بنعله	- أعناقا	-	- أقرعنكم
ـ وجد	-	-	-	-	- العراق	-	- أعصبنكم
ـ زمى	-	-	-	-	- الشناق	-	- أضربنكم
ـ لحو	-	-	-	-	- النفاق	-	
ـ قرع	-	-	-	-	-	-	
ـ عصب	-	-	-	-	-	-	
ـ ضرب	-	-	-	-	-	-	

ولقد سبقت الإشارة، إلى أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان باللغم، بينما تقوم صناعة العروض (الوزن) بتقسيم الزمان بالحروف المسموعة، ويساهم الإيقاع بمحفل أنواعه وخصوصياته في بناء نص مكتمل يتوفّر على الجناسات والنبر والمد والوقف كذلك، وهو ذلك الكل المجرد الذي يتساوى فيه جميع العوامل التنغيمية والنفسية والدلالية وسواها.

الفصل الثالث : الخطاب الإقناعي في منتخبات من خطب الحجاج

ومن منظور أرسطو، فإن الإيقاع دوراً أساساً في التعبير الخطابي، يهتز الأذن، ويحرك النفس، وإن كان قد حظر -سلفاً- الخطيب من استعمال التكلف والتضليل؛ ونصح بأن تكون الجمل ذات أجزاء لا طولية ولا قصيرة، حيث يسهل النطق بها في نفس واحد؛ لأنها لو كانت طولية ملأها السامع وتختلف عن متابعتها، وإذا جاءت قصيرة فاجأته، فجعلته يضيق بها كأنما ت عشر فكره⁽¹⁾.

وفي علاقة الخطابة بالشعر؛ يرى أرسطو أن الخطابة ذات بعد أدبي طالما أنها ترمي إلى إقناع المخاطب (أو المخاطبين) من خلال هزّ مشاعره، وإثارته أو جرّه إلى اتخاذ موقف متعاطع مع قضية الخطيب⁽²⁾.

وحتى لا يفقد كلام الخطيب الكثير من قيمته الإبلاغية، ومن قدراته على إثارة الانفعالات، والنقر على الأوتار الحساسة، ينبغي ألا يسف أسلوبه وينحدر إلى مستوى المخاطب (الجمهور)، كما يجب عليه ألا يخلق ويسمو كثيراً حتى لا تصبح الهوة عريضة بينه وبين جمهوره.

ولهذا يعتقد سمير أبو حمدان؛ أنه إذا أمكن اعتبار الخطيب مثله مثل الشاعر، عليه ألا يفوه إلا بما يكون أهلاً للاعتقاد به، فإن ثمة مهمة ملقاة على كاهله، وهي التمييز بين الممكн وغير الممكن، والهدف من وراء ذلك كله، هو

1)- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة ، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973، ص: 99.

2)- الإبلاغية في البلاغة العربية، سمير أبو حمدان، ص: 111.

إيقاع المخاطب بقضية ما، ولن يتحصل له مثل هذا، ما لم يشحن عباراته بالإيقاع، وليس بالوزن الشعري⁽¹⁾.

يستنتج من هذا أن الإيقاع بعد أساس ولا غنى عنه في التعبير الخطابي إن شرعاً أو ثرياً؛ وذلك أن كلاً منها يسعى إلى تصوير المشهد أمام العيون. "فحن لا ننعم بلذة الإيقاع في السمع والفهم، إنما ننعم به كما لو أننا حققنا نجاحاً باهراً في التطابق والتلاؤم السارين ما بين الأنغام والمعنى، إن الإيقاع لا ينحصر في الكلام؛ إنه يلائم بين الكلمة والمعنى"⁽²⁾.

وبناء على هذا، فإن الإيقاع ينطوي على قيمة تواصيلية إقناعية، لأنّه يشحن معه مجموعة من الأحساس والانفعالات التي ترطم في الداخلي من الكائن المفرد. بوساطة اللغة التي هي مادة كل مبدع (شاعراً أو خطيباً)، وذلك أنها تمثل أبنية صوتية تشبه من حيث الدلالة المعنوية والمغزى أصواتاً موسيقية⁽³⁾. وهي في الوقت نفسه -أي اللغة- المادة التي يجسد فيها الخطيب انفعالاته وأحساسه، وإيقاع نفسه، معبراً عن سخطه وغضبه كما فعل الحجاج بن يوسف، أو عن فرجه وحزنه، أو عن نصحه وإرشاده، ...

والنتيجة، أن الإيقاع يصيب مرئياً تواصلياً مؤثراً في حالتين؛ الحالة الأولى تخص المبدع الذي يعبر عن حركة نفسه، والحالة الثانية، هي أن الإيقاع

(1) - الإبلاغية في البلاغة العربية، سمير أبو حمدان، ص: 111.

(2) - الشعري، ميكيل دورفرين، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، ترجمة: نعيم علوية، ع 10، شباط، 1981، ص: 47.

(3) - الإبلاغية في البلاغة العربية، ص: 67.

يسهل مرور الشحنات والإيحاءات النفسية إلى الملتقي؛ وذلك ما جرس اللفظة، ووقع تأليف أصوات حروفها وحركتها على الأذن، من وظيفة هامة في إثارة الانفعال المناسب؛ وجلب الانتباه إلى ما سيلتفظ به الخطيب.

وخلالصة ما نود الوصول إليه، أن الخطيب الذي يريد الاحتجاج لقضية ما، أو يريد مقارعة الأبطال، لابد له من البيان التام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة، والبيان كما جاء على لسان الجاحظ يحتاج إلى تميز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكامل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلابة كحاجته إلى الجلالة والفحامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتنتهي إليه الأعناق، وترتین به المعانٍ⁽¹⁾ ولا نحسب الحجاج بن يوسف الشفقي لم يكن بينا.

ومن هنا فلا أحد يختلف مع الآخر في أن التعبير عماده الجمل، والجمل بدورها عمادها المعنى، أما مناسبات الكلام أو مواقفه ومقاماته، فإنها تبقى من اختصاص المتكلم ونوعية أسلوبه، وتنطلق الأسلوبية اللغوية من الأسلوب باعتباره من وجهة نظر البعض قائما على استخدام الموارد الإبلاغية للغة لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الفعالية⁽²⁾. وسبب ذلك التداخل الموجود بين المكتوب والمنطوق، أنه لا يمكن "إهمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تتدخل سواء

(1) - البيان والتبيين، ج 1/16.

(2) - الإبلاغية فرع من فروع الألسنية، عفيف دمشقية، مجلة الفكر المعاصر، العدد المزدوج 9/8، معهد الإمام العربي، بيروت، مارس، 1979، ص: 14.

في إيصال المحتويات والدلالات، أو في تحقيق التأثير، وهذه الظواهر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة، وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاع العبارة، ونبراتها، والاستعارة والاشتقاقات، وبباقي الطاقات الإبلاغية والتعبيرية التي تلعب أدواراً متناقضة بالنسبة لوضع الحجة، أو بالأحرى تبني الحجج داخل تناصية معينة⁽¹⁾.

٧-٤- وظيفة الصور البيانية:

تعتبر الاستعارة، بمعناها الواسع عند أرسطو؛ عنصر إغراب تحدث الهيبة والعجب، "وما يحدث العجب يحدث اللذة"⁽²⁾ والنشر البسيط (غير الموزون) يستعمل هذه الوسائل في حدود، في حين تكون "الواقع والأشخاص، أشدّ بعدها وغرابة في الشعر"⁽³⁾ ولكن الخطابة قائمة على مبدأ أساس يكبح جماح الغرير الاستعاري، وهو مبدأ الوضوح والوصول إلى أذهان المستمعين بدون حواجز⁽⁴⁾. جاء في البيان والتبيين: "ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ"⁽⁵⁾ وكما اشترط البلاغيون والنقاد العرب الوضوح في الخطابة اشترطوه كذلك في الشعر، وهو لذلك اختلفوا حول المبالغة والغلو والإغراء والإحالة، ولتحقيق مطلب الوضوح

1) عالم الفكر، ع 30، 1، ص: 107.

2) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط 2، ص 102.

3) الخطابة، أرسطو، الترجمة: العربية القديمة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979، ص: 186.

4) بلاغة الخطاب الإقناعي، ط 2، ص: 102.

5) البيان والتبيين، ج 1، 255.

اشترطوا لفصاحة الكلام الخلوّ من التعقيد والغرير والخوسي، وكل ما ينافي الطبع، ويعوق اقتناع المستمع بصدق الخطيب⁽¹⁾.

وهكذا، ينبغي للخطيب أن يكون في جميع ألفاظه جاريا على سجيته، غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، لأن التكلف إذا ظهر في الكلام هجّنه، وقبّح موقعه⁽²⁾.

ويجد المطلع على معظم خطب الحجاج مجموعة من التشبيهات والاستعارات والكنايات استجابة لمتطلبات العصر الأموي، ويعد الحجاج من طائفة الخطباء الفحول الذين اهتموا بالتصوير وإبراز مقدارهم الفاقعة في استعماله بالإضافة إلى عمرو بن سعيد الأشدق، وعتبة بن أبي سفيان، ولن يستثنى الصورة عند هؤلاء عنصرا مساعدا لأفكار وحجج قائمة بذاتها على الدوام، بل كثيرة ما كانت الصورة هي المادة والشكل، هي الموضوع واللحجة⁽³⁾. كما هو جلي في خطبة الحجاج بعد قتل ابن الزبير⁽⁴⁾:

"موج ليل التطم، وانحلّى بضوئه صبحه، يا أهل الحجاز كيف رأيتمني؟ ألم أكشف ظلمة الجور، وطخية الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة مشقق، وعطفة رحم، ووصل قرابة. فإياكم أن تنزلوا عن سنن أقمنا لكم عليها. فاقطعوا عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، فأقيم من أود لكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار. ثم نزل وهو يقول:

1) - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 102.

2) - البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 92.

3) - جمهرة خطب العرب، ج2/287.

4) - المرجع نفسه، ص: 280.

أَخْوُ الْحَرْبِ إِنْ عَضَتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضًّا
وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرًا
فَمَا يَلَاحِظُ فِي هَذِهِ الْخُطُبَةِ أَهْمَّاً تَقْوَمُ عَلَى الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ حَالَتَيْنِ؛ بَيْنَ حَالَةِ
اللَّيلِ وَالظُّلَامِ وَالبَاطِلِ مِنْ جَهَّةِ، وَحَالَةِ الصَّبَحِ وَالضَّوءِ وَنُورِ الْحَقِّ مِنْ جَهَّةِ
ثَانِيَةٍ؛ وَهَذَا دُونَ أَنْ يَقُدِّمَ الْخَطِيبُ حَجَّةً عَلَى صَحَّةِ مَا يَقُولُ، وَذَلِكَ بِخَلَافِ
حَدِيثِهِ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي اضْطَرَّ فِيهَا إِلَى اسْتِعْمَالِ الْمُثَلِّ التَّارِيْخِيِّ لِيُبَرِّرَ مَوْقِفَهُ مِنْ قَتْلِ
ابْنِ الزَّبِيرِ دَاخِلَّ الْكَعْبَةِ.

وَلَا شَكَّ، فِي أَنْ يَكُونَ الْحَجَاجُ قدْ اسْتَفَادَ فِي بَنَاءِ خُطْبَتِهِ هَذِهِ مِنْ صُورِ
تَرْدُدِ ذَاكِرَتِهِ، وَيَجْبَسُهَا خِيَالَهُ عَلَى الْوَاقِعِ الْجَدِيدِ، مَصْدِرُهَا الشِّعْرُ الْقَدِيمُ
وَالنُّصُوصُ إِلَيْهِ؟ فَحَدِيثُهُ عَنِ الْإِخْرَاجِ مِنِ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ يَنْظُرُ إِلَى مَنْتَهِ
الْإِسْلَامِ الْمُتَرَدِّدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِاعتِبَارِهِ مِنْقَدًا لِلْعَرَبِ مِنْ جَاهِلِيَّتِهِمْ.

وَلَعِلَّ الْحَجَاجَ كَانَ يَحْسَسُ بِنَشْوَةِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ يَفْتَحُ مَكَّةَ، وَلَعِلَّهُ تَذَكَّرُ فَتْحُ
الرَّسُولِ ﷺ لَهَا، وَرَبِّما تَذَكَّرُ أَيْضًا عَفْوُ الرَّسُولِ، فَوْطَئِ الْقَوْمَ "وَطَأَةُ مَشْفَقٍ"
وَيَتَضَعُّ هَذَا الشَّعُورُ بِالْفَتْحِ فِي حَدِيثِهِ عَنِ "الْسَّنْنَ" الَّذِي أَقَامُهُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ فِي
ذَكْرِهِ النَّارِ عِقَابًا لِمَنْ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ، وَلَعِلَّهُ فِي غُمَرَةِ نَشْوَةِ الْإِنْتِصَارِ حَاوَلَ أَنْ
يَجْرِيَ مُسْتَمْعِيَّهُ إِلَى هَذَا الْجَوْلِ يَوْمَهُمْ بِالذَّنْبِ، وَهُوَ يَتَحَوَّلُ مِنْ حَبَارٍ مُجْتَرَىٰ عَلَى
الْحَرَمِ إِلَى فَاتِحٍ هَادِيٍّ يَخْرُجُ مِنِ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيَقِيمُ النَّاسَ عَلَى السَّنَةِ⁽¹⁾.

وَمِنْ هَنَا، قَدْ تَكُونُ الصُّورَةُ مَرْكَبَةً كَثِيفَةً تَوازِي وَاقِعًا لَا يَصْرَحُ بِهِ؛ إِمَّا
لِكُونِهِ مَعْرُوفًا مَسْتَهْلِكًا، أَوْ لِلرَّغْبَةِ فِي إِخْرَاجِهِ مُخْرِجاً مُخْتَلِفًا، وَذَلِكَ لِكُونِ
الصُّورَةِ تَقْوَمُ مَقَامَ الْحِجَّةِ وَتَعُوْضُهَا تَبَعًا لِحَالِ الْمُخَاطِبِ، وَالتَّصْوِيرُ فِي الْخُطْبَةِ

(1) - فِي بِلَاغَةِ الْخُطَابِ الإِقْنَاعِيِّ، طِ2، صِ: 106.

الوصفية السياسية ذات الطابع الحماسي أوفر وأبدع منه في الخطابة التعليمية والمناظرات التي تعتمد في الغالب على مجرد توصيل الفكرة في عبارة شفافة مدرومة بحجّة في المناظرات، وبالمثال في الخطابة التعليمية، وبالمقابلات في الخطب الوعظية⁽¹⁾.

ويحرص كبار الخطباء على تقسيم المعاني في صور مجازية وفواصل متوازنة؛ إذا ما بدا لهم أنّ بناء الخطبة يقوم على المقابلات كما في خطبة الحجاج وهو يتهجد أهل العراق: "أيها الناس من أعياد داؤه فعندي دواؤه،...، ومن ثقل عليه رأسه وضفت عنه ثقله،...، إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً، فمن سقطت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صليبه ومن متسعاً العافية لم تضيق عنه الصلة،...، إن الحزم والعزم سلبياني سوطني، وأبدلاني به سيفي"⁽²⁾.

وكما تقدم التصوير في هذه الخطبة عنصر الإيقاع المنطقي، تقدم كذلك عنصر الإيقاع الذي صار إلى الدرجة الثانية متنازلاً عن السجع مكتفياً بالفموازنات الصوتية وهذا بخلاف حرص الحجاج على الموزانة بين الصورة والإيقاع في خطبة الولاية التي استهلها بيت شعري "أنا ابن جلا وطلائع الشيا...". تلك الخطبة التي حشد فيها مجموعة من التشایه والإستعارات والكنايات والأوصاف المشخصة.

أ- التشبيه: ويستحوذ على الفقرة التالية:

1- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 110.

2- جمهرة خطب العرب، ج2/292.

- "أَمَا وَاللَّهُ لَا تُحِنُّكُمْ لَهُ الْعَصَا، وَلَا قُرْبَانَكُمْ قَرَعَ الْمَرْوَة،
وَلَا عَصِبَّنَكُمْ عَصْبَ السَّلْمَة، وَلَا ضَرَبَ بَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ
الْإِبَل، فَإِنَّكُمْ لِكَاهْلِ الْقَرْيَةِ كَانَتْ آمِنَة...".
- وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: "لَا يَغْمِزْ جَانِبِي كَتْغَمَازُ التَّينِ".
- بـ- الاستعارة: وَتَتَمَثِّلُ فِيمَا يَلِي:
- "رَؤُوسًا قَدْ أَيْنَعَتْ، وَقَدْ حَانَ قَطَافُهَا".
- "مَعْدَنُ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ".
- "فَرَرَتْ عَنْ ذَكَاءِهِ".
- "نَثَرَ كَنَاثَتَهُ بَيْنَ يَدِيهِ، فَعَجَمَ عِيدَانُهَا، فَوُجِدَنِي أَمْرَهَا عَوْدًا
وَأَصْلَبَهَا مَكْسَرًا".
- "أَحْمَلَ الشَّرَ بِحَمْلِهِ، وَأَحْذَوَهُ بِنَعْلِهِ، وَأَجْزَيَهُ بِمَثْلِهِ".
- جـ- الكنية:
- "وَمَا يَقْعُقُ لِي بِالشَّنَانِ".
- دـ- الوصف المادي المباشر: وَهُوَ تَصْوِيرٌ مَرْعُوبٌ مَرْهُوبٌ فِي قَوْلِهِ:
- "إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعَمَائِمِ وَاللَّحْيَ تَرْقُرُقْ".
- هـ- الشواهد الشعرية: إِنَّ الشَّوَاهِدَ الشَّعُورِيَّةَ الَّتِي اخْتَارَهَا الْحَجَاجُ تَنَقَّلُنَا
إِلَى عَالَمِ الرَّحْلَةِ الشَّاقَةِ الْمُضْنِيَّةِ فِي الصَّحَراءِ، حِيثُ يَدْفَعُ السَّوَاقُ الْخَطْمَ (أَيِّ
الْحَجَاجِ) الْإِبَلَ (أَهْلِ الْعَرَاقِ) فِي مَحَالِلِ الصَّحَراءِ بِدُونِ رَحْمَةٍ، وَهِيَ أَلْيَاتٌ تَعْلَنُ
الْحَرْبَ عَلَى أَهْلِ الْعَرَاقِ، وَتَدْعُوهُمْ لِلتَّشْمِيرِ عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ.

٦- الوسائل غير اللغوية المصاحبة للخطاب:

١- مؤشرات الشخص:

- الحجاج: وضع العمامة على غير العادة.
- الزمان: عصر الخلافة الأمريكية.
- المكان: المنبر، المسجد، الكوفة.

٢- كيفيات القول:

- موقف التأكيد.
- موقف الإقناع.
- موقف التهديد والوعيد.

٣- مؤشرات الموقف:

- موقف الحجاج من أهل العراق (الحقد والنقم).
- موقف أهل العراق: الخروج عن الدين والتمرد على الحكام.

٤- حركة الجسد:

- يوجد أثر الحركة الجسدية بعمق في فهم دلالتها ووظائفها، لأنها حاضرة في التراث.

وفي تناوب هذا التراث مع التطورات والمتغيرات الحضارية، في مختلف المستويات والبيئات وخاصة البيئات الشعبية، إلا أنَّ الحركة لا بدَّ لها من سياق تكون دلالتها أعمق وأثراها أبلغ وخطابها أوضح كما في الحركة التي قام بها الحجاج قبل أن يلقى خطبته على جمهوره:

- دخوله المسجد "معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقللاً سيفاً، متنكباً قوساً، يوم المنبر، فقام الناس حوله حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم"⁽¹⁾.

وهذا السياق كما هو ملاحظ، تحدّد الملبوسات بألواهها وأشكالها وطريقة لبسها إضافة إلى طريقة الوقوف والجلوس والصعود، والأدوات المحمولة، وكل هذا يوحى بشاعرية تلك اللحظة، ويعث الحيرة والدهشة، كما يُثْرِي الرعشة الجسدية والقلبية.

ومن هنا فإن الحركة الجسدية، أداة تعبير تعمل على نقل الواقع من فضاء إلى فضاء آخر، في لحظة تختصر كثيراً من الكم الصوتي واللغوي، ولا تتجاوز حدود استخراج الصور من ذهن المتلقى، فالإشارة والحركة الجسدية وسيلة من الوسائل السريعة التي تسمح للمتلقى بالتجول لتفجير مكامن ذاكرته، إنما تمنحه إمكانات هائلة في الاستجابة السريعة للفهم وتدفعه لتشغيل الذاكرة بقوة الاستحضار الصوّر وتجاذب ححدود اللغة التي تستهلك الزمان الحاضر، ولا تمنع القدرة على الالتقاط السريع للأحداث وفضاءاتها⁽²⁾.

وإذا أنّ خطاب الحجاج في عمومه خطاب سياسيٌّ، فإنّ ما يصاحبه من حركات، له إمكانات الإيحاء التي تحرّك مكامن النفس التي تتهيأ لقبول الخطاب دون إعمال النظر فيه، مما يساعد على الاندفاع والاستجابة للخطاب، كما يجعل الخطيب يستغلّ ما في مخزون ذاكرة جمهوره من الأمثال والأقوال، ومختلف

(1) - جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفت، ص: 288.

(2) - سيميولوجيا الاتصال، كتاب السيميائية والنص الأدبي، ص: 252.

النصوص التي تسهم إلى جانب الحركة في تبليغ الخطاب، وهذه النصوص تبدو وكأنها منتخبة حديثاً، حيث تبدو طرافة حداثتها في اكتشافها وتوظيفها بصورة مغايرة لما كان يعرفه من أبدعها بشيء من الإقناع عن طريق صياغات جسدية ولغوية⁽¹⁾.

وخلاصة القول، إنَّ حركة الجسد لغة، واللغة المنطقية حركة، وكثيراً ما تلتقيُّ ألفاظ اللغة بحركة الجسد في أداء معنى من المعاني أو ينوب أحدهما عن الآخر تلقائياً، ليس بسبب العجز عن الترميز إلى المعنى، ولكن لأنَّ مثل ذلك اعتاد الناس عليه ودخل في نظام تواصلهم اليومي.

وعلى العموم فإنَّ كلَّ الوسائل الآنفة الذكر؛ من صور منطقية-دلالية إلى وسائل لغوية، إلى وسائل سيميولوجية كلُّها تتضادر لتكون من أنجع الوسائل الإقناعية التي يعتمدُها كلُّ من له غرض يود تحقيقه.

1) - سيميولوجيا الاتصال، كتاب السيميائية والنص الأدبي، ص: 255.

نَارٌ تَمْرَدُ

بعد هذا العرض البسيط لموضوع الخطاب الإقناعي التواصلي كانت الدراسة بمثابة اختبار جُزئي للإلقاء العربي المختص بالخطابة، وهذا تميزت الفصول - عموماً - بالاتجاه نحو التعريف المبدئي لمصطلحات الموضوع؛ الخطاب، الإقناع، التواصل، ثم الخطاب الإقناعي التواصلي، حيث إن كل مصطلح يشد برقبة الآخر، وأول ما استدعي مني التعريف هو الخطاب؛ بعده المصطلح المفتاح الذي يقودني حتماً إلى تحليله لاكتشاف كل ماله علاقة به.

ولأجل ذلك، اعتمدت على بعض المناهج الحديثة لأنني رأيت أنه بإمكانها مساعدتي على الكشف عن أهم الآليات المنهجية التي باستغلالها سأصل إلى ما أطمح إليه من تغيير في تجاوز القراءات السابقة لتراثنا، ولو بتحقيق المبادرة في الأخذ بأسباب البحث العلمي الحديث؛ حتى أستطيع تقييمه التقسيم الموضوعي والابتعاد عن الدعوات المعددة والمرجحية البعيدة عن الدقة العلمية، وتجاوز بعض التطرف الذي لوحظ في التعامل مع التراث العربي عامّة.

إن إعادة النظر في التراث، لن تأتى لنا إلا باتباع الخطوات العلمية الموضوعية التي تمنحها إياها بعض المساعي والجهود الفكرية التي تسعى إلى توظيف روح العلم في دراسة الأدب، حيث يكفي أن تكون بها أكثر تريشاً في إصدار الأحكام وأقل جزماً بالحقائق وممارسة سلطة القيم.

ومن هنا عاينت في الفصل الأول "البلاغة والتحليل التداولي للخطاب"، الجانب البلاغي، والجانب الخطابي بصفة عامة لما لذلك من حضور فعال في كل نشاط إنساني؛ وذلك أن الجانب البلاغي يدخل في تشكيل الخطاب كآلية رئيسة لتحقيق تواصل مميز ومتّم بين الناس.

وإذا كانت نظرية التواصل اللساني تنطلق أساساً من معرفة كيف يتم التواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله، فهي رغم ذلك، تفتح باباً مهمّاً لمعرفة الطرائق والآليات والتقنيات التي تتم بها صياغة الأقوال، ومن ثمّ فهي تتطلّ على الكيفية التي يشتعل بها الذهن البشري لترتيب الأفكار والتعبير بها عن المشاعر والمعتقدات، والتأثير بها في الآخرين، وإذا كانت هذه الوظائف في غالبيتها ترتبط بالمعنى الضمني (غير المباشر) وليس بالمعنى الحرفي (المباشر) الذي هو مجال النظريات التواصلية العلمية (الآلية)، فإنّ النظريات المعاصرة افتتحت على معطيات تجاوزت النقل الحرفي إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياسية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين، وهي معطيات تداولية، تجهز الفضاء التواصلي العام، بمختلف العوامل: المعرفية والسياسية والنفسية والاعتقادية.

ولقد عادت البلاغة اليوم وتبينت وجهات نظر المشغلين بقضاياها، كما حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتد باعتبارها فناً للتعبير أو فناً للإقناع تجاذبها بشكل مستمرٍ وحادٍ، فحين يتسع مجال النقاش الديمقراطي كهيمن كفن للإقناع، وحين يتقلّص مجال الحرفيات ترتكن في الأديرة والمعابد كفن للتعبير والإعجاز، غير أنّ هدفها في الأخير يبقى هو الاتجاه نحو الآخر من أجل إشراكه والعمل على انحرافه في قضية ما أو طرح معين، وذلك إما عن طريق الإغراء "فن التعبير" أو عن طريق الحجاج "فن الإقناع" ويتحدد موقع المستمع في اختيار أحدهما، وهو رهان لم يدرس بكامل الدقة من قبل دارسي البلاغة القديمة.

خاتمة

واعتماداً على التحليل الذي قدّمناه لأطروحتنا، وانطلاقاً من التراكمات النظرية والتطبيقية التي خلفتها الدراسات القديمة والمعاصرة يمكن تصور منظور جديد للبلاغة، لا باعتبارها نظرية لإنتاج الأفكار أو الممكن منها، ولكن باعتبارها فناً للإيقاع النظري والثقافي الإيديولوجي، التي يحتلُّ فيها موقع المسمع قطبًاً أساساً يحدد طبيعتها وابتهاها وأهدافها.

ومن التحليل التداولي للخطاب؛ استنجدت أنَّ أفعال الكلام يمكن اعتبارها تمازجًا للقصد التواصلي؛ ذلك أنَّ القصد التواصلي للمتكلم لا يعتمد فقط على الدلالة اللسانية للقول؛ بل ينطلق منها ولا يتتجاوزها بتشغيل كل أنواع المقدمات والمؤشرات والقرائن السياقية ويجند لذلك قدراته الاستدلالية والاستنتاجية التي تدخل في اعتبارها وفي حسابها أية معلومات كيفرماً كانت سواءً كانت ذات علاقة بالعلامة اللسانية أو بالسياق التداولي.

إنَّ الجوانب التي يمكن أن يدرس بها الخطاب الإيقاعي كثيرة وذلك لأنَّ النقد الحديث يشتمل على وجهات نظر متعددة، غير أنَّ ما منحته لنا وجهة نظر التداولية التي اعتمدنا بعض إجراءاتها سواءً فيما لخص نظرية أفعال الكلام أو نظرية الحديث، في التركيز على طبيعة اللغة الإيقاعية التي يلتجأ كل خطيب إلى استعمالها متى دعت الضرورة أو استدعي الموقف، وذلك بتوظيف أدوات لغوية خاصة بكل موقف.

ولقد رأيت أنَّ العلاقة الجدلية بين الإرسال والتلقى في بعدها التخاططي التداولي، بإمكانها أن تنتج أساليب معينة؛ هي ما عبرت عنها بالتحاور أو

التعارض استناداً إلى بعض ما استنتجه من إطلاعي على بعض طروحات "طه عبد الرحمن" في هذا المجال الذي نحا منحى تأصيلياً في تحليلاته التداولية. ولقد بدا لي من خلال بعض النتائج الجزئية في التعامل مع بعض مفاهيم التداولية الحديثة أنَّ الميراث البلاغي العربي قادر على أن يمدّنا بأكثر مما تمدّنا به هذه المناهج في طريقة دراسة طائق الاستعمال الأدبي للغة، وإنَّ تأصيلها كفيل بأن يقدم لنا أفقاً نظرياً كاملاً لرؤيه ما هو أدبي وفهمه.

أما بالفصل الثاني "الخطاب الإقناعي—وسائله ومحالاته" فلقد توصلت إلى نتيجة مفادها، أنَّ ميدان الحجاج يعتمد أساساً على البلاغة الكلاسيكية والحديثة، كما نجد ذلك عند "تيتكا" و"بيريلمان" أو يعتمد على المنطق الطبيعي كما رأينا عند "كرييس" أكثر من اعتماده على اللسانيات والتداوليات، وبعبارة أخرى فإنَّ دراسة الحجاج أخذت هتمم بإستراتيجية الخطاب الهدف إلى الإغراء والاستهلاك استناداً إلى أنماط الاستدلالات غير الصورية، وذلك بغية إحداث التأثير على المخاطب بالوسائل اللسانية والمقومات السياقية التي تجتمع لدى المتكلم أثناء القول من أجل توجيه خطابه والوصول إلى بعض الأهداف الحجاجية، وهي القضايا والأبحاث التي اهتم بها كل من "ديكرو" و"بيريلمان"، وأصحاب التداوليات المعرفية، وأصحاب النظريات الحجاجية المعاصرة والمستغلون بتحليل الخطاب، وهي دراسات استندت في ذلك إلى مجموع من الآليات والبنيات اللغوية والمنطقية والتداولية والمعرفية.

تلك الآليات والبنيات التي مكتتبني من البحث في شعرية الإلقاء الخطابي؛ وهو بحث في صميم الدراسات اللسانية ولا يمكن إبراز خصوصيات الشعرية إلا

خاتمة

من خلال الدراسة المأهولة لسانية؛ لأنّ نشوء الشعر والخطابة كان شفاهياً؛ لذا فإن العيوب اللسانية تتجلى في الأداء لا في الكفاءة.

وعلى ذلك الأساس؛ كان الإلقاء الخطابي أرضية لتجليّة الشعرية وخصوصيتها خاصة بعد تطور التدوين والتوثيق الكاليفرافي في النص؛ هذا تطوير الذي كان له الفضل في انتشار بعض الدراسات؛ كالسيميائيات التي ساهمت بدورها في التأثير والإقناع إلى جانب تلك الآليات والبنيات اللغوية-المنطقية الدلالية.

ويسمح الإلقاء أو الأداء بإخراج النص من فضاء الكتابة إلى فضاء النطق إخراجاً "أكستيكياً" "دلالياً" حيث يتحكم الملقِّي في هذه العملية تحكماً متقدماً، وذلك أن التفاعل في الإلقاء سياقيٌّ، حيث تمكن شعريته في استغلال الحالة التي تعدّ بمثابة تراث بـ"مفهوم" "ياكبسون"، وبمثابة الحدث اللسانـي بمفهوم "مارتيني"؛ أي أنّ الإلقاء يتموضع عن الانفعالية والتأثيرية.

ولأنّ شعرية الإلقاء مرتبطة بالشفاهية الثانية المحافظة على التوازي باعتباره ظاهرة بلاغية لسانية تعني تكرار ظاهرة لغوية في زمن معين، تلقت من التفريق بين الشعرية في النص والشعرية في الخطاب، فاستنتجت أن النصّ متن لغوـي، بينما الخطاب إلقاء هذا المتن شفاهياً؛ وهذا حدّدت الشعرية، بكونها إسقاطاً مبدأ التوازي من محور الاختبار على محور التراكيب وفق نظرية "ياكبسون" فأمّا شعرية النص، فهو التوازي في بناتها الصوتية ومقاطعها، وأمّا شعرية الخطاب فهو التوازي القائم ما بين أشكال النبر والتنعيم، والوقف، والوزن والإيقاع.

خاتمة

وشعرية الخطاب تعيد للنص الحديث -المتميز بتخلخل بناء- توازيه من خلال الإلقاء الذي يحافظ على نسق التوازي في الوقت الذي لا يحافظ فيه النص الشعري عليه، ولعلّ هذا الذي يفسّر كون التوازي ظاهرة شفاهية؟ لأنّه يتجلّى في الإلقاء أكثر من تجلّيه في الكتابة، أو أنّ ظروف وضوحاًه تنبع أكثر في الخطاب من النص.

ويعتبر التوازي أعمّ من التضاد؛ فهو يحتويه إذ يتحذّه مبدأ في تفجير شعرية العمل الأدبي، على خلاف التضاد الذي يتحذّه التوازي سندًا في ذلك، ويمكن بناءً على هذا اعتبار التوازي بنية دلالية إيقاعية وذلك من خلال تلك التكرارات التي تجسّد انسجاماً موسيقياً وجرساً يؤثّر -لا محالة- أثناء عملية الإلقاء.

ولكن الشعرية لا تتجسّد بصورة كاملة إلّا في كونها تتعالّى حدود مستوى النص إلى مستوى الخطاب الذي يحتفظ بشحنات التوازي في حالات إخراج النص إلى الوجود الصوتي والفضاء الزمني؛ وعلى هذا الأساس يمثل النص والخطاب وجهين لعملة واحدة؛ هي عملية الإلقاء، فلا يمكن أن يتم إلقاء نص لا يتّسم بالشعرية، وذلك وفق المقاييس المحددة ضمن ما يسمى بالمعضى اللغوي للشعرية.

وإذا كانت الدراسة قد تعمقت في دراسة وسائل الإيقاع المتمثّلة خاصة في الحجاج والبلاغة والبني اللّغوية (بنية التكرير، بنية الازدواج، بنية التوازي) بالإضافة إلى السيمائيات من إشارة ورمز وحركة جسد؛ فلأنّه لا يمكن أن يكون هناك تواصل لا يكون الإيقاع هدفه؛ خاصة في اللّغة اليومية.

خاتمة

ولقد عمدت في الفصل الأخير إلى المستوى التطبيقي الذي مكّنني من اكتشاف وتحليل بعض مكونات الخطاب الإقناعي، كما مكّنني من العبور إلى أبعاده وتفاعلاته النصية، فكنت في هذا البحث في حركة هي أقرب إلى المد والجزر، في حالتي دخول وخروج، أتحرّك تارة ضمن الخطاب باعتباره طريقة في الأداء، وتارة بصفته نصاً في أبعاده السياقية التفاعلية كالتلقي والتناسق، ولعلَّ الذي يشفع لي هذا التأرجح هو الرغبة الجامحة في قول أشياءٍ كثيرة عن الخطاب الإقناعي.

فاكتفيت بأن يكون البحث مجالاً لعرض أبرز القضايا التي تثيرها إشكالية التواصل والحجاج في الخطاب الإقناعي، والتي آمل أن تلقى كل الاهتمام من قبل الباحثين.

وَنِي الْأَخِير نَسَأُ اللَّهَ التَّوْفِيق وَالتَّبَعَّجَ.

الحمد لله

الحجّاج بن يوسف الشعبي

1- حياته:

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الشعبي بن أبي عقيل، رجل الحرب والخطابة، والجبار الدهنية. ولد بالطائف سنة 41 للهجرة، وكان أبوه معلماً، ولما شبّ الحجاج اتّخذ صناعة أبيه، فراح يعلم الصبيان القرآن الكريم. وأمّه الفارعة بنت هبار طيبة المغيرة بن شعبة.

كان مولد الحجاج في أوّل ظهور الدولة الأموية، وكانت الثورات والفتنة تهزّ أركان هذه الدولة، وتشغل بالحكامين، وكان الحجاج عندما اكتمل شبابه شرطيّاً في شرطة "روح بن زباع" وزير عبد الملك بن مروان، فأشار القائد على الأمير عبد الملك أن يولي الحجاج رئاسة جيشه الذي وجّهه ليقطّي على ثورة الجزيرة.

فأظهر الحجاج شدةً وعنفاً، وأرك الخليفة حاجته إلى ظهير كالحجّاج، فأطلق يده فيما ندب إليه، فاختاره لقتال عبد الله بن الزبير بالحجاز. وقد بلغ من قلة تحرّج الحجاج أنه ضرب الكعبة بالمنجنيق، وكان عبد الله قد تحصن بها، وتمّ له النصر على ابن الزبير، فقتله وأراد أن يعلق رأسه بالكتبة ليكون عيرة لغيره -حسب ما تذكر الكتب القديمة- العقد الفريد، جمهرة خطب العرب، البيان والتبيين. مما كان من عبد الملك بن مروان إلّا أن كافأه بتوليه على الحجاز ثم ولاه من بعد ذلك العراق.

2- صفاته:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج: "أن صفت لي سيرتك. فكتب إليه: إني أيقظت رأبي، وأفنت هواي، فأدنتي السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب

الحاZoom في أمره، وقلّدت الخراج الموقر لأمانته، وصرفت السيف إلى النطف المسيء فخاف المربي صولة العقاب، وتمسّك المحسن بحظه من الشواب".

الرياشي عن العتي وعن أبيه مهران قال: "ما رأيت مثل الحجاج: كان زيه زي شاطر، وكلامه كلام خارجي، وصولته صولة جبار. فسألته عن زيه فقال: كان يرجّل شعره ويختبأ أطراfe".

قال عبد الملك بن مروان للحجاج: "ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصف لي عيوبك. فقال: أعني يا أمير المؤمنين. قال: لابد أن تقول. قال: أنا لجوج حسود حقود. قال: ما في إبليس شرّ من هذا.

3- وفاته:

مات الحجاج بن يوسف في آخر أيام الوليد بن مالك فسرح العراقيون والموالي أيها فرح، ولكن الوليد بن عبد الملك تفجّع عليه كثيراً وولى مكانه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فكفى وجاؤز فقال الوليد: مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبي مسلم فكنت كمن سقط منه درهم وأصاب ديناراً، وكان الوليد يقول: كان عبد الملك يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي. وأنا أقول: إنّه جلدة وجهي كلّه.

4- آثاره:

إنما قيل عن الحجاج كثير، ولكن ما نقلته لنا الكتب قليل، وباطلاعنا على كتاب العقد الفريد، والبيان والتبيين، وكتاب جمهرة خطب العرب ورسائله؛ وجدنا بعض الرسائل التي كانت متداولة بينه وبين الخليفة عبد الملك بن مروان، وبعض الخطب التي يرى الباحثون أن أشهرها خطبة الولاية وخطبة دير الجمامجم.

هذا

ملخص

يتناول موضوع الرسالة: "الخطاب الإقناعي ضوء التواصل اللّغوي (الحجّاج بن يوسيف "نمودجا")، وهو موضوع، ليس من التواصلات الوظيفية التي يستهان بها؛ بل مهمّة في التواصل والتفاهم بين المتحاطبين عامّة.

إنّ الخطاب الإقناعي في التواصل اللّغوي خطاب ثقافي وحضاري، يُعثّل ثقافة الحوار، وثقافة السلام، وثقافة الوئام؛ لأنّه خطاب يقوم على احترام الآخر، وتبادل وجهات النظر ولنا في القرآن الكريم أمثلة رائعة في هذا المجال.

ولقد التجأت الشعوب العريقة ذات الحضارات المجيدة، والثقافات اللّغوية والأدبية والفكرية الرائعة، ومنهم العرب في العصر الجاهلي، وخاصة بعد مجيء الإسلام إلى استعمال الخطاب الإقناعي قبل اللجوء إلى أية قوة مادية، واتضح تاريخياً أن ما يتحققه الخطاب الإقناعي بين الأفراد والجماعات والشعوب أعظم مما يتحقق خطاب العنف والمحروب ولعلّ ما يؤكّد ذلك هو خطب الحجاج التي اخترناها نموذجاً للدراسة والتحليل.

ولهذا تعمقت الدراسة في البلاغة والتحليل التداولي للخطاب، كما تعمقت في دراسة وسائل الإقناع؛ مرتكزة على الحجاج وب مجالاته بعده وسيلة منطقية دلالية لها وظيفتها القيمة في الإقناع، بالإضافة إلى بنية التوازي التي تحدّد شعرية الإلقاء الخطابي.

SOMMAIRE

Le thème de la thèse « Discours persuasif » à la lumière du relais linguistique (El-Hadjadj Ben Youssef étant un modèle), ne concerne pas des relais fonctionnels qu'on peut négliger, mais c'est une mission dans le relais et l'entente entre les interlocuteurs en général.

Le discours de persuasion dans le relais linguistique, est un discours culturel de civilisation. Il représente la culture du dialogue, de la paix et de la concorde car c'est un discours qui repose sur le respect de l'autre et l'échange des opinions. Et nous avons dans le saint Coran des exemples illustres dans ce domaine.

Les anciens peuples de grandes civilisations, de cultures linguistiques, littéraires, spirituelles admirables, parmi eux on cite les arabes, à l'époque antéislamique, notamment à l'arrivée de l'islam, ont eu recours à l'usage du discours persuasif afin de se référer à toute force matérielle. Il s'avère historiquement que ce que réalise le discours persuasif entre les individus, les groupes et les peuples est plus important que ce que réalise le discours de la violence et des guerres.

Peut être ce qui confirme ce sens, ce sont les discours d'El-hadjadj que nous avons choisis, à titre de modèle d'étude et d'analyse.

Sur quoi, l'étude de l'éloquence et de l'analyse délibération du discours s'est approfondie, ainsi que l'étude des moyens de persuasion, attirée sur El-Hadjadj et ses domaines en le considérant en tant que moyen logique sémantique, ayant sa fonction valable dans la persuasion, en plus de la structure parallèle fixant la poétique de la présentation du discours.

SUMMARY

The theme of the thesis « Persuasive speech » in the light of the linguistic relay (El-Hadjadj Ben Youssef being model), no concern of the functional relays that one can neglect, but it is a mission in the relay and the entente between the interlocutors in general.

The speech of persuasion in the linguistic relay is a cultural speech of civilization. He represents the culture of the dialogue, of the peace and of concord because it is a speech that rest on the respect of the other and the exchange of the opinions. And we have in the holy Koran, the famous examples in this domain.

The ancient people of great civilizations, of linguistic, literary culture admirable, among them one quotes the arabs at the time anteislamic, in particular with arrival of Islam, had recourse for the use of persuasive speech in order to refer to any material force. It proves historically that the persuasive speech realize between the individuals carries out, the groups and the people is more important than this speech of violence and wars.

Can be, which confirms this sense, they are the speeches of El-Hadjadj which we chose, by way of model of study and analysis.

On what, the study of the eloquence and deliberate analysis of the speech deepened as well as the study of the means of persuasion, attracted on El-hadjadj and its fields by considering it as a logical semantics, mean having its valid function in persuasion, in more of the parallel structure fixing poetic of the presentation of the speech.

قائمة
المصادر والمراجع

 القرآن الكريم

المصادر والمراجع :

-  الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان أحمد رشى، دار الفكر العربي، 1975.
-  الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، 1997.
-  الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكرياء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
-  أساس البلاغة، محمود الزمخشري، دار صادر، 1979، مادة (خطب).
-  أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هلموت ريت، دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، 1983.
-  أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحري، تحقيق: د.عبد القادر حسين، دار الشرق، د.ط، 1981.
-  أصوات على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987.
-  الإلبلغية فرع من فروع الألسنية، سمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدولة، بيروت، باريس، ط١، 1991.
-  الإعلام الاجتماعي، ميشال لونات، ترجمة: صالح بن حليمة، مراجعة: مصطفى المصمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1993.
-  الإقناع الاجتماعي (خلفيته النظرية وألياته العملية)، د.عامر مصباح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005.
-  الامتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
-  إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتقدير وتعليق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948.
-  إحكام صنعة الكلام، محمد عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1966.
-  البخلاء، عثمان أبو عمرو بن بحر الجاحظ، حقق نصه وعلق عليه: طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948.

قائمة المصادر والمراجع

- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديشي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، 1378هـ.
- البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، تحقيق: خفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969.
- البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1994.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1405هـ-1985م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: د.درويش جويدى، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط، د.ت.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992.
- التحليل العلمي للنصوص، عبد الرحمن حاج صالح، ضمن بحوث في علم اللسان جمع وتصنيف وتقدم صالح بلعيد، مخطوط تحت الطبع، ج1.
- التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، د.ط، د.ت.
- التفكير البلاغي عند العرب، أنسه وتطوره إلى القرن السادس، متروع قراءة، حمودي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981.
- التفكير الفلسفى، إعداد وترجمة: عبد السلام بنعبد العالى ومحمد سبيلا، دار تويقان للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987.
- تأملات في اللغو واللغة، د.عبد العزيز الحبابي، الدار العربية لل الكتاب، ليبيا، تونس، 1980.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1383.
- تحليل الخطاب، ج.ب.براؤن، ج.بول- ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، الرياض، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997.
- تحليل الخطاب الصوتي في ضوء المنهاج النقدية المعاصرة، أمينة لعلى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.
- تحليل الخطاب الروائي، عبد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، لبنان، د.ط، د.ت.
- تطور الأساليب الشعرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملائين، بيروت 1968.

قائمة المصادر والمراجع

-  تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت.
-  الثابت والمحول، أدونيس، صدمة الحداة، دار العودة، بيروت، ط2، 1979.
-  الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980.
-  جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النبدي)، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكم، تونس.
-  جهر خطب العرب، أحمد زكي صفت، المكتبة العلمية، بيروت.
-  جهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفت شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي، 1356هـ-1937م.
-  جيناليوجيا المعرفة، مشال فوكو، ترجمة: أحمد السلطاني وعبد السلام بنعبد العالي، دار توقيف للنشر، المغرب، ط1، 1988.
-  الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969.
-  حصاد المشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، الهيئة المصرية للكتاب، 1999.
-  الخصائص، ابن حني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986.
-  الخطابة العربية أصولها تاريخها في أزهر عصورها، الإمام أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، د.ت.
-  الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف مصر، 1969.
-  الخطابة العربية وفن الإلقاء، د.أشرف محمد موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1978.
-  الخطابة، أرسسطو، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: د.عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979.
-  دراسات في العلاقات العامة والإعلام، علي عجوة، القاهرة، عالم الكتب، 1985.
-  دراسات في علم النفس الاجتماعية، عبد الرحمن محمد عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1974.
-  دراسة الصوت اللغوي، للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ط3، 1985.
-  دروس في الألسنة العامة، فيريدينان دي سوسيير، الدار العربية للكتاب لليا، تونس، 1985.
-  دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موافق للنشر، الجزائر، 1991.
-  دينامية النص (تنظير وإنجاز)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.

قائمة المصادر والمراجع

- رسائل الإعلام وأثرها على تقييم نشأة الطفل الاجتماعي المجتمع العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1992.
- الشعر العربي الحديث بنياته وبناته وإبدالاته، محمد بنّيس، الأجزاء الأربع، دار توبقال للنشر، المغرب، ج 1990.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982.
- الشعري، ميكل دورفرين، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، ترجمة: نعيم علوية، ع 10، شباط، 1981.
- الشعرية العربية، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط 4، 1985.
- الشعرية والتجربة، أرشيدالدمكليش، ترجمة: د. سلمى حضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، د.ط، 1993.
- الشفاهية والكتابية، والرأونج، ترجمة: د. حسن البنا عزالدين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1414-1994.
- شرح الفوائد الغياثية، الملا عصام الدين، دار الطباعة، العامرة، 1321هـ، ص: 282، نقل عن بلاغة الخطاب الإقناعي، ط 2.
- شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، جودة فخر الدين، دار الآداب بيروت، ط 1، 1984.
- الصافي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د. الشوامي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963.
- الصحاب للجوهرى، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد العفتور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1984.
- الصناعتين، (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ترجمة: محمد قمحة، دار الكتب العلمية، 1981.
- طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحى، تحقيق وشرح: محمود شاكر، القاهرة، 1952.
- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى، ش. و. ض: إبراهيم الأبيارى، تقسم وشرح: محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- العمدة، في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيروانى، القاهرة، مطبعة 1925.
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، جدة، 1988.
- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مطبعة المدى، المؤسسة السعودية لطبع ونشر، توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1985.

- الفن ومذاهبه في النشر العربي، د.شوقى ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت.
- الفصول، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1986م
- فصل المقال فيما بين الحكم والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، رجاء عيد، منشأة المعرف بالإسكندرية جلال حزي وشركاه، ط2، د.ت.
- فن الخطابة وتأويل النص ونقد الأيديولوجيا، هانز جورج غادامير، ترجمة: نخلة فريفير، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، 1988.
- في أصول الحوار وتجديده علم الكلام، طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987.
- في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5، 1986.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً، د.محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً، د.محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1992.
- في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباح دار الآفاق للنشر، بيروت - ط3- 1985.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، مادة (خطب).
- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون ترجمة: محمد الولي ومبarak حتور، دار توبيقال للنشر، المغرب، ط1، 1988.
- القول الشعري، د.يحيى العيد، دار توبيقال للنشر، المغرب، ط1، 1987.
- الكتاب سينوغراف، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت.
- اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- اللغة العربية معناها وبناؤها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية، 1989.
- اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، النادي الأدبي بجدة، السعودية، 1989.
- اللغة والبلاغة والمילاد الجديد، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، 1989.

قائمة المصادر والمراجع

- اللغة والتفسير والتواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 193، رجب 1415هـ/يناير، كاثون ثان، 1995.
- اللغة والتواصل (اقرارات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.
- اللغة والخطاب الأدبي، سعيد الغاني، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
- اللّبع، الطوسي أبو نصر السراج، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المتن، بغداد، د.ط، 1960.
- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، 1997، مادة (حجج).
- المثل السائر ضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبابة، دار النهضة، مصر للطباع والتشر، ط2، 1973.
- المدخل السوسيولوجي للإعلام، أحمد الخشاب وأحمد النكلاوي، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1974.
- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، دار الاتحاد العربي للطباعة، ط1، 1989.
- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت.
- المقاربة التداولية، أرمينيكو فرانسواز، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت.
- المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت.
- المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم السجلماسي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980.
- الموقف من القص في تراثنا النقطي، ألفت كمال الروبي، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1991.
- ما وراء الخبر والنشر، فيريديرييك نيتشه، ترجمة: جزيلا فالور حجار، بيروت، ط1، 1995.
- مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ك.فوك، ب.لوفوميك، ترجمة: منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1981.
- مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980.
- مشكلة الإيقاع الشعري، توماشفسكي، الفكر الأدبي كراسة 2، 1922.

قائمة المصادر والمراجع

-  معجم المصطلحات اللغوية، د. خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5: 1995.
-  مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكى، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
-  منهاج البلاغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجي، تقدم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.
-  مواقف في الأدب الأموي (تحليل، دراسة، متنبيات)، د. عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت لبنان، د.ط، د.ت.
-  النص والخطاب والإجراء، روبرت دوبوغراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ-1998هـ.
-  النظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3: 1985.
-  النقد الأدبي الحديث، د. غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973.
-  النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لويس كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982.
-  النقد الأدبي، و.ك. ومزت، ك. بروكس: ترجمة: حسام الخطيب ومحى الدين صبحي، دمشق، 1973.
-  نظرية الأدب رينيه ويليك وأوستين وارين، ترجمة: محى الدين صبحي، مراجعة د. حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981.
-  نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط1، 1983.
-  نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
-  نقد الشعر عند العرب، حتى أواخر القرن الخامس، أحمد الطرابلسي، ترجمة: إدريس بالميح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993.
-  نقد الشعر، قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخاتمي، القاهرة، ط3، 1978.
-  نقد العقل العربي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1986.
-  ثوذج المحادلة من البلاغة العربية، باسل حاتم، بحث مترجم في: بحوث تحليل الخطاب الإقناعي، اختيار وترجمة د. محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419هـ-1999م.
-  وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي، ليلى داود، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2000.
-  10 ثورات في الإسلام، الدكتور: علي حسني الخربوطلي، دار الآداب، بيروت، د.ط، د.ت.

قائمة المصادر والمراجع

المجلات والدوريات والرسائل الجامعية:

- مجله تحليلات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992.
- مجله فصول للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 60، 2002.
- مجله تحليلات الحداثة، العدد 02، معهد اللغة العربية وأدابها، جامعة وهران، 1993.
- مجله الفكر العربي المعاصر، عدد مزدوج 100/101، بيروت، 1993.
- في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران، المجلة العربية للثقافة مجلة نصف سنوية (مارس- سبتمبر)، العدد 28، 1995.
- مجله التواصل، جامعة عنابة، العدد 04، جوان 1996.
- مجله عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والأداب، دولة الكويت، المجلد 28، العدد 01، يوليو/سبتمبر 1999.
- مجله عالم الفكر المجلد 30، العدد 01، مجله دورية محكمة تصدر عن مجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت، ليوليو/سبتمبر 2001.

الرسائل:

- إشكالات التواصل والحجاج (مقاربة تداولية معرفية)، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 1999-2000.
- التبر والتغيم، حكيم والي دادة، مخطوطة رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات، جامعة تلمسان، 1998-1999.
- مقوله التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غرالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000

الدوريات:

- السيمائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وأدابها، جامعة عنابة، 17/ماي 1995.
- اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، مدونة المحاضرات الملقة عام، 2000.
- الضوابط اللغوية لتوجيه الخطاب العلمي، أ.د. سيد محمد غيري، الملتقى التدولي الأول، جامعة البليدة، ماي 2000.
- التصور اللغوي في البلاغة القديمة، د. رمضان كريب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، د.ت.

المراجع باللغة الفرنسية:

-  A Mod of Argumentation from Arabic rhetoric, Insights for a theory of text types, hatim Basil, British society for middle Eastern studies, Bultin 17,1.
-  An introduction to functional grammar M.A.K Halliday Edward Arnold, London, Routledge, Chapman and Hall, Inc USA 2nd Edition (1994).
-  An introduction to general linguistics, F.P.Dinneen, U.S.A, 1967.
-  An introduction to text linguistics. De Beaugrande R, diessler, w.1981.
-  Analisis del discurso, lozono, Jorge penaquarin, Grisixa, Abril- Gouzalo-Madrid- 1986.
-  Argumentation and debate, Freely Austin, J. wids worth publishing Co.Belmont, 2nd, 1966.
-  Argumentation and the decision Making process, Reike Richard D-Sillars, malcolm, O-John Wiley and sons Inc USA, 1975.
-  Argumentation, et Conversation, J.MŒSCLER, Hatier, 1985.
-  Argumentation, Maas, Utz: Spachliches, Handeln II in Hans
-  Barres of phinology, steton R.H.Ohio, 1945.
-  Cohe sion in English, M.A.K, Halliday, Ruqaiya, Hasan, Longman, Th. Impression, 1983.
-  Del Formalis ma a la neoretoria, Pozuelo, y vancos, Jose Maria, Madrid, 1988.
-  Dictionnaire de dédactique des lauges: R. Galisson et D.Coste librairie Hachette- 1976.
-  Dictionnaire de la langue Française le grand Robert, Paris, 1989.
-  Dictionnaire de linguistique (discours Texte)- Jean Dubois et autres, La rousse, Paris, 1973.
-  Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972.
-  Discourse Analysis, G.yule brown, Cambridge, 1983.
-  Elément of general linguistics, André Martinet, London, 1964.
-  Elément pour la lecture des textes philosophies, cossuta frediric, bordas, Paris, 1989.

-  English in parallels : A comparison of English and Arabic prose, E shirly Ostler, south California uni.
 -  Every day Argument, The organization of Diversity in Talk in Analysis, Vol3: Discourse and Dialogue, Academic, press, London, 3d, edition, 1989.
 -  General linguistices, Robins R.H.GB, 1966.
 -  Initiation aux Méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique maingueneau, ed-Hachette niversité, 1967.
 -  Introduction, to phonetics, Bromahah, L.F and dalriduction, cambridge, 1970.
 -  L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique, ISER Wolfgang, presse mergaba, Editeur.
 -  L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscombe, Pierre Margada, édition, Paris, P : 1983.
 -  L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Catherine Kerbrat Orecchioné, Armand colin, Paris, 1980.
 -  l'implicite, Catherine Kerbrat Orecchioné, Edition Armand Colin, Paris, 1986.
 -  L'information et la communication, Roget escaprit. Hachette. Sl. 3ed. 1991.
 -  La Cienca del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984.
 -  La Connaissance philosophique, Grenier Hubert, Ed Masson et Cie Parie, 1973.
 -  La Métaphore vive, Paul Ricœur, Paris, 1975, le seuil.
 -  La philosophie des discours argumentatifs in pratiques auricchio (angues) et Alliés (Revue) N° 73, Mars- 1992.
 -  La sollyistique d'Aristote, Jan Lukasiewicz, tradition de C.Zaslawsky Armand, Collin, Paris, 1972.
 -  La théorie Aristotélicienne de la science, Gilles Gaston Granger, Aubier Montaigne, Paris.
 -  Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, N°21, Hors série, juin- juillet, 1998, auxairre.
 -  Le raisonnement, Robert Blanché, p.u.f, Paris, 1973.
 -  Les échelles argumentatives, Ducrot- (Oswald), édition des minuit, Paris, 1989.
 -  Les méthodes en philosophie, Russ Jacqueline, Ed Armand colin, Paris, 1992.

-  Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition
 Gallimard, Paris, 1974.
-  Les voies du langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982.
-  L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50,
 Paris, 1981
-  Linguistique et poétique, Daniel delas, jacques filliolet, librairie larousse, 1973.
-  Logique, langage et argumentation- meyer (Michel) Hachette Université- 2ème
 édition- Paris- 1982.
-  On the cognitive aspects of the Joke, R.Giora, jornal of pragmatics, 16/1991.
-  Opinions and attitudes in discourse comprehension, Language and
 comprehension, T.A.Van dijk, ed J.F, Ny, w Kintch, Amsterdam, North
 Holland publishing company, 1982.
-  Persuasive speaking, Scott, scheidel, Thomas M foresman and Co. Glenview,
 1967.
-  Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile
 Jacob, Paris, 1988.
-  Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Bordes,
 Paris, 1990.
-  Preliminaries of linguistics phonetics, Peter la Defozed, U.S.A, 1971.
-  Presentation as proof: The language of Arabic rhetoric anthropological
 linguistic, Barbara johnstone Koch vol 25, No 1, 1983.
-  Problèmes de linguistique générale, Emile Benveniste, édition Gallimard,
 Tome I, 1966.
-  Questions de rhétorique, Langage, Raison et séduction, Meyer Michel,
 Librairie générale, Française, Paris, 1993.
-  Reading in argumentation- Andersen jerry, M.Dover, Paul J.Allyn and bacon,
 ic boston, 1968.
-  orica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983.
-  ique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil.
-  e Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes,
 tion.

- Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974.
- Les voies du langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982.
- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981
- Linguistique et poétique, Daniel delas, jacques filliolet, librairie larousse, 1973.
- Logique, langage et argumentation- meyer (Michel) Hachette Université- 2ème édition- Paris- 1982.
- On the cognitive aspects of the Joke, R.Giora, jornal of pragmatics, 16/1991.
- Opinions and attitudes in discourse comprehension, Language and comprehension, T.A.Van dijk, ed J.F, Ny, w Kintch, Amsterdam, North Holland publishing company, 1982.
- Persuasive speaking, Scott, scheidel, Thomas M foresman and Co. Glenview, 1967.
- Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988.
- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Bordes, Paris, 1990.
- Premilinaries of linguistics phonitics, Peter la Defozed, U.S.A, 1971.
- Presentation as proof: The language of Arabic rhetoric anthropological linguistic, Barbara johnstone Koch vol 25, No 1, 1983.
- Problèmes de linguistique générale, Emille Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966.
- Questions de rhétorique, Langage, Raison et séduction, Meyer Michel, Librairie générale, Française, Paris, 1993.
- Reading in argumentation- Andersen jerry, M.Dover, Paul J.Allyn and bacon, inc boston, 1968.
- Rétonica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983.
- Rhétorique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil.
- Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication.

-  Speech communication, Martin Howard, H. Andersen, Knneth E-Allyn and bacon, Inc boston, 1968.
-  Stratégies discursives, actes du colloque du centre de recherches linguistiques de Lyon, presse universitaire de Lyon, 1977.
-  Textlinguistik, Heinemann, Wolfgang, Viehweger, Dieter, eine einfuhrung, Max Niemeyer, Verlag, Tuebingen, 1991.
-  The Cognitive basis for linguistic structure in « hayes, cognition and The development of language, T.G.Bever, (N.Y.Willey 1970).
-  The rhetoric of argumentation, Williams Brandt 1 st, Printing, U.S.A, 1970.
-  The role of repetition in Arabic argumentative discourse : Al-Jubouri, A.J.R: in swoales.j and H.Mustafa (eds): English for specific purposes in the Arabic would Birmingham, Languages cervices unit Aston uni, 1984.
-  Théorie du langage, J P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977.
-  Theory of Amman communication, Stephen W, little john, Charles E-Merrill company, 1978.
-  Traité de l'argumentation, perelman, Ch.Tyteca, olbrechts presses universitaire de Lyon, 1981.
-  Treaté de l'argumentation, la nouvelle rhétorique Perelman, Ch. Oubseches-Tylica Trad, Madrid, 1989.
-  Understanding a phenomenological, pragmatic, Analysis in philosophy, no19, G.B.Madison, Connecticut, green wood press, 1982.
-  Understanding and producing speech E. Matthier and T.Roeper, Great Britain Fontana Paperbacks, 1983.

فهرس المحتويات

شكر و معرفات

إلهام

مقدمة

مدخل: فاء التعامل الاصطلاحي

- 1- المدلول اللغوي لكلمة خطاب
- 4- فما المدلول الاصطلاحي للخطاب
- 9- 1 الخطاب - الكلام
- 11- 2 الخطاب - التلفظ
- 13- 3 الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة
- 16- 3 التواصل اللغوي
- 17- 1 التواصل في بعض المعاجم العربية
- 19- 2 التواصل في معجم المصطلحات اللغوية
- 20- 3 التواصل في معجم اللسانيات
- 21- 4-3 التواصل في معجم (A.Moles Démoël)
- 22- 5 التواصل في معجم تعلم اللغات
- 23- 6-3 التواصل عند السيميائيين العرب
- 29- 7-3 نظرية التبليغ عند "بلومفيلد" (Bloomfield)

الفصل الأول: البلاغة والتحليل التداولي للخطاب

- 34- I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب
- 35- I-1- البلاغة و جمالية اللغة
- 37- I-2- الشعر معياراً للبلاغة
- 42- I-3- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر

44	I-4- خصائص البلاغة
46	I-5- معيار الوظيفة
47	I-6- وظيفة البلاغة القديمة
51	1-8- موقع المستمع في الدراسات البلاغية
60	II البلاغة الجديدة والخطاب
62	1-II- بلاغة البرهان عند "بيريلمان"
64	2-II-1- كيف يكون الخطيب فعالاً ومؤثراً من منظور "بيريلمان"
67	2-II-2- موقف المتلقى إزاء الخطيب
67	2-II-3- كيف تفادى وسم الخطاب بأنه مجرد إجراء
70	2-II-2- البلاغة البنوية العامة
71	2-II-1-2- العمليات الجوهرية
72	2-II-2-2- العمليات العلائقية
76	2-II-2-3- طبيعة الاستجابة الجمالية للنص ووظيفته البلاغية من وجهة نظر البلاغة الجديدة
77	III- التحليل التداولي للخطاب
86	IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصي
87	IV-1- تحليل عمليات التلقى وتأثيرها
91	IV-2- مبدأ الملاءمة (الإصائية)
93	IV-3- أنواع الفهم
99	IV-4- عوامل تكوين فهم الخطاب
99	IV-1-4-1- التوقعات
101	IV-2-4- الأحكام المسبقة

273	- بنية الاستدراج
282	III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج
284	1-III- القياس الخطابي
284	1-1-III- التعارض والتضاد
289	1-2-III- التقسيم المستقصي
289	2-III- المثل
292	IV- الانسجام مع الخارج
294	1-IV- الأسلوب
299	2-IV- السلطة الخطابية
304	3-IV- سعة الاطلاع
310	V- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع)
312	1-V- بنية التكرير
313	1-1-V- أنواع التكرير في خطبة الولاية
318	2-V- بنية الازدواج
327	3-V- بنية التوازي
339	4-V- وظيفة الصور البيانية
344	VI- الوسائل غير اللغوية المصاحبة للخطاب
347	خاتمة
354	الملاحق
356	الملف
359	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس المحتويات

273	II- بنية الاستدراج
282	III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج
284	1-III- القياس الخطابي
284	1-1-III- التعارض والتضاد
289	1-2-III- التقسيم المستقصي
289	2-III- المثل
292	IV- الانسجام مع الخارج
294	1-IV- الأسلوب
299	2-IV- السلطة الخطابية
304	3-IV- سعة الاطلاع
310	V- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع)
312	1-V- بنية التكرير
313	1-1-V- أنواع التكرير في خطبة الولاية
318	2-V- بنية الازدواج
327	3-V- بنية التوازي
339	4-V- وظيفة الصور البيانية
344	VI- الوسائل غير اللغوية المصاحبة للخطاب
347	ناتئه
354	الملاحة
356	الملاحة
359	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس المحتويات

101	IV-3- الصّفات الشخصية للمتلقى
	الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي - وسائله و مجالاته -
109	I- الإقناع
109	I-1- مفهومه
115	I-2- بعض نظريات الإقناع والتأثير
116	I-2-1- نظرية التاءات الثلاثة
118	II- وسائل الإقناع
119	II-1- الوسائل المنطقية- الدلالية ضمن نظرية أنواع النصوص
119	II-1-1- الحجاج
119	أ- مفهومه
132	ب- حقول الحجاج و مجالاته الاستعمالية
171	II-1-2- الاستدلال الحجاجي
171	أ- مفهومه
178	ب- وظيفة الاستدلال في اللغة الطبيعية
179	II-1-3- نظرية أنواع النصوص
180	أ- الوظيفة النصية معيارا أساسها
181	ب- الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي
188	II-2- الوسائل اللغوية
189	II-2-1- بنية التكرير
194	أ- تكرير الشكل
197	ب- تكرير المضمن
201	II-2-2- بنية التوازي

201	أ- التوازي عند هاليداي
204	ب- نظرية التوازي في فن الإلقاء الإقناعي
208	ج- التوازي في اللغة العربية
211	د- التوازي من المنظور الغربي
214	هـ- التوازي وشعرية الإلقاء الخطابي وأثرهما في الإقناع
233	II-3-2- بنية الأزدواج
239	II-3- وظيفة الآليات السيمائية في الإقناع
239	II-1-3- تعريف السيماء
241	II-2-3- الأدوات والوسائل الخطابية الإشارية
241	أ- العلامة
242	ب- الإشارة
243	ج- حركة الجسد
الفصل الثالث: الخطاب الإقناучي في منتخباته من خطب العجاج	
251	I- وسائل جلب الانتباه
251	I-1- الصمت
253	I-2- الأبيات الشعرية
257	I-3- الجمل الإيقاعية
259	I-4- الإشارة
263	II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج
263	II-1- التحاوار
263	II-2- الفاعل
266	II-3- بنية الدعاء

273	II-4- بنية الاستدراج
282	III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج
284	III-1- القياس الخطابي
284	III-1-1- التعارض والتضاد
289	III-1-2- التقسيم المستقصي
289	III-2- المثل
292	IV- الانسجام مع الخارج
294	IV-1- الأسلوب
299	IV-2- السلطة الخطابية
304	IV-3- سعة الاطلاع
310	V- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع)
312	V-1- بنية التكرير
313	V-1-1- أنواع التكرير في خطبة الولاية
318	V-2- بنية الازدواج
327	V-3- بنية التوازي
339	V-4- وظيفة الصور البيانية
344	VI- الوسائل غير اللغوية المصاحبة للخطاب
347	خاتمة
354	الملاحق
356	الملاحق
359	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس المحتويات